بسم الله الرحمن الرحيم

ميقات الحج

العدد : ٣٧

محرم ـ جمادى الآخرة

١٤٣٣هـ ـ السنة : ١٩

مجلة نصف سنويّة تعنى بالشؤون الثقافية

والتّاريخية والسياسية والاجتماعية للحج

| المدير المسؤول: السيّد علي قاضي عسكر |

| مدير التحرير: محمّد علي المقدادي |

| إيران، طهران، صندوق البريد: ٥٨٥٦ / ١٤١٥٥ |

| www.hajj.ir |

الفهرس:

غار حراء، وذكريات النبي صلى الله عليه وآله فيه(١) ٥

آية الله الشيخ جعفر السبحاني

مطارحات في العقيدة (٢) ١٩

سماحة العلامة السيد كمال الحيدري

حكم بناء الطوابق للمطاف والطواف فيها ٨١

علي عندليب

الحجرات ١١٥

محسن الأسدي

قصيدة البردة (١) مدح سيدنا ونبينا محمد المصطفى صلى الله عليه وآله ١٦٧

مقالة و حوار:

الحج جوّ نموذجي للتقريب و الوحدة ١٧٩

أسباب تشتت الأمة الإسلامية ١٨٨

آية الله محمد علي التسخيري

شخصيات من الحرمين الشريفين (٣١) ابن أمّ مكتوم ٢٠١

محمد سليمان

فضائل الحرمين الشريفين في تراث أهل البيت عليهم السلام ٢٢٧

محمدعلي المقدادي

الأخسف بئر الكعبة وخزينتها، دراسة في أدواره التاريخية ٢٤٩

الدكتور عمار عبودي نصار ـ كلية الآداب/ جامعة الكوفة

أخبار من الحرمين الشريفين ٢٧١

ملاحظات:

يرجـــى من العلماء والمحققين الأفاضل الذين يرغبون في التعاون مع المجلة أن يراعوا عند إرسال مقالاتهم النقاط التالية:

١ ـ أن تقترن المقالات بذكر المصادر والهوامش بدقّة وتفصيلٍ.

٢ ـ أن لا تتجـــاوز المقالة ٤٠ صفحة وأن تكون مضروبة على الآلة الكاتبة إن أمكن أوأن تكتب بخط اليد على وجه واحد من كلّ ورقة.

٣ ـ أن تكون المادّة المرســـلة للنشـــر في المجلة غير منشـــورة سابقاً وغير مرسلة للنشر إلى مجلة أخرى.

٤ ـ تقوم هيئة التحرير بدراســـة وتقييم البحوث والدراسات المقدمة إلى المجلة، ولهاالحقّ في صياغتها وتعديلها بما تراه مناسباً مع مراعاة المضمون والمعنى.

٥ ـ يعتمـــد ترتيـــب البحـــوث والمقالات في المجلـــة على أســـس فنيّة وليس لأسباب أخرى.

٦ ـ تعتـــذر هيئة التحرير عن إعادة المقالات إلى أصحابها ســـواء أنشـــرت أم لم تنشر.

٧ ـ المقـــالات والبحوث التي تنشـــر على صفحات المجلة تمثـــل وجهات نظر وآراءكتّابها.

٨ ـ ترسل جميع البحوث والمقالات على عنوان المجلة في طهران.

٩ ـ ترحّـــب هيئـــة التحرير في مجلة ميقـــات الحج بملاحظات القـــرّاء الكرام ومقترحاتهم.

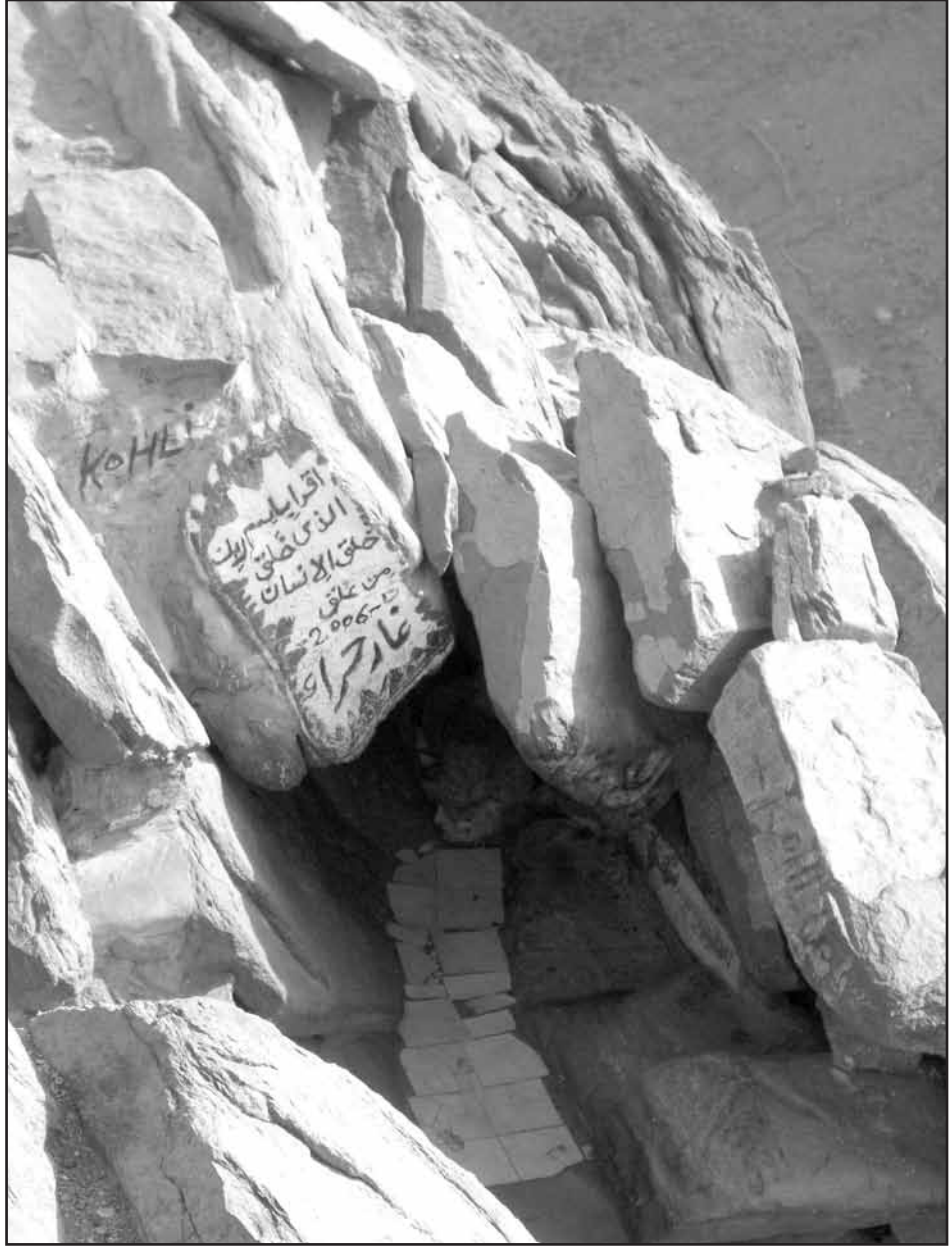

غار حرا وذكريات النبّي صلى الله عليه وآله فيه (١)

آية الله الشيخ جعفر السبحاني

يقع جبل النور في شمال شــرق المسجدالحرام في حَيٍّ سمّي باسمه، ويطلّ على طريق العــدل، وسمّي بجبل النور؛ لظهور أنوار النبــوة فيه، فقد كان النبيﷺ

يختلي بنفسه قبل البعثة في غار منه (و هو غار حراء) ليعبد الله تعالى، وفيه نزل الوحي عليه لأوّل مرة، ومنه أرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً.

يبلغ ارتفاع جبل النور إلى٦٤٢ متراً، ويصير انحدار الجبل شديداً من ارتفاع٣٨٠ متراً حتى يصل إلى ارتفاع٥٠٠ متر، وتبلغ مساحة الجبل خمسة كيلومترات و٢٥٠متراً مربعاً.

وقد ذكر الحموي أنّ الجبل يقع على مبعدة ثلاثة أميال من مكة المكرمة.[١]

وقال غيره على مبعدة نحو ميلين من مكة، وأما اليوم فقد اتسعت المدينة وانتهت قريباً من سفح الجبل.

وأما غار حراء فطوله أربعة أذرع، وعرضه ذراع و ثلاثة أرباع ذراع، من ذراع الحديد.[٢]

وكلّ من يعتمر أو يحج يغمره الشوق لزيارة مكان عبادة النبيﷺ قبل بعثته، ومحلّ إنطلاق دعوته المباركة، وهذا الغار يحمل في رحابه ذكريات كثيرة عن صاحبه الذي طالما تردد إليه، وقضى ساعات بل أياماً وأشهراً فيه... ذكريات يشتاق الناس ـ وحتى هذه الساعة ـ إلى سماعها من ذلك الغار، ولذلك تجدهم يسارعون إليه عندما يؤمّون تلك الديار المشرّفة، متحملين في هذا السبيل كل عناء؛ للوصول إلى رحابه، لكي يستنطقونه عما جرى فيه عند نزول الوحي، ويسألونه عما تحتفظ به ذاكرته من تاريخ رسول الإنسانية الأكبر، وعما جرت من حوادث في ذلك المكان المقدّس، غير أنّ في كتب السير والحديث حول نزول الوحي على النبيﷺ في ذلك المكان أموراً لايصدقها العقل ولا النقل، وإليك بيانها.

١ـ تغطية جبرئيل النبي صلى الله عليه وآله

روى البخاري: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد في الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: إقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني، فغطني حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني فقال: إقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾.[٣]

وفي الرواية تأملات واضحة:

١. ما هو المبرر لجبرئيل عليه السلام أن يروّع النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وأن يؤذيه، فيعصره بشدة إلى حدٍّ يبلغ منه الجَهد؟ يفعل به ذلك وهو يراه عاجزاً عن القيام بما يأمره به، ولا يرحمه ولا يلين له.

٢. لماذا يفعل ذلك ثلاث مرات لا أكثر ولا أقل؟

٣. لماذا صدّقه في الثالثة، لا في المرة الأُولى ولا الثانية، مع أنه يعلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لا يكذب؟

٤. هل السند الذي روى به البخاري قابل للاحتجاج مع أنّ فيه الزُهْري وعروة؟

أمّا الزُهْري فكان سلطانيّاً (كما قال يحيى بن معين)؛[٤] وقد أفسد نفسه بصحبة الملوك (كما قال مكحول)؛[٥] حيث عرف بمؤازرته لحكام الجور من بني أمية، وارتزاقه من موائدهم، وكان كاتباً لهشام بن عبدالملك، ومعلماً لأولاده، وقد جلس هو وعروة في مسجد المدينة، فنالا من علي عليه السلام فبلغ ذلك السجاد عليه السلام حتى وقف عليهما فقال: «أما أنت يا عُروة فإنّ أبي حاكم

أباك، فحُكم لأبي، على أبيك، وأمّا أنت يا زُهْري فلو كنت أنا وأنت بمكة لأريتك كنّ أبيك».[٦]

وأما عُروة بن الزبير، فحكم عليه ابن عمر بالنفاق، وعدّه الإسكافي من التابعين الذين يضعون أخباراً قبيحة في علي عليه السلام.[٧]

نعم رواه ابن هشام والطبري في تفسيره و تاريخه،[٨] بسند آخر ينتهي إلى أشخاص يستبعد سماعهم الحديث عن نفس الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، و دونك أسماءهم:

عبيد بن عمير، ترجمه ابن الأثير، قال: ذكر البخاري أنه رأى النبي، و ذكر مسلم أنه ولد على عهد النبي، وهو معدود من كبار التابعين يروي عن عمر وغيره.[٩]

عبدالله بن شدّاد، ترجمه ابن الأثير، وقال: ولد على عهد النبي صلى الله عليه وآله، روى عن أبيه وعن عمر وعلي عليه السلام.[١٠]

عائشة، زوجة النبي، حيث تفردت بنقل هذا الحديث، ومن المستبعد جداً أن لا يُحدّث النبي بهذا الحديث غيرها مع تلهف غيرها إلى سماع أمثال هذا الحديث.

نعم ورد مضمون الحديث في تفسير الإمام العسكري عليه السلام؛[١١] ونقله من أعلام الطائفة ابن شهر آشوب في مناقبه؛[١٢] والمجلسي في بحاره.[١٣]

لكن الكلام في صحة نسبة التفسير الموجود إلى الإمام العسكري عليه السلام وأما المناقب فإنه يورد الأحاديث والتواريخ مرسلة لا مسندة، والمجلسي، اعتمد على هذه المصادر، التي عرف حالها.

٢ـ شك النبي صلى الله عليه وآله في نبوته ورسالته

هناك أسطورة ثانية تعرب عن أنّ النبي صلى الله عليه وآله بعد أن بشّره جبرئيل عليه السلام بالنبوة، رجف فؤاده حتى أنه أراد أن يلقي نفسه من الجبل! إلى

غـير ذلك من أسـاطير التي حاكها مسلمة أهل الكتاب، وأدخلوها في كتب السـيرة، مع أنّ الأدلة النقلية والآيـات القرآنية دلت على صيانة الأنبيـاء عليهم السلام عن الخطإ والاشـتباه فى تلقي الوحـي أوّلاً، وضبطه في ذاكرتـه ثانياً، وإبلاغـه إلى الناس ثالثاً، وإنهم لايشكّون فيما يُلقى في روعهم من أنه نـداء رب العالمين، وأن مـا يبصرونه، هو رسـول إله العالمين، والكلام كلامه، لا يشكّون في ذلك طرفة عين، ولا يترددون بل يتلقونها بنفس مطمئنة.

هذا هـو القـرآن الكريم يذكر كيفيـة بـدء نـزول الوحـي على موسـى عليه السلام، وأنه تلقاه بلاتردد ولا تريّث، وقد ذكره في سور مختلفة.

يقول سبحانه: ﴿**فَلَمّا أتاها نُودِيَ يا مُوسـى* إِنِّي أنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْـوادِ الْمُقَدَّسِ طُـوىً* وَ أنَـا اخْتَرْتُكَ فَاسْـتَمِعْ لِمـا يُوحـى* إِنَّنِـي أنَـا اللّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ أنَا فَاعْبُدْنِي وَ أقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي* إِنَّ السّـاعَةَ آتِيَـةٌ أكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْـعى* فَـلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهـا وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى* وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسـى* قالَ هِيَ عَصايَ أتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَ أهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى* قالَ أَلْقِها يا مُوسـى* فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى* قالَ خُذْها وَ لا تَخَفْ سَـنُعِيدُها سِـيرَتَهَا الأُولى* وَ اضْمُـمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُـوءٍ آيَةً أُخْـرى* لِنُرِيَكَ مِـنْ آياتِنَا الْكُبْـرى* اذْهَبْ إِلى فِرْعَـوْنَ إِنَّهُ طَغى* قالَ رَبِّ اشْـرَحْ لِـي صَدْرِي* وَ يَسِّـرْ لِي أمْرِي* وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي* يَفْقَهُوا قَوْلِـي* وَ اجْعَـلْ لِـي وَزِيراً مِـنْ أهْلِي* هارُونَ أخِي* اشْدُدْ بِهِ أزْرِي* وَ أشْرِكْهُ فِي أمْرِي* كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً* وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً* إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً﴾.[١٤]

تـرى أنّ الكليم عندمـا فُوجئ بنزول الوحـي، تلقاه بصدر رحب، ولم يتردد في أنه وحيه سبحانه وأمره، ولذلك سأله سـبحانه أن يشرح له صدره، وييسِّر له أمره، ويَحلّ العقدة

التي في لسانه، ويجعل له وزيراً من أهله، يَشُدّ به أزره، ويُشركه في أمره.

يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ * يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.[١٥]

وجاءت هذه القصة في سورة القصص على وفق ما وردت في السورتين؛ ومن لاحظ الآيات يقف على أنّ موقف الأنبياء من الوحي هو موقف الإنسان المتيقن المطمئن، وهذه خاصة تعم جميع الأنبياء عليهم السلام.

نرى أنه سبحانه يذكر رؤية النبي الأكرم، ومواجهته لمعلّمه الذي وصفه القرآن ـ بـ ﴿شَدِيدِ الْقُوَى﴾.

ويقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى* عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى * وَ هُوَ بِالأُفُقِ الأعْلى* ثُمَّ دَنا فَتَدَلّى* فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى* فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى* ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى* أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى﴾.[١٦]

فأي كلمة أصرح في وصف إيمان النبي وإذعانه في مجال الوحي ومواجهته الملك بعينه، من قوله سبحانه: ﴿ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى﴾ أي صدّق القلب عمل العين. ويحتمل أن يكون المراد، ما رآه الفؤاد.

قال السيّد الطباطبائي:

المراد بالفؤاد، فؤاد النبي صلى الله عليه وآله وضمير الفاعل في ﴿مَا رَأى﴾ راجع إلى الفؤاد، والرؤيا رؤيته، ولا بدع في نسبة الرؤية ـ وهي مشاهدة العيان ـ إلى الفؤاد، فإن للإنسان نوعاً من الإدراك الشهودي وراء الإدراك بإحدى الحواس الظاهرة، والتخيّل والتفكّر بالقوى الباطنة، كما أننا نشاهد من أنفسنا أننا نرى [ذاتنا] وليست هذه المشاهدة العيانية رؤية بالبصر، ولا معلوماً بالفكر، وكذا نرى من أنفسنا أننا نسمع ونشم ونذوق ونلمس، ونشاهد أننا نتخيّل ونتفكر، وليست هذه الرؤية ببصر أو بشيء

من الحواس الظاهرة أو الباطنة.[١٧]

فالله سبحانه يؤيد صدق النبي فيما يدّعيه من الوحي، ورؤية آيات الله الكبرى، سواء كانت بالعين أو بالفؤاد.

وعلى كلّ تقدير، فهذه الآيات وغيرها تدل على أنّ الأنبياء عليهم السلام وغيرهم لا يشكون ولاترددون فيما يواجهون من الأمور الغيبية.

وعلى ضوء ذلك تقف على أنّ ما ملأ كتب السيرة وبعض التفاسير في مجال بدءالوحي، ونزول الوحي عليه في غار حراء من أنّ النبيّ تردّد وشكّ عندما بُشّر بالنبوة، وشاهد ملك الوحي، وامتلأ روعاً وخوفاً، إلى حد حاول أن يلقي نفسه من شاهق، وعاد إلى البيت، فكلّم زوجته فيما واجهه، وعادت زوجته، تُسلّيه وتقنعه، بأنه رسول رب العالمين، وأنّ ما رآه ليس إلا أمراً حقّاً، كلّ ذلك أساطير وخرافات، قد دسّها الأحبار والرهبان، وسماسرة الحديث، والقصاصون في كتب القصص والسير والحديث، ونحن نكتفي في المقام بما ذكره البخاري في صحيحه وابن هشام في سيرته، فإنّ استقصاء كل ما ورد حول هذا الموضوع من الروايات المدسوسة، يدفع بنا إلى تأليف رسالة مفردة، ولكن فيما ذكرنا غنى وكفاية.

قال البخاري: بعد نزول أمين الوحي عليه في جبل حراء «فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وآله يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زمّلوني زمّلوني، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلاّ والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فانطلقتْ به خديجة»؛ حتى

أتت بـه ورقة بن نوفل بن أسـد بـن عبدالعـزّى ابن عـمّ خديجة، وكان امرءاً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتـاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شـيخاً كبيراً قد عمي؛ فقالـت له خديجة: يـا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول اللهﷺ خبرمـا رأى، فقـال له ورقـة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك، فقال رسـول اللهﷺ: أو مخرجـيّ هم؟ قال: نعـم، لم يأتِ رجـل قط بمثل مـا جئت به إلاّ عودي، وإن يدركني يومك، أنصرك نصـراً مؤزّراً، ثم لم ينشب،[١٨] ورقة أن توفي وفتر الوحي.[١٩]

هـذا ما لـدى البخـاري، وأما صاحب السيرة النبوية فبعد ما ذكر مسألة الغتّ ينقل عن النبيﷺ أنه قـال: «فخرجت حتـى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسـول الله وأنا جبرئيل، قال: فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم وما أتأخـر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال: فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً، ما أتقدم أمامي، وما أرجـع ورائي، حتـى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا على

مكة ورجعوا إليهـا، وأنا واقف في مكانـي ذلـك، ثم انصـرف عنّي، وانصرفـت راجعـاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة، فجلسـت إلى فخذها مضيفاً [أي ملتصقاً] إليها، فقالت: يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسـلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلي، ثم حدثتها بالذي رأيـت، فقالـت: أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إنّي لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأُمة».

ثم يذكر انطلاق خديجة إلى ورقة بن نوفل، وما أجابها به ورقة بنفس النص الذي ذكره البخاري، ثم يذكر لقاء النـبي صلى الله عليه وآله ورقة بن نوفل، وهو يطوف بالكعبة، فسأله ورقة بما رأى وسمع؛ فأخبره النبيّ صلى الله عليه وآله فقال له ورقة: والذي نفسـي بيـده إنّك لنبي هذه الأمّة.

ثم عقبه بذكر ما قامت به خديجة من امتحان صـدق نبوته، فذكر أنها قالـت لرسـول الله صلى الله عليه وآله: أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا

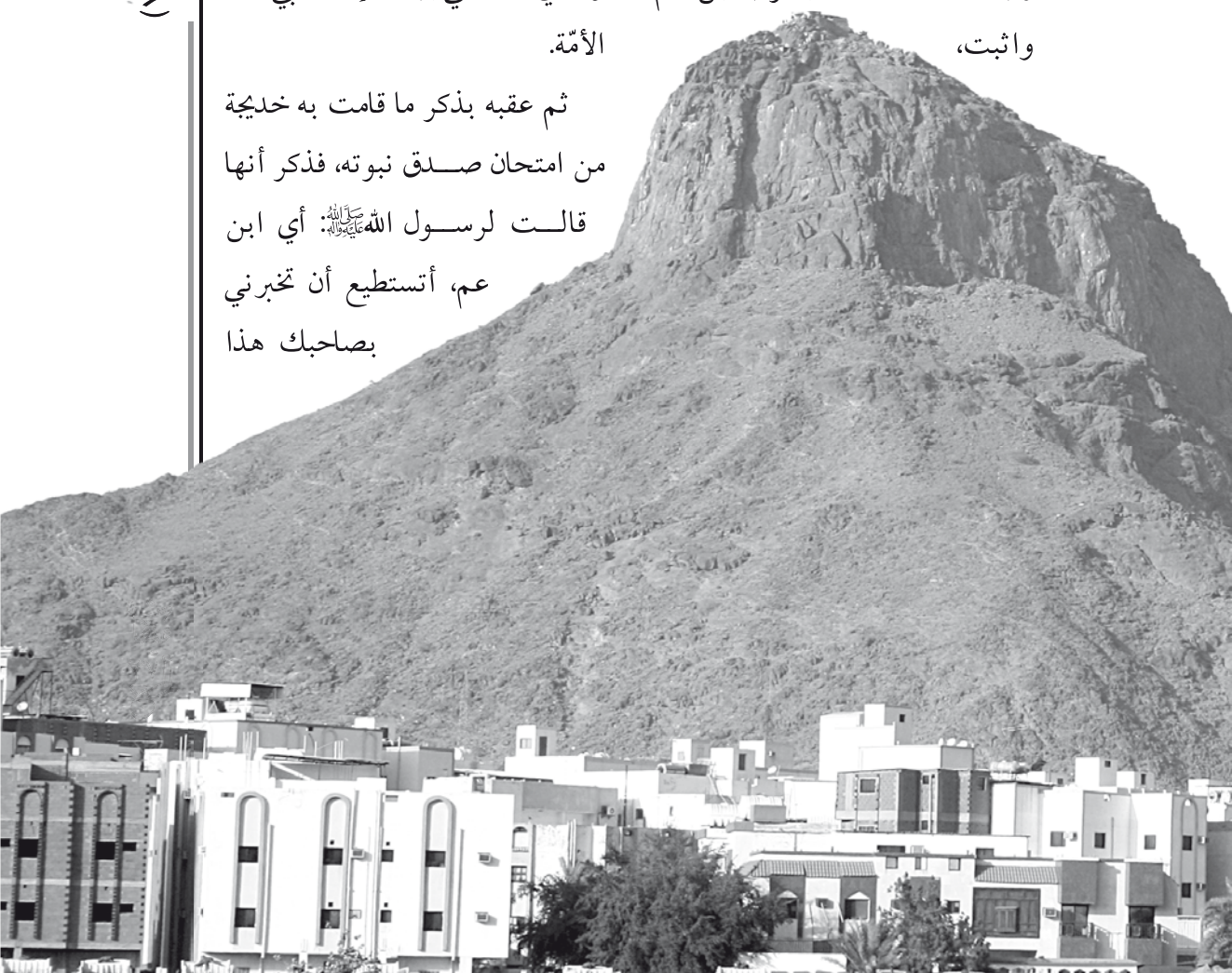

إذا جاءك؟ قال: نعم، قالت: فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه جبرئيل فقال رسول الله ﷺ لخديجة: هذا جبرئيل قدجاءني، قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى، قال: فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحوَّلْ فاجلسْ على فخذي اليمنى، فجلس على فخذها اليمنى فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحوَّلْ واجلس في حجري، فتحول فجلس في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم. فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله جالس في حجرها، ثم قالت له: هل تراه؟ قال: لا.

قالت: يا ابن عم اثبت و أبشر، فوالله هذا ملك وما هذا بشيطان.[٢٠]

ونقل الطبري عن النبي ﷺ أنه عند ما نزل جبرئيل وقال: يا محمد أنت رسول الله، أنّه قال: لقد هممتُ أن أطرح نفسي من حالق من جبل فتبدّى لي حين هممت بذلك، فقال: يا محمد أنا جبرئيل وأنت رسول الله، ثم قال: إقرأ، قلت: ما أقرأ؟ قال: فأخذني فغتني ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: إقرأ باسم ربّك الذي خلق، فقرأت فأتيت خديجة فقلت: لقد أشفقت على نفسي، فأخبرتها خبري فقالت: أبشر فوالله لايخزيك الله أبداً، و والله إنّك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكَلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد، فقالت: إسمع من ابن أخيك، فسألني فأخبرته خبري، فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران... .[٢١]

نظرة تحليلية حول هذه النصوص:

إنّ هذه النصوص التاريخية

التي نقلها المشـــايخ كالبخاري وابن هشـــام والطبري، وتلقاها الآخرون من بعدهم، على أنها حادثة متســـالم عليها، تضاد ما يستشفه الإنسان من التدبر في حالات الأنبياء في القرآن الكريم، وتناقـــض البديهة العقلية، وإليـــك بيـــان مـــا فيها مـــن نقاط الضعف، وعلائم الجعل والتهافت:

إنّ النبـــوة كمـــا ثبـــت في محلّه، منصب إلهـــي لا يفيضه الله إلاّ على من امتلك زخماً هائلاً من القدرات الروحية، والقوى النفســـية العالية حتـــى يقـــوى على معاينـــة الوحي، ومشاهدة الملائكة، فعندئذ فلا معنى لما ذكره البخاري: «لقد خشيت على نفســـي» أ فيمكـــن أن ينزل الوحي الإلهـــي علىمن لا يفـــرق بين لقاء الملـــك، ولقاء الجـــن ومكالمته حتى يخشى على نفسه الجنون أو الموت؟

وأســـوأ منه ما ذكره الطبري من أنه صلى الله عليه وآله همّ أن يرمي بنفسه من شاهق من جبل، فندم عليه ورجع عنه حين سمع كلام جبرئيل، يقول له: يا محمد أنا جبرئيل.

إنّ هـــذا الكلام يعـــرب عن أنّ نفســـه صلى الله عليه وآله لم تكن مستعدة لتحمل الوحي إلى درجة، همّ أن يقتل نفسه بالإلقـــاء من حالـــق، و هل هذا هو إلاّ نفس الجنون الذي كان المشركون يصفونه به طيلـــة بعثته؟ فوا عجباً مانســـمعه مـــن أعوانـــه وأنصاره، وأخيراً من لسان زوجته!

إنّ قول خديجة لرســـول الله صلى الله عليه وآله: «كلا والله ما يخزيك الله أبداً» يعرب عـــن أنها كانت أوثـــق إيماناً بنبوته من نفس الرسول، فهل يمكن التفوّه بذلك؟ ومـــا حاجة النـــبي الأعظم الذي قال تعالى في حقّـــه: ﴿**وَعَلَّمَكَ مـــا لَمْ تَكُنْ تَعْلَـــمُ وَكانَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾.[٢٢] إلى هذا التسلّي؟

ذكر البخاري أنّ خديجة انطلقت مع رســـول الله صلى الله عليه وآله إلى ورقة، فأخبره

رسـول الله بما وقع، فأجاب ورقة بما ذكره، وإنّ ما نزل عليه هو الناموس الذي نزّل الله على موسى.

إنّ معنى هذا أن يكون ورقة أعلم بالسرّ المودع في قلب رسول الله من نفسـه، كما أنّ معنـى ذلك أنّ كلاً من الزوجين كانا شـاكّين في صحة الرسـالة، فانطلقـا إلى متنصّر قرأ وريقات من العهدين حتى يستفتياه؛ ليزيل عنهما حجاب الشكّ و غشاوة الريب!!

إنّ معنى ما ذكره البخاري من أنّ ورقة أخبر النبيﷺ بأنه سيخرجك قومك، فتعجب الرسـول من هذا الكلام وقـال: أو مخرجيّ هم؟ كون المرسـل إليـه أعلم من الرسـول وأفضل منه!

إنّ مـا ذكره ابن هشـام من (أنّ الرسـولﷺ كلما رفع رأسـه إلى السماء لينظر، ما رأى إلا رجلاً صافاً قدميه في أفق السـماء، فلاينظر في ناحية من السماء إلا رآه فيها) يشبه كلام المصابين في عقولهم وشعورهم، والمتخلّفين في أفكارهـم، فلايرون في كل جهـة إلا الصـورة المتخيلة، لطغيانها على مخيلتهم وشـعورهم. أعاذنا الله من نسبة الشنائع إلى مقام النبوة بنحوٍ لا يليق بساحة العاديين من النـاس، فضلاً عن النبي الأكرم خاتم النبيينﷺ.

أنظـر إلى امتحان خديجة لبرهان النبوة، فإنّ ظاهرها أنها كانت شاكّة في نبوة زوجها، ولكنها استحصلت اليقين على الوجـه الذي سمعته في كلام ابن هشام والطبري، ولكن أي صلة بـين رفع الخمار وإلقائه وعدم رؤيـة جبرئيل؟ وهـل لرفع الخمار وتعرية شـعر الرأس تأثير في غياب أمين الوحي عن البيت؟

تـرى أنه سـبحانه ينقل في غير سورة من سور القرآن الكريم محادثة الملائكـة زوجة الخليل وتبشـيرها

بالولد، فهل يمكن لنا أن نقول بعد ذلك: إنّ زوجة الخليل لو كانت مكشوفة الرأس؛ لامتنعت الملائكة من دخول بيت الخليل عليه السلام؟!

إنّ ورقة بن نوفل على حدّ تصريح نص الرواية كان أول أمره نصرانياً، بعد ما كان مشركاً، فمقتضى الحال أنْ يشبه الرّسول الأعظم بالمسيح الذي كان يعتقد بنبوته، لا بالكليم، أو ليس هذا يعرب عن لعب يد الأحبار في الخفاء في اصطناع هذه الأحاديث، و دورهم في تشويش صفاء رسالة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بأمثال هذه الأساطير، والمهاترات، والخرافات؟

نحن على ثقة ويقين بأنّ النبوة منصب إلهي لا يتحمله إلاّ الأمثل والأكمل فالأكمل من الناس، ولا يقوم بأعباء مهماتها إلاّ من امتلك قدرة روحية خاصة تبعث في نفسه الإذعان، والتسليم، والانقياد، حينما يتمثل له رسول ربه وأمين وحيه، فلا يأخذه الهلع، ولايستولي عليه الخوف، عند سماع كلامه و وحيه، وقد درسنا وضع الكليم عندما فوجئ بالوحي، فما حاق به الروع ولا أحاط به الخوف، ولا همّ بإلقاء نفسه... إلى غير ذلك مما ورد في هذه الروايات.

و بما أنّ القرآن هو المرجع الفصل في تمييز الصحيح من الزائف في جملة هذه الروايات، فهذا يحتم علينا الصفح عنها وضربها عرض الجدار، مضافاً إلى ما فيها من التناقض والاختلاف في حكاية القصة، كما هو معلوم لمن تدبر فيها وتأمل نصها.

٣ـ فتور الوحي و انقطاعه:

وفي المقام أسطورة ثالثة يعبّر عنها في كتب السيرة والتفسير بانقطاع الوحي وفتوره، نستعرضها في العدد القادم بإذن الله سبحانه.

الهوامش:

١ . معجم البلدان ٢: ٢٣٣.
٢ . الرحيق المختوم : ٥٥.
٣ . صحيح البخـاري١: ٣، وللحديث تتمة نأتي بها عن قريب.
٤ . تهذيب الكمال٢٦ :٤٤٢ ـ ٤٤٣، الترجمة ٦٠٦.
٥ . أنظر: سير أعلام النبلاء٥ :٣٣٩، الترجمه ١٦٠.
٦ . أي بيت أبيك.
٧ . الصحيح من سيرة النبي الأعظمﷺ ١ :٢٢٣.
٨ . السيرة النبوية١: ٢٠٠؛ تفسير الطبري٣ :١٦٢؛ تاريخ الطبري ٣: ٣٥٣.
٩ . أسد الغابة ٣ : ٣٦٣.
١٠ . أسد الغابة٤ :١٨٣.
١١ . بحارالأنوار١٨: ١٩٦.
١٢ . المناقب١:٦٤٠.
١٣ . بحارالأنوار ١٨: ١٩٦.
١٤ . سورة طه : ١١ـ ٣٥.
١٥ . سورة النمل: ٨ ـ ٩.
١٦ . سورة النجم: ٤ـ ١٢.
١٧ . تفسير الميزان١٩: ٣٠.
١٨ . لم يلبث.
١٩ . صحيح البخاري ١ : ٣.
٢٠ . السيرة النبوية: ٢٢٧ـ ٢٣٩.
٢١ . تاريخ الطبري ٢ : ٤٩ـ٥٠.
٢٢ . سورة النساء: ١١٣.
٢٣ . لاحظ: سورة هود: ٧١ ـ ٧٣؛ سورة الذاريات: ٢٩.

مطارحات في العقيدة (٢)

سماحة العلامة السيد كمال الحيدري

المحاور الأربعة:

إن هناك محاور أربعة، لابد أن نتوفر عليها بشكل دقيق ومتسلسل حتى ننتهي إلى النتيجة المطلوبة وهي: البحث عن دور السنّة؛ لفهم المعارف الدينية، وهذه المحاور هي:

المحور الأول:

هل نحتاج للسنّة ودورها في فهم المعارف الدينية والقرآنية؟

فقد يقال: إنّ السنّة ليس لها دور في ذلك، وإذا كان لها دور، فدورها هامشيّ ثانويّ، فهو لا يؤثر على المنظومة العقدية والمنظومة المعرفية للقرآن الكريم.

ونقول:

أولاً: إنما صار للصحابة دور باعتبار السنّة، وإلا إذا لم يكن هناك دور للسنّة، إذن ما هو دور الصحابة في ذلك؟

وثانياً: إذا لم يكن للسنّة دور، فما هي أهمية أصحّ كتابين ـ كما يقولون ـ بعد كتاب الله، وهما صحيحا البخاري ومسلم، والمجاميع الروائية والمصادر الأصلية الأخرى؟

وأمرهم عجيب فحينما يحتاجون إلى السنّة، يقولون: إن السنّة لها دور، وعندما يجدون أن السنّة ليست في مصلحتهم الاستدلال بها، ينكرون دور السنّة، ويقولون: أين دليلكم من القرآن؟

وهو تناقض يقع فيه من ليس من أهل العلم بالمعنى الصحيح، بالمعنى الدقيق، نعم حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء، وإلا السنّة إما لها دور وإما ليس لها دور، فلا معنى أنه عندما يرتبط بك الحديث تقول: ورد في صحيح البخاري، ورد في صحيح مسلم، ورد في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ولكن عندما يأتي دور مدرسة العترة وأهل البيت عليهم السلام تقول: عليكم أن تأتوا بدليل من القرآن.

لـــاذا عندما يصل الأمر بنا إلى الســـنة؛ لمعرفة حقائـــق الدين ومعارف الدين، ترفضون القبول بها، وحـــين يرتبط الأمر بكم، بالعقائد والأركان والأصول والصحابة وغيرها تستندون عليها؟

نحن نسألكم:

أين ورد أساساً بحث عن الخلفاء الثلاثة الأول والثاني والثالث؟

لم يرد شـــيء في القرآن الكريم، وكل ما تعتمدونه إنما هو من السنّة، و هل ورد في كتاب الله تعالى أفضلية الخلفاء الأربعة، أو الفضيلة لهم بحسب الترتيب الـــذي أنتم تعتقدون وهو أن الخليفـــة الأول أفضل من الخليفة الثاني، والخليفة الثاني أفضل من الخليفة الثالث، والخليفة الثالث أفضل من الخليفة الرابع؟

أتجعلون الســـنّة عِضين تأخذون ببعض الســـنّة وترفضون بعضاً آخر، تؤمنون ببعض السنّة وتكفرون ببعض. أو أنهم يؤمنون بالسنّة مادامت في مصلحتهم، ويكفرون بها عندما لا تأتي في مصلحتهم، أو تأتي في مصلحة غيرهم!

المحور الثاني:

بعد أن يثبت في المحور الأول أننا نحتاج إلى السنّة في فهم المعارف التي أشار إليها القرآن الكريم والمعارف الدينية بشكل عام. يأتي السؤال التالي:

فما هو دور السنّة في فهم تلك المعارف؟

وقد يقال: أليس القرآن هو تبيان لكل شيء؟ أليس القرآن هدىً للناس؟ إذن ما هو دور السنة؟ وهل لازم ذلك أن القرآن يحتاج إلى من يكمله حتى

نحتاج إلى السنّة ودورها؟

ثم إننا إذا أردنا أن نستدل بالسنّة، فهل هذا يعني أنّ القرآن يوجد فيه نقص؟

إنّ القرآن لا نقص فيه، وهذه حقيقة ثابتة لا ريب فيها. إنّ القرآن غني عن كل شيء، وفي كلمة واحدة أقول: كما أنّ الله سبحانه وتعالى هو الغني، كتابه أيضاً هو الغني؛ لأنه كلام الله، والله غني وكلامه أيضاً غني؛ ولذا ورد في القرآن وصفه في آيات عديدة، منها:

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً...﴾.[١]

﴿...وَأَنْزَلْنَا إِلَيكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾.[٢]

﴿...وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ...﴾.[٣]

﴿... وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.[٤]

فهو بيان، وهدى، ونور، وتفصيل، وتبيان... .

الآن افترضوا أنه ثبت أن هناك حاجة إلى السنّة، وثبت لنا دور السنة، وأنه ليس للتكميل، نعوذ بالله أن نقول كلام المعصوم أو كلام النبي يكمل القرآن، لا، ليس الأمر كذلك، وإنما لنكتة تأتينا سأشير إليها، ومنها إن شاء الله سيتضح معنى حديث الثقلين: «... ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً...».

المحور الثالث:

ما هو الطريق إلى السنّة؟

بما أننا لم نسمع من رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة، فلابد أن نعرف طريقنا إلى السنّة النبوية.

وهنا اختلفت مدرسة الصحابة عن مدرسة أهل البيت والعترة عليهم أفضل الصلاة والسلام، فإن الصحابة انتخبوا طريقاً للوصول إلى السنّة، تضمنته كتبهم ومصادرهم الحديثية، ولهم رجالهم الخاصون بهم. كما هو أيضاً حال مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وكل مدرسة لا تقبل في الأعم الأغلب رجال المدرسة الأخرى.

حتى أن كثيراً من رجال الحديث وهم من الشخصيات العلمية الكبيرة، سقطت عدالتهم، وسقطت وثاقتهم، وسقط الاعتماد عليهم بمجرد أنهم يتشيعون لأهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام، أو بمجرد أنهم روافض بحسب اصطلاح أهل الجرح والتعديل في مدرسة الصحابة.

كما أنه وقع الاختلاف بين المدرستين في قبول الرواية، وفي خبر الواحد وشروطه، وفي الدوائر التي يقبل فيها الخبر الواحد، وفي التواتر وشروطه، وفي المستفيض...

ومن هنا لابدّ أن نتفق على المنهج العلمي الذي نتبعه، و أن الرواية إذا أردنا أن نستند إليها، لابد أن تكون مقبولة عند المدرستين معاً حتى ينطبق قوله صلى الله عليه وآله: «لا تجتمع أمتي على ضلالة».

المحور الرابع:

ولعلّه يعدّ من أهم المحاور الأساسية، وسنتوفر عليه بشكل دقيق وعميق لاحقاً؛ وهو: ما هي الآلية وما هي الأدوات التي من خلالها نفهم السنّة؟

وكيف نفسر السنّة؟ فلو افترضنا أننا اتفقنا على هذه السنّة، وعلى الطريق الموصل إليها، ولكن كيف نفسرها؟

فقد تعددت الاتجاهات في المدرستين، فعندما تأتي إلى مدرسة الصحابة أو مدرسة العترة تجد أن هناك فلاسفة، والفلاسفة لهم اتجاهات متعددة، وتجد أن هناك عرفاء وصوفية.. وأن هناك صراعاً حاداً بين السلفية وبين المتصوفة، وكلهم يدعي وصلاً بليلى، كلهم يريد أن يفهم المعارف الدينية، أنا لا أستطيع أن أشك في هؤلاء أو في هؤلاء. هؤلاء يريدون أن يفهموا الدين، هؤلاء لهم اجتهادهم، طبعاً عندما أقول هؤلاء لهم اجتهادهم، ليس مرادي بعض هؤلاء الجهلة الذين يأتون على الفضائيات، وإنما أتكلم عن العلماء، أتكلم عن المحققين، أتكلم عن الأعلام، وهؤلاء أيضاً لهم كتبهم ومصنفاتهم في هذا المجال، ولهم آراؤهم ونظرياتهم، وهي محترمة جميعاً إذا كانت قائمة على أسس علمية منهجية دقيقة.

إذن يوجد عندنا فلاسفة، ويوجد عندنا متصوفون، ويوجد عندنا متكلمون، وأنتم تعلمون الصراع القائم بين الأشاعرة وبين المعتزلة لم ينته إلى يومنا هذا.

وعندما نأتي في الفقه توجد هناك مدرسة الرأي، وهناك مدرسة القياس.

وعندما نأتي إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام، نجد هناك الأخباري وهناك الأصولي، وهناك المحدث، وهناك الحكيم، وهناك العارف، ونحو ذلك.

أعلام هذه المدارس كلهم لهم غاية واحدة؛ وهي التعرف على أصول الدين ومعارفه، ولكن كل له منهجه الخاص، وأدواته الخاصة، وآليته الخاصة، ومنهجه المعرفي الخاص به للوصول للغاية المذكورة، ومن هنا تعددت عندنا

المدارس والاجتهادات والكلمات.

و كذلك في تفسير القرآن الكريم تعددت عندنا التفاسير، فإذا كان «حسبنا كتاب الله» إذن يكون الفهم للقرآن الكريم واحداً، مع أننا نجد مئة وخمسين إلى مئتي تفسير لكتاب الله تعالى. هذا منهجه فلسفي، وهذا منهجه روائي، وهذا منهجه لغوي، وهذا يعتمد القضايا الاجتماعية.. وهذه مناهج متعددة في فهم كتاب الله تعالى.

ولهذا عندما نريد أن نستدل، ينبغي أن يكون استدلالنا من كتب أعلام المدرسة، فلا يحق لنا أن نذهب إلى هنا وهناك، إلى من يدعي العلم، إلى من يسمي نفسه عالماً وهو من الجهلة، ليس مقصودي هذا الطرف دون الطرف الآخر، بل كلامي مع الكل.

هناك اتجاهان:

بما أن حديثنا منحصر في السنّة النبوية، التي هي محل الإجماع بين المسلمين بمختلف اتجاهاتهم ومدارسهم وأفكارهم.. فهناك اتجاهان أساسيان على مستوى التحليل النظري لدور هذه السنة؛ لفهم تلك المعارف القرآنية والدينية.

الاتجاه الأول:

وهو الاتجاه العام السائد بين المسلمين بمختلف توجهاتهم من فلاسفة ومتصوفة وعرفاء ومتكلمين وفقهاء ومعتزلة وأشاعرة؛ أن للسنّة النبوية دوراً أساسياً في فهم المعارف الدينية. فتقريباً هناك إجماع عملي على هذا،

ولعــلّ هذا يعدّ الدليل الأول علــى أن الدين لا يمكن أن يؤخذ كاملاً إلا ببركة السنّة النبوية، وأنه لا يصحّ فصل السنّة عن القرآن الكريم.

وبما أن السنّة وقع فيها وضع، وفيها روايات ضعيفة، وروايات موضوعة، وهنــاك اختلافات في النصوص الواردة؛ إذن لابدّ أن نجعل المحورية للقرآن، ولكن من غير أن ننســى دور الســنّة، وأثر الســنّة النبوية في استكشاف المنظومة المعارفية للقرآن.

أما الأدلة على ذلك، فيمكن أن نشير إلى دليلين أساسيين:

الدليل الأول:

وهي الآيات القرآنية، وأمرُّ عليها مروراً سريعاً:

١. قوله تعالى: ﴿... **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**...﴾.[٥]

كل ما وردكم عن رسول الله ﷺ ﴿**فَخُذُوهُ**﴾ وهذا أمرٌ، وكل ما نهاكم عنه رســول الله ﷺ ﴿**فَانْتَهُوا**﴾ وهذا نهيٌ، ولو ســأل سائل: لماذا أن كل ما جاءنا سواء كان لفظاً أو تقريراً أو فعلاً لرسول الله ﷺ نأخذه...؟

لأن ذلــك كله يصدق عليه أنه (الســنّة)، ولأنّه صريح القرآن الكريم: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾.[٦]

ولا أريــد أن أدخل في بحث هذه الآية، هل تختص بأقوال رســول الله أم تشمل فعله وتقريره أيضاً؟ هذا حديث آخر مرتبط بعصمة النبي الأكرم ﷺ وأدلتها. وهو موكول إلى محله.

٢. قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ**﴾.[٧]

اتبعونــي في كل ما يصدر عني من قول وفعــل وتقرير؛ وهذه الآية من

الآيات الأساسية في الوصول إلى القرب الإلهي سبحانه وتعالى، يعني أن الإنسان إذا أحب الله ليس بالضرورة أن الله يبادله الحب إلا إذا اتبع الرسولﷺ وعجيبة هذه الآية ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ يعني أن الإنسان لو أحب الله، وكان حبه صادقاً، كما لعلك تجد ذلك في النصرانية، أو في اليهودية، أو في الكنفوشوسية أو في البوذية أو... أو في أي ملة أو نحلة..

فالرسول الأعظمﷺ يقول: «إذا أردتم أن يبادلكم الله الحب ـ أي أنّ الله يحب العبد، لا فقط العبد يحب الله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[٨] ـ فلا طريق لكم إلا اتباعي، وهذا الاتباع خطر جداً؛ لأنّه إذا ضممنا هذه الآية إلى آية: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾ وجئنا إلى حديث الثقلين: «إني تارك ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي». وقد آتانا منه حديث الثقلين، والطريق إلى الله يمرّ من خلال اتباعه، وقد أمرنا باتباع الكتاب والعترة «ما إن تمسكتم بهما» إذن لا طريق للعبد حتى يكون محبوباً لله إلا بأن يمرّ من خلال العترة. ولكي نتبع الرسول لابد أن نتبع العترة حتى يحببنا الله سبحانه وتعالى.

٣. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.[٩]

لو كان الرسول لا يوجد عنده أمر ونهي، أي لا توجد سنّة، فلا معنى لأن يقول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ كيف نطيع من لا أمر عنده ولا نهي؟ وبعبارة أخرى يقولون: إنّ التكرار إنما يفيد التأكيد، إذا لم يمكن حمله على التأسيس. لابد أن نعرف أن إطاعة الله فيها مجموعة من الأوامر والنواهي، وإطاعة الرسول أيضاً فيها مجموعة من الأوامر والنواهي، حتى يقول الله: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، ولذا في آية أخرى

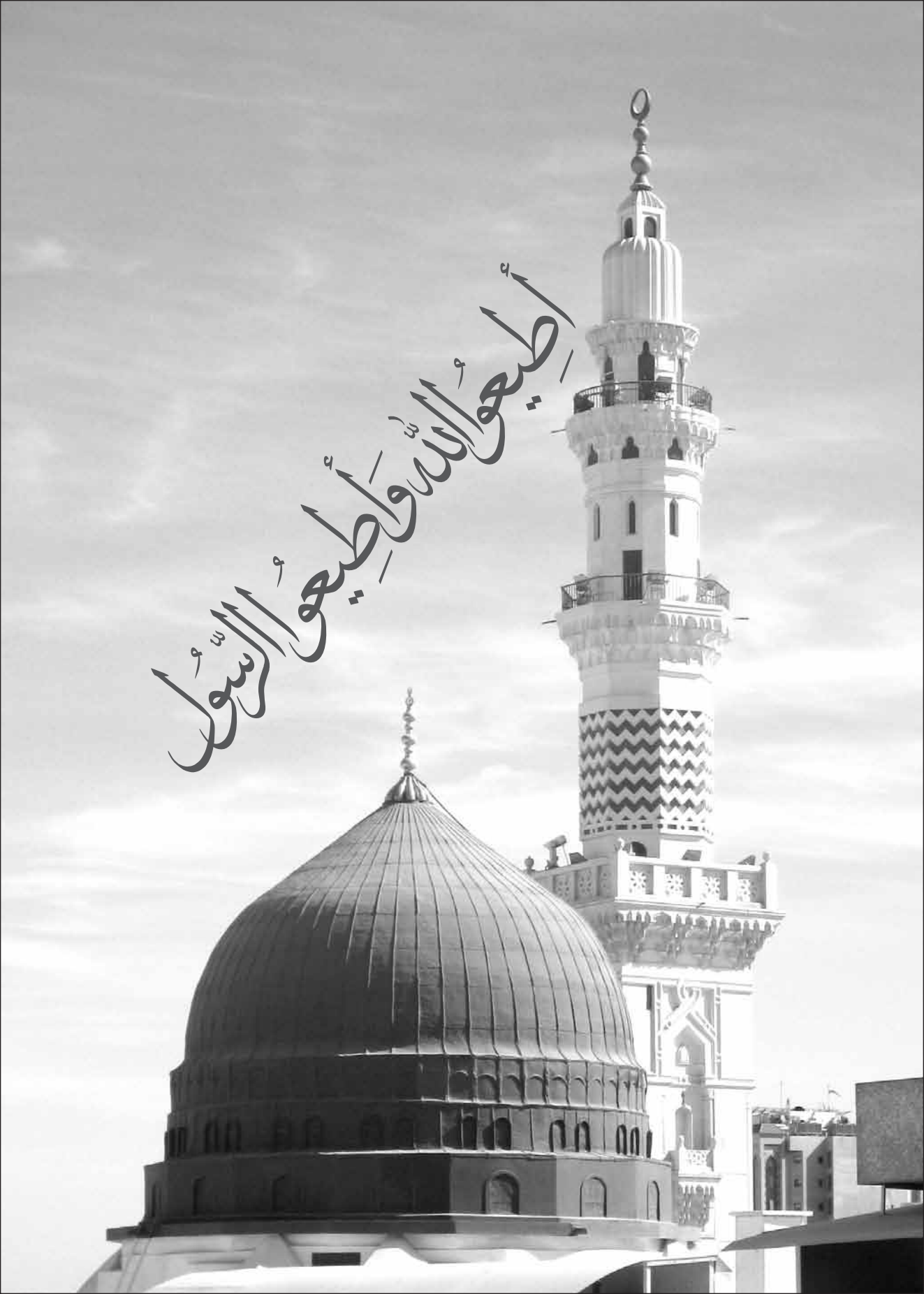
أطيعوا الله وأطيعوا الرسول

قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.[١٠] لأنّه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾.

إذن تكرار الإطاعة، أو تكرار الأمر بالإطاعة، يكشف لنا أن الرسول صدرت منه مجموعة من السنن، التي نعبر عنها بالسنّة النبوية. وطاعة الله تتجلّى بطاعة الرسول. وطاعة الرسول أيضاً هي طاعة لله سبحانه وتعالى.

الدليل الثاني؛ النقلي:

إنّ الدليل النقلي المتواتر المتفق عليه بين جميع المسلمين، ولا يوجد فيه مخالف واحد هو: حديث الثقلين.

قد يقال: حديث الثقلين مختلف فيه، بعض يقول: وعترتي، وبعض يقول: وسنتي.

أقول: سواء كان وعترتي أو كان وسنتي، يُثبت هذا الحديث بلفظيه أن النجاة من الضلال تمرّ ليس فقط عبرالكتاب، وإنما عبر الكتاب والعترة أوالسنّة، فلا إشكال إذن حديث الثقلين بكلا اللفظين يثبت دوراً للسنّة.

فبنصِّ حديث الثقلين أن السنّة لها أثر واضح، إلا أن النجاة من الضلالة متوقف على التمسك بالثقلين؛ لأنّه ﷺ قال: «ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً» بهما لا بأحدهما، إذن كتاب الله وحده لن ينجي من الضلالة، السنّة من دون كتاب الله أيضاً لا تنجي من الضلالة، من الذي ينجي الإنسان من الضلالة؟ كتاب الله وسنتي، وإن كنت أعتقد أن وسنتي لا معنى له إلا وعترتي، وبحثه سيأتي، ولكن تنزلاً وقبولاً أفترض أن الحديث وسنتي. إذن هذا معناه أن للسنّة دوراً أساسياً ومركزياً ومحورياً كما

قال رسول الله: «ما إن تمسكتم بهما».

وقد يعرض لنا سؤال: هل القرآن والسنة أحدهما يكمل الآخر؟ الجواب لا، هذا في المحور الثاني إن شاء الله سنجيب عنه. وهو أن القرآن في أي شيء يحتاج إلى السنّة. وأن السنّة في أي شيء تحتاج إلى القرآن؟ وهل القرآن فعلاً يحتاج، وأن السنّة فعلاً تحتاج، أو نحن الذين نحتاج؟

الدليل الثالث ؛ الإجماع :

وهو الإجماع العملي: فإذا لم يكن للسنّة دور، فلماذا هذه المجاميع والمصادر الحديثية والعلوم؟ وهذا من أهم الأدلة في المقام. الحديث بالمئات بل بالآلاف، سواء على مستوى مدرسة الصحابة: الصحاح، المسانيد. أو على مستوى مدرسة أهل البيت عليهم السلام: التهذيب، والكافي، ومن لا يحضره الفقيه، وإلى غير ذلك؛ هذا يكشف عن أن هؤلاء جميعاً اتفقوا على أن للحديث وللسنّة دوراً في هذا المجال. هذا هو الاتجاه الأول خلاصةً وإجمالاً.

الاتجاه الثاني :

وهو الاتجاه الذي يظهر من البعض أنه لا حاجة للسنّة «حسبنا كتاب الله» «كتاب الله حسبنا» كلا اللفظين وردا، لا نحتاج إلى غيره. وهناك شواهد تاريخية أثبتت عكس ذلك، ومنها النصّ التالي، الذي ورد في صحيح البخاري في مواضع عديدة:

الموضع الأول: الحديث في باب مرض النبي ووفاته صلى الله عليه وآله في كتاب المغازي[١١]، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة، عن ابن عباس

قال: «لما حضر رسول الله وفي البيت رجال ـ حضر يعني حضره الموت ـ فقال النبيﷺ : «هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده».

فعلينا أن نلتفت أنّ رسول اللهﷺ هو الطالب، هو الناطق، «هلم أكتب لكم كتاباً...» وأنّ طلبه هذا يندرج تحت ﴿وَمَا آتَاكُمُ...﴾ وأنه الذي قال فيه تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ ممن هو مرتبط بالشريعة؛ ليس مرتبطاً بأمور عادية، أو بأمور حياتية دنيوية. وفيه نجاة أمته من الضلالة.

والعجيب أنّ في حديث الثقلين جاءت: «لن تضلوا» وهنا أيضاً «لا تضلوا بعده». إذن يوجد توافق بين الحديثين، وهو شاهد صدق لهذا الحديث، لأن حديث الثقلين متواتر، وهذا الحديث أخبار آحاد. و قد يقول قائل: هذا خبر واحد لا يعتمد عليه. وجوابنا أنّ فيه قرائن تدل على صدقه...

وأيضاً «فقال بعضهم: إنّ رسول الله قد غلبه الوجع، قال: حسبنا، قال: فلقد غلبه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا...».

فهذا النصُّ لا يعيّن من هؤلاء الرجال، ولكن المراد من أهل البيت هم يقيناً من أعيان الصحابة؛ لأنّه من يدخل على رسول الله وهو مريض، ويحضر عنده حال الوفاة، إلا إذا كانوا من كبار الصحابة.

وتتمة النص: «فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول: غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول اللهﷺ : «قوموا». قال عبيد الله: فكان يقول ابن عباس: إنّ الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب؛ لاختلافهم

ولغطهم».

الموضع الثاني: الحديث (١١٤)، في باب اسم من كذب على النبي، هناك الرواية عن عبيدالله بن عباس عن عبدالله، عن ابن عباس قال: «لما اشتد بالنبي وجعه، قال: إئتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، قال عمر: إنّ النبي غلبه الوجع».

ومن الواضح المراد من عمر هنا ليس إنساناً نكرة، وإنما هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب: «إنّ النبي غلبه الوجع»،«كتاب الله حسبنا» أو«حسبنا كتاب الله» فاختلفوا إلى آخره، هذا الموضع الأول الذي ورد فيه اسم الخليفة الثاني.

الموضع الثالث: الرواية (٥٦٦٩) من الكتاب، باب كتاب المرضى، الباب السابع عشر، باب قول المريض: قوموا عني، الرواية أيضاً بنفسها عن ابن عباس، قال: «لما حضر رسول الله، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب».

وجاء هذا النص أيضاً في الحديث (٧٠٠٠) في كتاب الاعتصام باب (٢٦) كراهية الاختلاف. والرواية أيضاً في صحيح مسلم في الحديث (١٦٣٧) في كتاب الوصية، الباب٥، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه: «لماحضر، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب».

وفي الرواية: الخليفة الثاني قال: «قد غلبه الوجع»، فهل كان الخليفة الثاني أعرف بحال رسول الله من رسول الله؟!

فرسول الله ﷺ هو يطلب الكتابة، وهو الذي يقول: إنه ينفع أو لاينفع، لاغيره.

وقد يقول قائل: إن هذا اجتهاد؛ نقول: جيد. ولكن اجتهاد في قبال من؟

إنه اجتهاد لا في قبال حديث رسول الله، بل هو اجتهاد في قبال الله سبحانه وتعالى؛ لأنّ القرآن بيّن أن رسوله إذا تكلم بأمر مرتبط بالشرع وبالدين فإنه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾.

ولكن يأتي في مقابل ذلك من يقول: «غلب عليه الوجع»، وبالتالي لا يأخذ منه.

ثم لو قال الخليفة: حسبنا كتاب الله، وما سبق من سنّة رسول الله، لكان فقط يقصد الوجع، ولكن هو يقصد أن السنّة لا حاجة لنا بها، وأحرق الأحاديث، وهذا خير شاهد علمي وتاريخي أنه لم يكن قصده هذا الموقع، وإنما كان قصده كل السنّة النبوية.

فعبارة: «حسبنا كتاب الله» دليل على أن السنّة هامشية ولا أثر لها. ولا يستطيع أحد أن يعطيها تفسيراً آخر.. وسواء القائل به بعض الصحابة أو الخليفة الثاني، فالنتيجة واحدة، فهم «كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» إذا صحّ الحديث.

وبالتالي فهذه الواقعة تنسف لنا نظرية عدالة الصحابة من الأساس خصوصاً إذا قبلنا برواية البخاري، التي هي الرواية (٤٤٣١) باب (٨٣) من كتاب المغازي، قال: «إئتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً، فتنازعوا .. إلى أن قال: فقالوا: ما شأنه أهَجَر».

إذن نسبوا إليه الهجران، وهذا معناه أن الذي نسب ذلك، كان من أعلام الصحابة، من أهل الحل والعقد، هم الذين حضروا البيت، الذين يسمح لهم أن يكونوا حول رسول الله صلى الله عليه وآله وإلا لم يحضر عموم الصحابة .. إنّ هذه الرواية تنسف لنا نظرية الصحابة من أساسها؛ لأن هذا يؤدي إلى

إشكال في عقيدة هؤلاء، في إيمان هؤلاء، طبعاً في إيمان بعضهم. ونحن نعتقد أن الصحابة ليسوا جميعاً على درجة واحدة، فيهم الذي لابد أن يُقتدى به، وفيهم الذي لابد أن يُؤخذ منه، ومنهم من آمن، ومنهم من كفر، وفيهم المنافقون .. وهو صريح القرآن. وهذا وغيره يدعونا إلى أن نضع عدالة الصحابة في الميزان.

نظرية عدالة الصحابة:

لقد احتلّت هذه النظرية مساحةً واسعةً في الساحة العقدية والفكرية والتشريعية، بل ملأت التاريخ أيضاً، كما أنها شغلت أقلام وأذهان الناس كثيراً، حتى باتت تعرف بين جمهور المسلمين بنظرية عدالة الصحابة. وسنبحثها في محاور:

من هم الصحابة؟

ما الدليل على عدالتهم؟

ما الدليل على أنهم كلّهم عدول؟

ما الميزان الذي يميّز به الصحابي عن غيره؟

فهنا محاور عديدة، ولكن في البدء أين تكمن أهمية بحث نظرية عدالة الصحابة؟

في مثل هذا الوقت، يعني ما الأهمية الخاصة؟

في مدرسة الصحابة بمختلف اتجاهاتها الفكرية والعقدية والسياسية

وغيرها، تعني نظرية عدالة الصحابة أنهم جميعاً عدول من غير أن يستثنى منهم أحد.

اما أهميـــة هذا البحث، فإنها تتأتى من أنّ هـــذه النظرية وهي عدالة الصحابة، تمثل المرجعية الأساسية في مدرسة الصحابة لفهم دين الله، سواء كان على مســـتوى القرآن، أو على مستوى السنّة النبوية، ففهمهم للقرآن الكريـــم يمرّ من خلال فهم الصحابة، ومعرفتهم للســـنة هو الآخر يمرّ من خلال الصحابة، فهي تشكل عمقاً وركناً أساسياً في هذه المدرسة.

فمن باب التنظير والتشـــبيه، وحتى أُقرب هذه المسألة إلى ذهن القارئ، أنّ نظرية عدالة الصحابة في مدرســـة الصحابة بمختلف اتجاهاتها؛ بُعدُها أثرُها، أهميتُهـــا، ركنيتُها، كنظرية الإمامة في مدرســـة أهل البيت (عليهم أفضل الصلاة والســـلام) كيف نحن نعتقد بأنّ فهم القرآن وفهم الســـنّة، وبالتالي فهم الدين بشـــكل عام، لا يكون إلاّ من خلال الأئمة المعصومين الذين نعتقد بعصمتهم. فالصحابة عندهم بدل الأئمة المعصومين عندنا. ولا أقـــول: إنهم أعطـــوا العصمة لهم؛ لأنهم يصرحـــون أنهم لا يقولون بعصمتهم. نعم، قالوا بعدالتهم، والعدالة هي أنزل من العصمة بمراتب.

فهـــم من الناحية النظرية، يصرحون أنّ جميـــع الصحابة عدول، ولكنه أيضاً يعتقدون بأنهم قد يخطئون، قد يشـــتبهون، قد ينســـون، إلى غير ذلك. وهذا هو الفارق الأساســـي بين ما نحن نعتقده في أئمة أهل البيت وبين ما يعتقدونه في الصحابة، ولكنهم من الناحية الواقعية والعملية تعاملوا مع الصحابـــة تعامل العصمة، تعامل المعصوم؛ ولـــذا وجدت عندهم نظرية تسمى بمذهب الصحابي، فمن الناحية الأصولية أهل الاختصاص عندهم

يميزون بين سنّة الصحابي وبين مذهب الصحابي:

مرادهم من سنّة الصحابي؛ ما ينقله عن الرسول صلى الله عليه وآله.

أما مرادهم من مذهب الصحابي؛ فهو ما يجتهده الصحابي ويقوله من غير أن يسند كلامه إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله. وقد ذهب بعضهم إلى حجية سنّة الصحابي، بل ذهبوا حتى إلى حجية مذهب الصحابي، وهذا يكشف عن أنهم تعاملوا معهم من الناحية العملية والواقعية تعامل العصمة، وإن كانوا من الناحية النظرية يقولون: إنهم لا يعتقدون بعصمة أي صحابي حتى لو كان هذا الصحابي علياً أمير المؤمنين (عليه أفضل الصلاة والسلام).

أما حديث «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»

فهم ـ وللصدق والإنصاف ـ يعتبرونه من الضعاف ولا يعتمدونه... وياليت أنهم يتحلّون بالصدق والإنصاف والتثبت عندما ينقلون عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وليعرفوا أن كثيراً مما ينقلونه عن هذه المدرسة لا أساس له.

إذن فأهمية البحث تكمن في هذا الركن الأساسي في مدرسة الصحابة، وهو المرجعية الأساسية لفهم الدين، فإذا استطعنا أن نتبين عدم صحة هذه النظرية، فالبعد النظري في هذه المدرسة وهو المرجعية الأساسية لفهم الدين سينهار، وبانهيار هذه النظرية تنهار كل مدرسة الصحابة؛ لأنّ فهمهم للدين قائم على أساس نظرية عدالة الصحابة جميعاً، فتفسير القرآن والسنّة والحلال والحرام، وكل الأمور عقدية كانت أو إيمانية أو تشريعية، لابد أن تؤخذ من الكتاب والسنّة، وطريقهم إلى الكتاب والسنّة

يمــرُّ من قناة الصحابــة في الأعم الأغلب. علماً بــأن نظرية الصحابة لا تعتقد بالعقل ولا تعتقد بحجيته، فإذا ثبت أن هذه النظرية لا أساس لها لا قرآنياً ولا على مســتوى سنّة رسول اللهﷺ عند ذلك لا نحتاج أن ندخل في تفاصيل المناقشة في مدرسة الصحابة، بل تنهار النظرية بطبيعتها بأساسها، كما لو انهارت عندنا نحن في مدرســة أهل البيت مسألة الإمامة، فإن كثيراً مــن الأمور العقدية والحلال والحرام أيضاً تنهــار بانهيارها، فمثلاً الحلال والحرام وما يبينه أئمة أهل البيت ليس من عند أنفســهم، وإنما هو رواية عن رسول اللهﷺ وهناك روايات كثيرة أكدت على هذه الحقيقة أن حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث أبيه إلى أن يصل إلى رسول اللهﷺ فحديثه حديث جبرائيل، وحديث جبرائيل حديث الله سبحانه وتعالى.

إذن نفس هذه الموقعية والأهمية الموجودة للإمامة في مدرسة أهل البيت، نجد نظيراً لها في مدرســة الصحابة. أعطي هذا الموقــع هذا الدور؛ بعبارة أخرى أن مدرسة الصحابة ومدرسة الخلفاء الثلاثة الأول والثاني والثالث ومن جاء بعدهم من الحكم الأموي والعباســي، كلّهم حاولوا بما أوتوا من قوة أن يجدوا أساساً نظرياً لأمر يكون بديلاً عن أهل البيت (عليهم أفضل الصلاة والسلام) ولذا حاولوا:

أولاً: أن يُقصوهم سياسياً كما حصل بعد رسول اللهﷺ .

وثانياً: أن يبعدوهم عن المرجعية الدينية بمختلف الأساليب.

وثالثاً: أن يستبدلوا مرجعيتهم (عليهم أفضل الصلاة والسلام) بمرجعية عدالة الصحابة جميعاً.

إذن أنا أتصور من الناحية العلمية، ومن الناحية العقدية، ومن الناحية

المعرفية أن نظرية عدالة الصحابة في مدرسة الصحابة، ونظرية الإمامة في مدرسة أهل البيت، تشكّلان عنصرين أساسيين في هاتين المدرستين، فإن ثبتت تلك فالحق معهم، وإن ثبتت هذه فالحق معها، وتنهار الأخرى. ومن هنا تأتي أهمية البحث في نظرية عدالة الصحابة.

فمن هو الصحابي؟

في المقدمة لابد أن أقول في كلمة واحدة وبشكل واضح وصريح، بل وبعنوان التحدي العلمي: لم يرد عنوان الصحابي أو الصحابة أو الصحبة لا في القرآن، ولا في حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله متفق عليه بين الفريقين.. نعم هناك عشرات الموارد التي فيها أصحاب وفيها صاحب.. وسنتوفر على ذلك في محله: أن هذا اللفظ استعمل قرآنياً، فهل أريد منه المعنى اللغوي، أو أريد منه المعنى الاصطلاحي، الذي تصطلح عليه مدرسة الصحابة؟

أما في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد ورد في البخاري ومسلم ومسانيد ومجامع أخرى: «أصحابي كالنجوم..»،«من آذى أصحابي فقد آذاني».

إلا أن هذه الروايات ليست حجة علينا؛ لأننا قلنا في أول هذه الأبحاث: إننا نحاول أن نأتي بروايات متفق عليها بين علماء المسلمين حتى تكون مصداقاً لقوله صلى الله عليه وآله: «لا تجتمع أمتي على ضلالة» وهذا بحثه سيأتي.

من هنا سأبين أننا عندما نأتي إلى تعريف الصحابي بحسب الاصطلاح أو الصحبة أو الأصحاب، نجد أن كل من عرّف الصحابي والصحبة اصطلاحاً، لم يستند فيه لا إلى آية قرآنية، ولا إلى حديث من رسول الله صلى الله عليه وآله.

نعم هم أعطوا تعريفاً، أما هذا التعريف ما هو مستنده؟ ما هو أساسه؟

إلى أي شيء استندوا في تعريفهم؟

نعـــم في القرآن الكريم، ورد المهاجرون، و ورد الأنصار، و وردت الأمة، ولكن هذه المفردات، لا علاقة لها بالصحابي والصحبة والأصحاب.

وفي حديث رسول اللهﷺ ورد أصحابي، افترضوا كالنجوم، ولكنه لم يأت عن رسول اللهﷺ حديث يعرّف به ما هو المقصود بالصحابي.

إذن كل هذه التعريفات، التي سوف نقرأها هي اجتهادات من المتأخرين في القرنين الرابع و الخامس.

ففيما يتعلق بتعريف الصحابي بحســب الاصطــلاح الموجود عندهم، أشير إلى مصدرين أساسيين في هذا المجال:

المصدر الأول:

أســد الغابة في معرفة الصحابة لعزالدين بن الأثير أبي الحسن علي بــن محمد الجزري (ت٦٣٠) من الهجرة،[١٢] تحت عنوان فصل: نذكر فيه من يطلق عليه اسم الصحبة:

قال الإمام أبوبكر أحمد بن علي الحافظ بإســناده عن سعيد بن المسيب أنه قال: الصحابة لا نعدهم، إلا من أقام مع رسول الله سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين.

قال الواقــدي: ورأينا أهل العلم يقولون: كل من رأى رســول اللهﷺ وقد أدرك الحلم فأســلم، وعقل أمر الدين ورضيه، فهو عندنا ممن صحب رسول اللهﷺ ولو ساعة من نهار.

وقال أحمد بن حنبل: أصحاب رســول اللهﷺ كل من صحبه شــهراً أو

يوماً أو ساعةً أو رآه.

وقال محمد بن إسماعيل البخاري: من صحب رسول اللهﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه.

وقال القاضي أبوبكر محمد بن الطيب: لا خلاف بين أهل اللغة في أن الصحابي مشتق من الصحبة، وأنه ليس مشتقاً على قدر مخصوص منها، بل هو جار على كل من صحب قليلاً كان أو كثيراً، وكذلك جميع الأسماء المشتقة من الأفعال؛ ولذلك يقال: صحبت فلاناً حولاً وشهراً ويوماً وساعةً، فيوقع اسم الصحبة لقليل ما يقع عليه منها وكثيره.

وقال أبو حامد الغزالي: لا يطلق اسم الصحبة إلا على من صحبه، ثم يكفي في الاسم من حيث الوضع الصحبة ولو ساعة، ولكن العرف يخصصه بمن كثرت صحبته.

إلى هنا اتضح أن كل هذه التعريفات، وتعريفات أخرى سأشير إليها، لا تذكر دليلاً لا من القرآن ولا من السنة، فهي خالية من أي مستند، ولا تخرج عن كونها اجتهادات.

المصدر الثاني:

الإصابة في معرفة الصحابة، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢ من الهجرة)؛[١٣] تحت عنوان في مقدمة المؤلف: الفصل الأول في تعريف الصحابة.

قال في تعريف الصحابي: وأصح ما وقفت عليه من ذلك: أنّ الصحابي من لقي النبيﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام.

فيدخل «من لقيه، من طالت مجالســته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يــرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤيةً ولو لم يجالســه، ومن لم يره لعارض كالعمى». أيضاً يعدّ صحابياً، ثم يدخل في بيان أنه هل يشمل هذا التعريف الجن أو لا يشمل الجن؟

فيصرحون بأنّ الجن أيضاً من أصحاب رسول اللهﷺ ولذا ينقل ـ وهذا عجيــب ـ عن ابن حزم في كتــاب الأقضية من المحلّى يقــول: «من ادعى الإجمــاع فقد كذب على الأمة، فإن الله تعالى قــد أعلمنا أن نفراً من الجن آمنوا وسمعوا القرآن من النبي فهم صحابة فضلاء، فمن أين للمدعي إجماع أولئك ؟».

فالإجماع لابد أن يكون من أمة الجن والإنس، ومن يســتطيع أن يتعرف على رأي الجن؟!.

ثم يدخل في بحث مفصل: هل الملائكة يدخلون أو لا يدخلون؟ ثم يذكر بحثاً آخر وهو: هل يشــمل من مات على الإســلام، من لقيه مؤمناً به ثم ارتد ومات على ردّته؟ يقول: لا، هذا ليس صحابياً، أما من كان مسلماً ثم صار كافراً ثم عاد إلى الإسلام ولم يره، يقول: أيضاً يكون من الصحابة، إلى أن يقــول: وهذا التعريف مبني على الأصح المختار عند المحققين كالبخاري وشيخه أحمد بن حنبل ومن تبعهما، ووراء ذلك أقوال أخرى شاذة.

إذن القول المشهور والمحقق عند هؤلاء الأعلام جميعاً، هو القول الأخير: «أنه كل من لقي النبيﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام» حتى ولو رآه وهو ميــت. أي أنّ النبي حتى وإن كان على فراش الموت لم يدفن بعد، فمن رآه صار صحابياً. فنفس هذه الرؤية تجعله من الصحابة. وبالتالي يتضح من هذا

أن عدد الصحابة ليس له حدٌّ. فكل الذين آمنوا برسول اللهﷺ وأسلموا على يدهﷺ فهم صحابة، إلا من لم يأت إلى المدينة، ولم يرَ رسول اللهﷺ. ولذا الجزري يقول: «وأصحاب رسول الله على ما شرطوه كثيرون، لا يمكن عدّهم. فإن رسول اللهﷺ شهد حنيناً ومعه اثنا عشر ألفاً سوى الأتباع والنساء» فقط الرجال كانوا اثني عشر ألفاً، فإذا حسبت النساء، يصلون إلى العشرين أو الثلاثين أو الأربعين ألفاً.

«وجاء إليه «هوازن» مسلمين، فاستنقذوا حريمهم وأولادهم، وترك مكة مملوءة ناساً، وكذلك المدينة أيضاً، وكل من اجتاز به من قبائل العرب كانوا مسلمين، فهؤلاء كلهم لهم صحبة». وقد شهد معه معركة تبوك من الخلق الكثير مالا يحصيه ديوان، وكذلك حجة الوداع وكلهم له صحبة، ولم يذكروا إلا هذا القدر وهو سبعة آلاف وسبعمئة وثلاثة من الأصحاب رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً، هؤلاء الذين أحصيناهم هؤلاء الذين وجدنا أسماءهم، ولم يذكروا إلا هذا القدر، إذن الصحابي: كل من رأى رسول اللهﷺ ولو كان الرسولﷺ على فراش الموت، ولو لم يغزو معه، ولو لم يخرج معه ولو ولو... .

الخطورة!

فما هو الأمر الخطير المترتب على ذلك؟

أقول: إذا كان كل همهم أن يثبتوا أن هذا الشخص صحابي، لا محذور فيه. حتى وإن لم يرَ رسول اللهﷺ حيّاً بل رآه ميّتاً، فلا مشكلة في هذا، ولكنّ المشكلة والخطورة تكمن فيما ترتبه مدرسة الصحابة على الصحبة.

الخطورة تكمن في أنه لو لم يرَ رسول الله ﷺ ولم يتعلم من رسول الله ﷺ ولم يجالسه ولم، ولم... وبمجرد أن رآه ولو على فراش الموت فهو من الصحابة العدول الثقات الذين يدخلون الجنة...!

أقوالهم في ذلك:

* قال ابن حجر العسقلاني: «اتفق أهل السنّة على أنّ الجميع عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة».[١٤]

إذن القضية إجماعية، لا خلاف فيها في مدرسة الصحابة بمختلف اتجاهاتها، بمجرد أن رأى رسول الله ﷺ صار عدلاً، وليس فقط صار عدلاً، بل لو فعل ما فعل، لا تسقط عدالته أبداً، ولو قتل ما قتل لا تسقط عدالته، حتى لو قتل الحسين بن علي، فهو من الصحابة العدول، لو خرج على إمام زمانه كما خرج معاوية على الخليفة الرابع على حدٍّ اصطلاحهم لا تسقط عدالته، هو اجتهد فأخطأ. ولكن الغريب أنه من يخرج على الخليفة الأول يكون كافراً ومرتداً، وتسمى حروب الردة، ولكنه من يخرج على الخليفة الرابع علي، يسمى مجتهداً..!!!

فهم قد فرقوا حتى بين الخلفاء، حتى فيمن جعلوه هم بأنفسهم خليفة رابعاً، وهم يقولون: نحن لا نفرق بينهم، كيف لا تفرقون؟! أمِنَ الإنصاف أنه من يخرج على الخليفة الأول يكون مرتداً وكافراً وخارجاً عن الدين ويُقتل ويُذبح، أما من يخرج على الخليفة الرابع، فيعدّ مجتهداً... وهذه عبارات ابن كثير وغيره:

* قال ابن كثير في مقدمة الكتاب (جامع المسانيد و السنن)

عاشــراً: رأيه في علي ومعاوية، بعد أن يقــول: «إن أصحاب علي أدنى الطائفتــين إلى الحق».[١٥] مراده أقرب الطائفتين، فالمعركة بين علي ومعاوية، كان علــي فيها أقرب للحق ومعاوية أبعــد. أي أن معاوية على حق أيضاً، وهذا هو مذهب أهل الســنّة والجماعة، فالقضية ليســت قضية رأي ابن كثير، أن علياً هو المصيب، وإن كان معاوية مجتهداً، وهو مأجور إن شاء الله، ولكنْ عليٌّ هو الإمام فله أجران، كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن العاص أنّ رســول اللهﷺ قــال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد».

فلمــاذا لا تقولون لمن خرج على أبي بكــر: إنه اجتهد أيضاً، وقد كان بعضهــم من الصحابــة، وبالتالي فهو صحابي اجتهــد فأخطأ؟ لماذا صار كافراً؟ لماذا صار مرتــداً؟ أما معاوية في موقفه ضد عليٍّ، فقد أصبح مجتهداً وله أجر!

أقول قولي هذا للمنصفين، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وإلا الذين على آذانهم وقرٌ، هذا الكلام لا ينفع معهم، أولئك الذين لهم قلــوب لا يفقهون بهــا، أولئك في الواقع كالأنعام بــل هم أضل، أولئك الذيــن على قلوبهــم غطاء وعلى سمعهم ختم، وعلى أبصارهم غشــاوة، أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.

ثــم لماذا عندما تأتون باســم معاوية، تقولــون: أمير المؤمنين معاوية بن أبي ســفيان (رضي الله عنــه) ولكن لم أسمع أحداً منكــم عندما يأتي إلى الخليفة علــي بن أبي طالب يقول: أمير المؤمنين علــي بن أبي طالب؟ ما الــذي في قلوبكم على علي يــن أبي طالب؟ أين المشــكلة؟ لماذا عندما

تذكرون اســم علي لا تقولون أمير المؤمنين؟ لمــاذا عندما تقولون: الخليفة الأول، والخليفة أمير المؤمنين فلان، بــل حتى عندما يصل الأمر إلى معاوية تقولون: أمير المؤمنين معاوية، بل حتى يصل الأمر إلى من قتل الحســين ابن بنت رســول الله، تقولون أمير المؤمنين يزيد، ولكنه عندما تصلون إلى علي، تقولون: عليٌّ، لماذا؟ أين أدبكم، الذي يجب أن يكون مع الجميع؟ والحديث ذو شجون!

الضابط، ومَن آمن به:

نعود إلى معرفة الضابط، الذي على أساسه نعدُّ أن هذا الإنسان صحابي أو ليس بصحابي:

والضابط هو: «من لقي النبيﷺ مؤمناً به، ومات على الإسلام». فيدخل فيمن لقيهﷺ، من طالت مجالســته أو قصرت، ومــن روى عنه أو لم يروِ، ومن غزا معه أو لم يغزِ، ومن رآه رؤية ولو لم يجالســه، ومن لم يره لعارض كالعمى...».[١٦]

إذن فــكل من لقي النــبيﷺ ورآه وهو على الإســلام وآمن به، فهو صحابي، ولو كان للحظة واحدة فضلاً عن أن يكون معه لساعة أو لشهر أو لســنة أو لسنين... بعبارة أخرى سواء لازمه أو لم يلازمه، نقل عنه حديثاً أو لم ينقل عنه حديثاً، غزا مع الرسولﷺ أو لم يغزِ معه... وفي عبارة الحاكم النيسابوري أنه يشمل حتى الصبيان والأطفال الذين رأوه في عام الفتح.

وعن هذا التعريف، يقول ابن حجر:

«وهذا التعريف مبنيٌّ على الأصح المختار عند المحققين كالبخاري وشيخه

اعلم أن الموفق للتقى

أحمد بن حنبل ومن تبعهما».[١٧]

إذن هو يعتقد أنّ الرأي التحقيقي هو هذا الرأي الذي يسع جميع من رأى النبيﷺ... وهذا يكشف على أنه يوجد قول آخر في هذه المسألة، ولكن المختار عند ابن حجر هذا، وهو الأصح عند المحققين كما يعبر عنه، وهذا يعني أنّ هناك قولاً صحيحاً؛ وهنا أشير إلى بعض أسماء الأعلام من الذين آمنوا بهذا الضابط:

البخاري (ت٢٥٦ من الهجرة) في أحد قوليه، ويوجد له ضابط آخر، ولكن المشهور عنه هو هذا الضابط الذي أشرنا إليه.

أحمد بن حنبل (ت٢٤١ من الهجرة) في قول له.

الحاكم النيسابوري، صاحب المستدرك على الصحيحين.

ابن الصلاح (ت٦٤٣ من الهجرة) في مقدمة ابن الصلاح، تحقيق: بنت الشاطئ.

ابن الحاجب (ت٦٤٦ من الهجرة).

الإمام ابن كثير (ت٧٧٤ من الهجرة).

ابن الوزير (ت٨٤٢ من الهجرة).

الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢ من الهجرة).

الصنعاني (ت١١٨٧ من الهجرة).

هذه خلاصة ما أشرنا إليه من النظرية، ويعدون النظريات الأخرى في ضابط الصحابي ومعرفة الصحابي من الأقوال الشاذة، كما يذكر في الإصابة «ووراء ذلك أقوال أخرى شاذة».

ولا بدّ لي من أن أشير إلى أن هناك جملةً من أعلام مدرسة الصحابة

على اختلاف في الضوابط التي ذكروها، لا يقبلون هذه الدائرة الواسعة لمعرفة الصحابي، وإنما يضيقون الدائرة، فعلى سبيل المثال، بعضهم يقول: لا يعدُّ صحابياً إلا من وصف بأحد أوصاف أربعة، وهي: من طالت مجالسته أو حفظت روايته، أو ضبط أنه غزا معه صلى الله عليه وآله أو استشهد بين يديه. فأدخلوا بعض القيود وضيقوا من دائرة الصحابة، إلاَّ أنّ النظرية أو النتائج المترتبة لا فرق فيها.

و أشير إلى بعض الأعلام حتى يتضح بأنّ ما ذهبوا إليه من أقوال، ليست أقوالاً شاذة، كما يقول في الإصابة، فمن هؤلاء:

أنس بن مالك (ت٩٢ هـ)؛ جابر بن عبدالله (ت٨٧ هـ)؛ سعيد بن المسيب (ت٩٤هـ)؛ معاوية بن قرة المزني (ت١١٣هـ)؛ الواقدي (ت٢٠٧هـ)؛ يحيى بن معين (ت٢٣٣هـ)؛ أبوحاتم، العجلي (ت٢٦١هـ)؛ أبو زرعة؛ الباقلاني؛ الماوردي؛ ابن عبد البر في بعض أقواله؛ المازري؛ والبغوي؛ وابن الجوزي؛ وابن العباد الحنبلي؛ واللكنهوي؛ وجملة من أعلام المسلمين، لا يوافقون على الضابط الذي ذكر على سعته الواسعة، نعم يختلفون فيما بينهم في القيود وفي الشروط التي يضعونها للصحابي.

ولذا قال ابن عبد البر في مقدمة كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب، عندما يأتي إلى ضابط معرفة الصحابي، وتحت عنوان: من هو الصحابي، يقول: الصحابي عند علماء الأصول... والصحابي عند علماء الحديث...[١٨].

وهذا يكشف عن أنه يوجد اختلاف في تعريف الصحابي، فمنهم من قال: هو من طالت مجالسته، ومنهم من قال: هو من ظهرت صحبته

لرســـول الله ﷺ وهو قول شيوخ المعتزلة، ومن قال : هو من أكثر مجالسته... ومنهم من قال كابن الصلاح حكاية عن أبي المظفر الســـمعاني أنه قال: «أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحابة على كل من روى عنه حديثاً أو كلمة، ويتوسعون حتى يعدّ من رآه رؤية من الصحابة...». أي بمجرد أن يراه يكون من الصحابة.[١٩]

هذا وإني لم اســـتقرئ جميع علماء المســـلمين حتى أرى من يقبل القول الأول أو الثاني، أو الضابط الأول أو الثاني. المهم هاتان نظريتان في ضابط معرفة الصحابي، ولا يختلفان إلا في السعة والضيق، فالضابط الأول أوسع من الضابط الثاني.. ولكن ما نســـمعه وما نشاهده أنهم يأخذون بالأول، والذي هو رأي جملة من المحققين، وخصوصاً في مدرســـة الســـلفية الحديثة وبالذات عند الشيخ ابن تيمية، ولعلّ له رأي آخر، ولكن السلفية الحديثة تؤمن بهذا الاتجاه الذي أشرنا إليه.

وأنا عندما أقول: السلفية الحديثة تؤمن بهذا الاتجاه، لا يأتي قائل ويقول: إنّ فلاناً لايقول بهذا القول.. فأنا أتكلم بشكل عام، وأتكلم عن الأعلام، أتكلم عن المدرسة لا عن الأفراد.

طبقاتهم أو مراتبهم:

أما مراتبهم، فنجدها في كتاب معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري ـ وللعلم أن هناك اختلافاً في طبقات الصحابة ـ يذكرأنّ

أولهم: قوم أسلموا بمكة، كالخلفاء الراشدين.

الطبقة الثانية: أصحاب دارالندوة.

الطبقة الثالثة: المهاجرة إلى الحبشة.

الطبقة الرابعة: الذين بايعوا النبيﷺ عند العقبة.

الطبقة الخامسة: أصحاب العقبة الثانية.

الطبقة السادسة: أول المهاجرين، الذين وصلوا إلى رسول اللهﷺ وهو بقباء.

الطبقة السابعة: أهل بدر.

الطبقة الثامنة: الذين هاجروا بين بدر والحديبية.

الطبقة التاسعة: أهل بيعة الرضوان.

الطبقة العاشرة: المهاجرة بين الحديبية والفتح كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

الطبقة الحادية عشرة: هم الذين أسلموا يوم الفتح.

الطبقة الثانية عشرة: صبيان وأطفال رأوا رسول اللهﷺ يوم الفتح، وفي حجة الوداع وغيرها.[٢٠]

هــؤلاء هم طبقات الصحابة، وحتى الصبيان والأطفال الذين رأوه يوم الفتح أيضاً فهم مشمولون بطبقات الصحابة.

وفي كلمات ابن سعد وغيره أنّ الصحابة خمس طبقات، وبعض يقول: سبع طبقات، وبعض آخر يقول: خمس عشرة طبقةً.

فيما الخطيب البغدادي يقول: سبع عشرة طبقةً.

وكلّ هذا لا يؤثر على حديثنا.

عدالتهم:

فعلى كلتا النظريتــين الأولى أو الثانية في تعريف الصحابي، من ثبت

أنه رأى النـــبي فقط وبأي طريق ثبت هذا، تثبت له العدالة المصطلحة في الأبحاث الفقهية، هذا على مستوى هذه الدنيا وهذه النشأة، ويثبت أنه من أهل الجنة قطعاً وجزماً على مستوى النشأة الآخرة. وهذا هو المفصل الذي يفصل مدرسة أهل البيت عليهم السلام عن مدرســة الصحابة في تقييم الصحابة، وهذه هي نقطة الافتراق الأساســية بين مدرســة الصحابة وبين مدرســة أهل البيــت. فبمجرد أنه صحابي فهو عادل عدالة تامة أولاً، وهو من أهل الجنة بلا شك ولا ريب ثانياً.

وإليك كلمات كبار علماء مدرسة الصحابة:

* قــال محمد بن عبــد البر القرطبي: «وهم صحابتــه الحواريون الذين وعوها، وأدوها ناصحين محســنين، حتى كمل بما نقلوه الدين، وثبتت بهم حجة الله تعالى على المسلمين، فهم خير القرون، وخير أمة أخرجت للناس، وقد أثنى الله عزّوجلّ عليهم، ورضي رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم، ثبتت عدالة جميعهم بثناء الله عزّوجلّ عليهم، وثناء رســوله عليه السلام، ولا أعدل ممن ارتضاه الله لصحبة نبيه ونصرته، ولا تزكية أفضل من ذلك، ولا تعديل أكمل منه؛ قال الله تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّٰهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ اَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّٰهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ اَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الاِنْجِيلِ ...**﴾.[٢١]

فقــط في هذه الآية: ﴿... **وَالَّذِينَ مَعَهُ اَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ...**﴾ فأين هذه الآية من الصحابــة؟ أين عنوان الصحابة من عنوان ﴿... **وَالَّذِينَ مَعَهُ اَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ...**﴾؟ أين المعية؟ أنتم تقولــون: ليس بالضرورة أنه غزا أو لو يغزو معه، جالسه أو لم يجالســه، فيما الآية تقول: ﴿...**وَالَّذِينَ مَعَهُ اَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ**

رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً...﴾.

هذا مثل الذين معه أشـــداء على الكفار، فهو ليس مثل الصحابة. ولو كانت الآية تتكلم عن الصحابة لكان الكلام تاماً.

* قـــال الخطيب البغدادي في الكفايـــة، مبوباً على عدالتهم: «ما جاء في تعديل الله ورسوله للصحابة، وأنه لا يحتاج إلى سؤال عنهم، وإنما يجب فيمن دونهم، كل حديث اتصل إسناده بين من رواه وبين النبيﷺ، لم يلزم العمل به، إلا بعد ثبوت عدالة رجاله، ويجب النظر في أحوالهم ســـوى الصحابي، الذي رفعه إلى رسول اللهﷺ لأن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهـــم، وإخباره عن طهارتهم، واختياره لهم في نص القرآن، والأخبار في هذا المعنى تتســـع، وكلها مطابقة لما ورد في نص القـــرآن، وجميع ذلك يقتضي طهـــارة الصحابة والقطع على تعديلهـــم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحد منهم مـــع تعديل الله تعالى لهم، المطّلـــع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق لهم».[٢٢]

إذن فلا يحق لأحد أن يسأل عن صحابي أنه جيد أو لا، بل ليس من حق أحد أن يسأل عن عدله وجرحه أبداً؛ فالصحابة كلهم مطهرون، هذا الذي قلته: إنهم من الناحية العملية يتعاملون مع الصحابة تعامل معصوم، وإن كانوا من الناحية النظرية يقولون: لا.

نعم لك أن تسأل عمن هم دون الصحابة.

هـــذه نظرية الصحابة. فهم يريـــدون أن يرتبوا هـــذه النتيجة الخطيرة العقائدية والعملية حتى على من جاء ووقف وراء رســـول اللهﷺ، أو جاء ورآه في المســـجد فصلى خلفه من بعيد، صار عدلاً، صار طاهراً، مئة عنوان

وعنوان يثبتونه لهؤلاء! والغريب نحن عندما ندعي هذه العناوين من الطهارة والنزاهة والصدق وغيرها في عليٍّ عليه السلام وأولاد عليٍّ عليهم السلام، يقولون من أين ذلك؟ أفي القرآن؟ هذه مغالاة! مع أنه ورد في علي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام ما لم يرد في أحد من العالمين. وأمامكم حديث الثقلين المتواتر بين علماء المسلمين، وهو يمدح علياً عليه السلام، أيوجد عندهم حديث واحد متواتر بين علماء المسلمين يمدح صحابياً غير علي (عليه أفضل الصلاة والسلام) أتحدي، وهنا موضع التحدي العلمي؟ وعندما لا ندخل في سجال معهم، لا لأننا لا نستطيع أن نجيب، بل لأننا نريد أن نبقي هذا الدفين على مدفونيته ولا نخرجه، ولكن عندما يضطروننا لذلك، نظهره لهم.

* قال ابن الأثير: «ولأن السنن التي عليها مدار تفصيل الأحكام ومعرفة الحلال والحرام إلى غير ذلك من أمور الدين، إنما ثبتت بعد معرفة رجال أسانيدها ورواتها، وأولهم والمقدم عليهم أصحاب رسول الله، فإذا جهلهم الإنسان، كان بغيرهم أشد جهلاً وأعظم إنكاراً، فينبغي أن يعرفوا بأنسابهم وأحوالهم، هم وغيرهم من الرواة حتى يصح العمل بما رواه الثقات منهم، وتقوم به الحجة؛ والصحابة يشاركون سائر الرواة في جميع ذلك، إلا في الجرح والتعديل، فإنهم كلهم عدول لا يتطرق إليهم الجرح والتعديل...».[٢٣]

إذن فلا يحق لأحد أن يجرح صحابياً، وليس له أن يسأل عن دليل عدالته؛ فهناك ملازمة بين كونه صحابياً وبين كونه عادلاً، فإنهم كلهم عدول لا يتطرق إليهم الجرح؛ لأن الله عزّوجلّ زكاهم وعدلهم وأيضاً رسولُه صلى الله عليه وآله فمن الناحية العملية يتعاملون مع الصحابة تعاملهم مع المعصوم، وذلك

مشـــهور عندهم وعبارتهم واضحة في هذا الخصوص: «اتفق أهل الســـنّة على أن الجميع عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة».

إذن بمجرد أن تسأل عن عدالة صحابي، فأنت من المبتدعة، ومن شذوذ المبتدعة، ثم يســـتدل بكلام الخطيب في الكفايـــة يقول: «وقد ذكر الخطيب في الكفايـــة فصلاً نفيســـاً في ذلك، فقال: عدالة الصحابـــة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم».

فليسوا فقط هم عدول وإنما مطهرون. واستدلالات الخطيب في الكفاية هي:

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

عجيـــب، وهل هناك ترادف بـــين الأمة والصحابة؟! أنـــا لا أعلم من أين جاء هذا التفســـير المعوج والســـقيم؛ أنّ الأمـــة المذكورة في الآية تعني الصحابـــة. الآية تتكلم عـــن أمة محمدﷺ فلماذا تقولـــون: إنّ المراد بها صحابة رسول اللهﷺ؟ وهل انتهت الأمة وتوقفت عند ذلك العصر، وعند الصحابة؟ فعنوان الأمة أعمّ من الصحابة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

طبيعي ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ إن شاء الله تعالى، ولكن ما علاقتها بالصحابة؟

لقد ذكرت بشـــكل واضح وصريـــح، وأعيد أني أتحدى كل مدرســـة الصحابـــة أن يأتوا بآية من القرآن الكريـــم تتكلم عن الصحابة بالمعنى المصطلـــح عليه في كلمات علمائهم، نعم وردت الصحبة بالمعنى اللغوي، أما الصحبة بمعنى صحابة رسول اللهﷺ فلم ترد.

وقد يقول قائل: إذن ماذا تقول في المهاجرين؟

نقول: نعم نحن أيضاً نقبل المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ولكــن الكلام عن عنوان الصحابة المصطلــح، هذا العنوان لم يرد، ونحن لابــد أن ندور في القرآن مدار الهجرة، مدار النصرة، مدار التابعية، لا مدار الصحبة والصحابة بهذا المعنى: «ومن رآه فقط».

وقــد يقول لنا قائل: إذن ماذا تقول في قولــه تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ﴾؟

نقــول: إنّ المراد مــن صاحبه هنا، هل هو المعنــى المصطلح للصحابي أو المعنى اللغوي؟ فقد اســتعمل القرآن هذه المفردة في أكثر من تســعين مورداً، لكنه لم يتعرض للمعنى الاصطلاحي الذي يقوله هؤلاء الأعلام من مدرسة الصحابة.

وقد يقول لنا قائل: ماذا تقولون عن هذه الآيات:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾؟

نقول: هذه الآية تتحدث عن المؤمنين الذين يبايعون تحت الشجرة، فما علاقتها بالصحابة؟

وعن: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾؟

نقول: هذه الآية أيضاً تتكلم عن المهاجرين والأنصار والتابعين، لا عن عنوان الصحابة؛ ولا يوجد ترادف بين عنوان الصحابة وعنوان المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحســان، فعنوان الصحابة أعم من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان.

وعن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟

نقول: نعم التابعية لرسول الله صلى الله عليه وآله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾.

وهكذا عشرات الآيات التي وقفوا عندها، ولا دلالة فيها على الصحابة بالمعنى المصطلح، وسيأتي بحثها إن شاء الله تعالى. هذا هو الأمر الأول.

أما الأمر الثاني: فهو أنهم ذهبوا إلى أنّ من كان صحابياً، فهو من أهل الجنة في الآخرة بلاريب ولا شك، فالصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً. لا أنّ مآلهم إلى الجنة، بل أساساً لايدخل أي واحد منهم إلى النار، فعل ما فعل، فأمره إلى الجنة حتى لو قتل خليفة من الخلفاء الأربعة، حتى لو حارب المسلمين، حتى لو قتل الحسن والحسين.

فماذا يفعلون بالفئة الباغية التي خرجت على علي عليه السلام في صفين، والحديث النبوي: «يا عمار تقتلك الفئة الباغية» وكان عمار مع علي عليه السلام، وهم يصرحون أنّ هذا الحديث لا مجال للإنكار والشك فيه؟ أيكون الباغي من أهل الجنة؟ ولكنهم يقولون: اجتهد فأخطأ.

إذن تبين أنّ الصحابي له أن يفعل ما يشاء، وإن كان باغياً، وإن كان فاسقاً، وإن كان شارباً للخمر، وإن كان قاتلاً، وإن وإن وإن عبّر ما تشاء، فهو من أهل الجنة.

ولذا انظروا الإصابة في تمييز الصحابة؛[٢٤] يقول أبو محمد بن حزم: «الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً، قال الله تعالى: ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى**﴾».[٢٥]

أقول: إنه وعد للمنفقين، لا وعد لكل الصحابة.

ثم يقول: «وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.[٢٦] فثبت أنّ الجميع من أهل الجنة، وأنه لا يدخل أحد منهم النار...».

من هؤلاء؟ هم الصحابة. فالصحابي لايدخل النار، وبعد ذلك يخرج منها مثلاً بشفاعة، ولا أنّ مآله إلى الجنة، بل أساساً لا يصل إلى النار، ويدخل الجنة؛ لأنّ رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله عصمته من النار، هذا منطق مدرسة الصحابة. وكل ما أريده قليل من التدبر في هذه النظرية؛ ليحكم القارئ هل رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله بما هي رؤية تعصم الإنسان من كل خطأ، وتضمن له الجنة؟!

وقد يقول قائل منهم: إننا لا نقول بعصمة الصحابة، نقول: نعم، ولكنكم تقولون بعدالتهم، أي أنهم لا يفعلون فعلاً بعمد، نعم قد يصدر منهم فعل خطأً، ولكنه في درجة من الدرجات أعطيتم لهم العاصمية والعصمة، أنهم لا يكذبون، لا يقتلون، لا يزنون، لا يشربون الخمر، لايسبون، لا يلعنون، إلى غير ذلك عمداً، وهذه درجة من درجات العاصمية، بل أكثر من ذلك، أنّ الجميع من أهل الجنة، وأنه لا يدخل أحد منهم النار؛ لأنهم المخاطبون كما قلتم: «فثبت بالآية السابقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

مع أنّ هذه الآية والتي سبقتها لاعلاقة لها بالصحابة، لا من قريب ولا من بعيد، وإذا كانت تشمل، فهي تشمل جماعة معينين من الصحابة، قبل الفتح وبعد الفتح، فالآيات ليست بصدد بيان عنوان الصحابة بالمعنى الذي أشار إليه أعلام مدرسة الصحابة.

﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ من أهل البيعة أنفسهم.

وكل هذه الآيات سنتعرض لها واحدة واحدة، ونقرأ الآيات التي سبقتها والآيات التي لحقتها، ونتدبر في نفس الآيات القرآنية.

إذن فما هو مرادهم من العدالة؟

وهي مسألة مهمة، وأحيل المتابع إلى كتاب (الصحبة والصحابة بين الإطلاق اللغوي والتخصيص الشرعي) مركز الدراسات التاريخية في المملكة الأردنية، تأليف حسن بن فرحان المالكي، وهو من المعاصرين، ورجل فاضل ومحقق باحث، وله كتابات متعددة في هذا المجال.

في كتابه هذا يوجد عنوان مهم: مفهوم عدالة الصحابة. يبين المراد من العدالة لغةً واصطلاحاً في مدرسة الصحابة، لا العدالة عندنا

في مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وهو يذكر اثني عشر تعريفاً لأعلام مدرسة الصحابة:

تعريف ابن الحاجب، وتعريف سعيد بن المسيب، وتعريف الإمام إبراهيم النخعي، وتعريف ابن المبارك، وتعريف الشافعي، وتعريف أبي بكر الباقلاني، وتعريف الخطيب البغدادي، وتعريف ابن الهمام، وتعريف القرافي، وتعريف الإمام أبي حامد الغزالي، وتعريف السبكي، وتعريف السيوطي، هذه هي تعاريف العدالة.

وأنا أقف عند تعريفين منها:

التعريف الأول:

في صفحة (٢٠٩) من هذا الكتاب، وهو تعريف الأصولي الأول ابن الحاجب، وهو من أشهر التعريفات كما يقول وهو كذلك؛ وهذا التعريف قريب من التعريف الذي يذكره جملة من علماء وأعلام مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

فقد عرّف العدالة بقوله: «هي محافظة دينية تحمل على ملازمة التقوى والمروءة ليس معها بدعة، وتتحقق باجتناب الكبائر وترك الإصرار على الصغائر وبعض المباح كاللعب بالحمام والاجتماع مع الأراذل والحرف الدنية مما لا يليق به ولا ضرورة».

وهذا يعني أنّ الإنسان لايكون عادلاً إلا إذا اجتنب الكبائر، وترك الإصرار على الصغائر، بل أوسع من ذلك يقول ابن الحاجب: وبعض المباح أيضاً، لا فقط أنه إذا قام بذنب كبير فإنه يخل بعدالته، بل إذا

أصــرّ على الصغيرة يخل بعدالته، وإذا فعل بعض المباحات أيضاً يخل هذا بعدالته.

وأنــا لا أقول هذه هي العصمة المصطلحة عندنا، ولكن هذه درجة من درجات العصمة، وإن كانت دائرة ضيقة. وكيف يكون عادلاً من كان باغياً وخارجاً على إمام زمانه؟!

شيء غريب هذا المنطق، يخرج على الخليفة المبايع له، وهو علي بن أبي طالب ويحاربه، ورســول الله صلى الله عليه وآله يعبّر عنه بالفئة الباغية، ومع ذلك يقولون إنه يجتنب الكبائر والمباحات؛ كيف يكون هذا؟

التعريف الثاني:

وهو تعريف الباقلاني، يقول: العدالة المطلوبة في صفة الشاهد والمخبر هي العدالة الراجعة إلى استقامة دينه، وسلامة مذهبه، وسلامته من الفسق، ومــا يجري مجراه؛ مما اتفــق ـ يعني بين أهل العلم ـ على أنه مبطل للعدالة من أفعال الجوارح والقلوب المنهي عنها.

عجيب، فليس فقط أفعال الجوارح، بل أفعال الجوانح؛ الأفعال القلبية، أي بعض الذمائم، أو بعض الأمور المذمومة أخلاقياً أيضاً، لو ارتكبها فهي تؤدي إلى سقوط عدالته.

إذن هذه هــي العدالة التي يقولونها في الصحابة، ويتصفون بها بمجرد رؤيتهم لرســول الله صلى الله عليه وآله. وأيضاً يحظون بالترضي عليهم، فالترضي يشمل عندهم لا المنافقين فقط، بل يشمل كل من ارتكب ذنباً وإثماً، وشرب خمراً، وأقيم عليه الحد في زمن رســول الله صلى الله عليه وآله أو بعده، ويشــمل كل من لعنهم

رسول الله صلى الله عليه وآله ويشمل كل من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بقتلهم، جاء هذا بالنصوص الصحيحة في روايات مدرسة الصحابة، التي قالت: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لعن ثلاثاً، لعن خمساً، لعن ستاً، وطردهم رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة.

وعندما نقلنا طبقات الصحابة من كتاب معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري قال: يشمل الطلقاء الذين أسلموا يوم فتح مكة كأبي سفيان ومعاوية، معاوية الذي هو الفئة الباغية بنص حديث رسول الله صلى الله عليه وآله المقبول عند المدرستين، ويشمل أبا سفيان وأولاد أبي سفيان وجميع المروانيين بمن فيهم من طردهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأولاده، وعمرو بن العاص وولده.

فكل الصحابة عدول، حتى ولو كانت رواياتهم في جرح علي وأهل البيت عليهم السلام، كأولئك الذين سبّوا عليّاً، وطعنوا عليّاً، وطعنوا في عليّ، وقاتلوا عليّاً عليه السلام.

يقول ابن تيمية: «وقد عُلم قدح كثير من الصحابة في علي».[٢٧]

إذن يعتبرهم صحابة وهم يقدحون في علي. أما ماهو التوجيه لهذا؟ التوجيه جملة واحدة: اجتهد فأخطأ. فعليٌّ يُعطى أجرين، والصحابي يعطى أجراً، والمجتهد المخطئ له أجر واحد.

هذا نص، وهناك نص آخر من منهاج السنّة:

يقول: «إنّ الله قد أخبر أنه سيجعل للذين آمنوا وعملوا الصالحات ودّاً ـ كما في الآية (٩٦) من سورة مريم ـ وهذا وعد منه صادق، ومعلوم أنّ الله قد جعل للصحابة مودة في قلب كل مسلم، لا سيما الخلفاء رضي الله عنهم، لا سيما أبوبكر وعمر، فإنّ عامة الصحابة والتابعين كانوا يودّونهما، وكانوا خير القرون، ولم يكن كذلك عليٌّ؛ فإنّ كثيراً من الصحابة والتابعين كانوا

يبغضونه ويسبونه ويقاتلونه».[٢٨]

أنا لا أعلم من أين معلوم أنّ الله قد جعل...؟ ولكن ابن تيمية كثير عنده من هذه المرسلات التي يرسلها بلا دليل ولا استدلال. فقد جعلها أولاً عامة في الصحابة ثم خصصها بالخلفاء، مراده الخلفاء الأربعة، ثم خصصها بأبي بكر وعمر.

لا يقول لنا قائل: صحيح مسلم وصحيح البخاري.

نقول: هما حجة عليكم لا حجة علينا، لابد أن تأتوا بروايات مجمع عليها بين المدرستين.

يقول: «فإنّ كثيراً من الصحابة والتابعين كانوا يبغضونه ويسبونه ويقاتلونه». شيء غريب يا أخي قد اختلف معك، لماذا أسبك؟ لماذا أقاتلك؟ لماذا أبغضك؟!

ثم ما حكم هؤلاء الصحابة والتابعين الذين كانوا يبغضون عليّاً ويسبونه ويقاتلونه» في ضوء حديث: «لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق»و«من سبَّ عليّاً فقد سبني»؟

أليس «من سب أصحابي فليس مني»؟ ألم يكن عليٌّ صحابياً؟

ألستم تقولون: من انتقد صحابياً فهو زنديق ومبتدع؟ ألم يكن عليٌّ صحابياً؟

وإذا كان الأمر كذلك أنتم على من تترحمون وتترضون؟! ولماذا تطالبون الشيعة بأنّ يترضوا عنهم ماداموا سبابين وقاتلين؟!

أنتم السبّابون، وإلا نحن واقعاً لا نسب، فأميرنا أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «لا تكونوا سبّابين» ولا يقول لنا قائل بأنكم لماذا تلعنون لا، لا، لا،

اللعن أمر قرآنـــي: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾، ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ والسبُّ أمر غير أخلاقي، وإلا إذا كان اللعن سبّاً فأول من يسبُّ هو الله تعالى، فهذا منطق من لم يتدبر القرآن الكريم.

المهم، من هذا كله انتهينا من نقطتين أساسيتين:

النقطة الأولى:

مـــا هو تعريف الصحابي؟ وتبين أن هناك نظريتين أو أن هناك تعريفين لمفهوم الصحابي والصحبة في مدرسة الصحابة:

النظرية الأولى: الـــتي تعتقد أن كل من ألتقى النبيﷺ حتى لو لم يكن قـــد بلغ الحلم فهو صحابي. والكلمات الواردة في هذا المجال كثيرة، أشـــير إلى بعضها:

قال الســـيوطي في تدريب الراوي: «ولا يشترط البلوغ على الصحيح، وإلا لخرج من أجمع على عده من الصحابة...».

إذن كل من رأى النبيﷺ وإن لم يبلغ الحلم فهو صحابي.

النظرية الثانية: كانت تضيق الدائرة بشـــروط وضعتها: بشرط أنه غزا معه، بشـــرط أنه جالسه، بشرط أن يكون كذا وكذا، فهي تذكر مجموعة من القيود.

النقطة الثانية: العدالة

وسواء كانت النظرية الأوسع أو النظرية الأضيق، فالنتيجة واحدة؛ وهي أنهم يعتقدون بعدالة الصحابة جميعاً، ســـواء على مستوى التعريف الأول

للنظرية، أو على مستوى التعريف الثاني لها.

هاتان هما النقطتان أو الركنان الأساسيان في نظرية مدرسة الصحابة:

ـ الصحابي هو: كل من رأى النبيﷺ أو من غزا مع النبيﷺ لا فرق.

ـ الصحابة كلهم عدول، وتجب لهم الجنة، ولا يدخلون النار على الإطلاق، يعني أن مجرد رؤية النبيﷺ أو مجرد أنه عاش مع النبيﷺ سنة واحدة، أو مجرد أنه غزا مع النبيﷺ غزوة فهو عادل في الدنيا، وقوله مقبول، وصادق، ولا يكذب فعل ما فعل فإنه يبقى عادلاً، وكل ما صدر منه لابد أن نجد له تأويلاً، لابد أن نجد له توجيهاً، لابد أن نقول: إنه اجتهد فأخطأ، ونحو ذلك من الآثار التي رتبوها على هذه النظرية، هذا مضافاً إلى أنه فعل ما فعل فإنه سوف يكون مثاباً في الآخرة، ويدخل الجنة حتى ولو قتل صحابياً، بل حتى ولو قتل خليفة من خلفاء المسلمين، كما أنهم يعتقدون أنّ عمرو بن الحمق الخزاعي كما يذكر ابن سعد في الطبقات أنه هو الذي قتل عثمان بن عفان، فبناءً على نظريتهم لابد أن يقبلوا أنه اجتهد فأخطأ، ولا يمكن أن يحاسب... طبعاً نتائج خطيرة ونتائج عجيبة تترتب على هذه النظرية، لعلّنا نوفق إن شاء الله تعالى فنبين النتائج التي تترتب على نظرية عدالة الصحابة جميعاً.

نظرية ابن تيمية:

وأما نظرية الشيخ ابن تيمية حول عدالة الصحابة، و من هو الصحابي؟ وحول من انتقد الصحابي ونحو ذلك، وتعريفه للصحبة والصحابة يتفق مع النظرية الأوسع للصحبة، فنجدها في كتابه المعروف؛ الصارم المسلول

على شاتم الرسول؛[٢٩] وبعد أن ينقل رواية للبرقاني في صحيحه: «لا تسبّوا أصحابي، دعوا لي أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق كل يوم مثل أحد ذهباً، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه».

يقول: والأصحاب جمع صاحب، والصاحب اسم فاعل من صحبه يصحبه، وذلك يقع على قليل الصحابة وكثيرها ـ يعني صحبه قليلاً أو صحبه كثيراً ـ.

لأنه يقال: صحبته ساعة ـ إذن من صحب النبيﷺ ولو ساعة فهو صحابي، وهذا يعصمه في الدنيا والآخرة، بمجرد أنه صحب النبيﷺ لساعة واحدة، هذا عاصم له، فهو صادق لا يكذب أبداً، وإذا قتل أيضاً يذهب إلى الجنة، وفي الآخرة النار محرمة عليه، هذه نظرية هؤلاء القوم ـ قال: صحبته ساعة، وصحبته شهراً، وصحبته سنةً، قال الله تعالى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾.[٣٠] قد قيل: هو الرفيق في السفر، وقيل: هو الزوجة. ومعلوم أنّ صحبة الرفيق وصحبة الزوجة قد تكون ساعة فما فوقها، وقد أوصى الله به إحساناً مادام صاحباً، وفي الحديث عن النبيﷺ: «خير الأصحاب عندالله خيرهم لصاحبه...».

إذن الشيخ ابن تيمية من أولئك الذين يعتقدون أنّ مصاحبة الشخص لرسول اللهﷺ ساعة، تكفي في أن يجعله عادلاً في الدنيا، معصوماً لا يكذب عمداً.

نعم، هم يعتقدون أنه عادل، والعادل قد يخطئ، ولكن يخطئ سهواً، يخطئ نسياناً، لا أنه يخطئ عمداً، وإلا إذا أخطأ، أو سبّ، أو أبغض، أو فعل ما فعل عمداً، يسقط عن العدالة، والصحابي عندهم لا تسقط عنه العدالة

أبداً، ليس أنه تارة يكون عادلاً، وأخرى يكون فاسقاً، لا أبداً، هم يرون أنّ الصحابي عادل في الدنيا دائماً وأبداً، حتى لو قتل خليفة المسلمين فهو مجتهد أخطأ، وهذا ما صرحوا به ونقلنا كلمات ابن كثير.

و معاوية مع أنّ النبيﷺ سمّاه الفئة الباغية، وقالﷺ: «يا عمار تقتلك الفئة الباغية». قالوا: نعم، هو كان باغياً، ولكنه مع ذلك فهو مجتهد أخطأ له أجر، والمجتهد المصيب له أجران، وهكذا حتى بالنسبة لقتل الإمام الحسينعليه السلام في كربلاء، فابن كثير يقول: تأول جماعة، فتصوروا أنّ الحسين يريد أن يفرق وحدة المسلمين، ففعلوا ما فعلوا، ويزيد لم يكن راضياً عن هذا العمل إلى آخره، هذا بحثه سيأتي.

فخلاصة نظرية مدرسة الصحابة بشكل عام وبالخصوص نظرية الشيخ ابن تيمية: أنّ مجرد صحبة ساعة لشخص مع النبيﷺ يجعله عادلاً مادام في الدنيا، وناجياً من النار في الآخرة، ومن أهل الجنة جزماً، وقد قرأنا عبارات الأعلام في هذا المجال، ومنها ما جاء في كتاب الإصابة، وقال أبومحمد بن حزم: «الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً».[٣١]

ولو قتلوا علي بن أبي طالب، ولو قتلوا عماراً، ولو قتلوا الخليفة الثالث عثمان بن عفان، ولو قتلوا الحسين بن علي في كربلاء، والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وإمامان إن قاما وإن قعدا، حتى من قتلهما يدخل الجنة. فهما في الجنة وقاتلهما معهما في الجنة! أي منطق هذا؟! وأي دين هذا؟!

وأنا لا أقول: إنّ جميع مدرسة الصحابة هذا منطقهم، ولكنه منطق هذه النظرية، التي تعتقد بعدالة الصحابة كلهم، وأنهم من أهل الجنة قطعاً.

وليس جميع علماء مدرسة الصحابة يؤمنون بهذه النظرية فهناك جملة من أعلام مدرسة الصحابة تضيق دائرة الصحبة.

هذه النظرية في زماننا يدعون لها ويتبنونها، يحاولون أنّ يوهموا المسلمين أنها مسألة إجماعية، وهي في الواقع ليست كذلك، فهي نظرية مجموعة من علماء المسلمين منهم الشيخ ابن تيمية، والآن هذه النظرية تتبناها السلفية الحديثة، ونحن نعلم جميعاً أنهم لايمثلون عدداً كبيراً، وليست لهم نسبة كبيرة بين المسلمين، وأيضاً هي موضع خلاف بين أتباع مدرسة الصحابة، وليس كل علماء مدرسة الصحابة يعتقدون بهذه السعة لتعريف الصحبة والصحابة.

الانتقاص:

وهنا نتعرض إلى حكم من انتقص صحابياً، وهو من أهم الآثار المترتبة على نظرية عدالة الصحابة في مدرسة الصحابة، فبعد أن آمنوا بأنّ جميع الصحابة عدول، وأنهم جميعاً من أهل الجنة، وأنهم لا يدخلون النار فعلوا ما فعلوا.. فما هي النتيجة الطبيعية المترتبة على ذلك؟

قالوا وبشكل صريح: إنّ من انتقص صحابياً فهو زنديق.

وأنتم تعلمون أنّ الزنديق هو الذي لا دين له، يعني لا يؤمن لا بالمعاد، ولا بشيء...

وكلماتهم مختلفة في ذلك:

بعضهم يقول: إنّ من سبّ صحابياً؛ وبعضهم قال: من انتقد صحابياً؛ يعني من ذكر عيباً في صحابي، فهو زنديق، وآخرون قالوا: من أبغض

صحابياً، فهو كافر وزنديق ويقتل و... إلى غير ذلك.

فبسر بن أبي أرطأة أو الحكم بن العاص أو عبد الملك، وبعضهم لعنهم رسول الله صلى الله عليه وآله، هذه النظرية تعتقد أنّ من أبغض واحداً منهم فهو زنديق.

وهذا من الغرائب واقعاً أنّ شخصاً لعنه رسول الله صلى الله عليه وآله بروايات صحيحة وصريحة، ومع ذلك من انتقده فهو زنديق، من أبغضه فهو زنديق، من قاتله فهو كافر يستحق الخلود في النار. هذه من أهم نتائج نظرية عدالة الصحابة.

وقد يقول القائل: لماذا تنسب إليهم ما لا يقولون؟

والجواب:

أنظر «الإصابة في تمييز الصحابة» العبارة واضحة وصريحة: «اتفق أهل السنّة على أنّ الجميع عدول...» وقد ذكر الخطيب في (الكفاية) فصلاً نفيساً في ذلك، فقال: «عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم...». وفي الصفحة نفسها يقول: ثم روى بسنده ـ يعني الخطيب ـ إلى أبي زرعة الرازي، قال: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله، فاعلم أنه زنديق».[٣٢]

لا يسبّ، لا يبغض، لا يقاتل، بل فقط يذكر نقصاً، يذكر عيباً فيه.

كيف عندنا الروايات، التي إن شاء الله بعد ذلك سنقرأها، «من أبغض علياً فهو منافق»، فمن علامات النفاق بغض عليٍّ، وهذا باتفاق علماء المسلمين، باتفاق كل كلماتهم، حتى ابن تيمية يعتقد بأنّ هذا الحديث صحيح: «لا يحبه إلاّ مؤمن، ولا يبغضه إلاّ منافق».

نعــود إلى كلامه: «... فاعلم أنه زنديق، وذلك أنّ الرســول حق، والقــرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدى إلينــا ذلك كله الصحابــة، وهؤلاء يريــدون أن يجرحوا شــهودنا؛ ليبطلــوا الكتــاب والســنة، والجرح بهــم أولى، وهو زنادقة».

فــإذا انتقدنــا صحابياً،فكأنماانتقدنا رسول الله صلى الله عليه وآله.

أنا لا أعرف كيف يجمعون بــين قولهم: حتى لو لم يرو رواية، وبين إذا انتقدناه فقد انتقدنا راوي السنّة؟ لو روى لنا رواية عن

رســـول الله، نقول: لو انتقدناه فقد انتقدنا رســـول الله، لكن أنتم قبلتم أنّ الصحابي أوســـع من هذا، حتى من رآه ولم ينقل عنه رواية، شـــيء غريب تناقضات واقعاً بعضها فوق بعض، ظلمات بعضها فوق بعض.

«وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شـــهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسنّة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة». ففي المرة الأولى: فاعلم أنه زنديق، وفي المرة الثانية: وهم زنادقة.

كتاب الكبائر، للإمام الحافظ شمس الدين أبي‌عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، وهو يشير إلى كبائر الذنوب:

الكبيرة السبعون: سبّ أحد من الصحابة رضوان الله عليهم.

يقول: «ثبت في الصحيحين أنّ رسول الله قال: يقول الله تعالى: من عادى لي وليّاً، فقد آذنته بالحرب، وقال: لا تســـبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده ...».[٣٣]

ففي هذا الحديث وأمثاله بيان حالة من جعلهم غرضاً بعد رســـول الله، وســـبهم وافترى عليهم وعابهم، وكفرهم واجترأ عليهم... إلى أن يأتي في (صفحة٢٥٢) فيقول: «فحـــبّ أصحاب النبي عنوان محبته، وبغضهم عنوان بغضه كما جاء في الحديـــث الصحيح: حبّ الأنصار من الإيمان وبغضهم من النفاق، وما ذلك إلا لسابقتهم ومجاهدتهم...».

طبعاً هذه الأحاديث والتي تأتي أيضاً مختصة بهم؛ كما ذكرنا على المنهج ليست حجة علينا وإنما حجة عليهم.

ففي المنهج أن تكون هناك رواية متفقة بين المدرســـتين، أما أنهم يأتون برواية في كتبهم لايعلم أين ســـندها، بل حتى لو علم سندها، بل حتى لو

ذكرت في صحيح البخاري، فهي ليست حجة علينا، كما أنّ أحاديثنا في الكافي والبحار ليست حجة عليهم.

محل الشاهد: «فمن طعن فيهم أو سبهم، فقد خرج من الدين ومرق من ملة المسلمين؛ لأنّ الطعن لا يكون إلاّ عن اعتقاد مساويهم وإضمار الحقد فيهم، وإنكار ما ذكره الله في كتابه من ثنائه عليهم، وما لرسول الله من ثنائه عليهم وبيان فضائلهم...».

أنا لا أعلم أين أثنى الله سبحانه وتعالى في القرآن على جميع الصحابة؟ نعم القرآن أثنى على المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، وما من عام إلا وقد خصّ وسيأتي بحثه.

ثم يقول: «ولأنهم أرضى الوسائل من المأثور، والوسائط من المنقول، والطعن في الوسائط، طعن في الأصل، والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول...».

من طعن في صحابي في خبر، يعني ليس من حقنا أن نقول: هذا ليس بثقة، بمجرد أن نقول: ليس بثقة، ليس بعادل، فقد طعنا في صحابي، يقول: «والطعن في الوسائط طعن في الأصل» يعني طعن في رسول الله؛ أنظروا هذا الذي أنا ذكرته مراراً أنّ هؤلاء يعطون حكم العصمة عملياً للصحابة.

ثم يقول: «هذا ظاهر لمن تدبره، وسلم من النفاق، ومن الزندقة والإلحاد في عقيدته». فإذا وجدتم أحداً ينتقد أو يشك، فهو لا يخلو من النفاق، ولا يخلو من الزندقة، ولا يخلو من الإلحاد في عقيدته.

أما ما يقوله ابن تيمية في كتابه الصارم المسلول على شاتم الرسول. الكتاب مرتبط بمن يشتم الرسول وأحكامه، وفي آخر الكتاب فصل مرتبط

بشـــتم الصحابة. ففي صفحة (٥٦٧) يقول: فصل: «فأما من سبّ أحداً من أصحاب رســـول الله صلى الله عليه وسلم (بحسب نص الكتاب) من أهل بيته وغيرهـــم، فقد أطلق الإمام أحمد أنه يضرب ضرباً نكالاً، وتوقف عن كفره وقتله».

يقول: قال عبدالله: ســـألت أبي عمّن شتم أصحاب النبي، قال: أرى أن يضـــرب، قلت له: حدًّا؟ فلم يقف على الحدّ، إلا أنه قال: يُضرب، وقال: ما أراه على الإسلام.

بعد ذلك يأتي الشـــيخ ابن تيمية في صفحة (٥٦٧) ويبدأ ينقل الأقوال الأخرى في هذا المجال، فيقول: وأما من قال: «يُقتل الســـابُّ» أو قال: «يَكفُر» فلهم دلالات احتجوا بها:

ثم يشير إلى مجموعة من الأدلة، منها:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ...﴾.

إلى أن يأتـــي في صفحة (٥٧٩) فيقول: قال عبدالله بن إدريس الأودي: ما أمن أن يكونوا قد ضارعوا الكفار ـ يعني الرافضة ـ أي هم يوازون الكفار؛ لأنّ الله يقـــول: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ وهذا معنى قول الإمام أحمد: «ما أراه على الإسلام».

وبعد أن يستدل على ذلك بالآيات، يقول: وفي السنّة من وجوه صحيحة عـــن يحيى بن عقيل: حدثنا كثـــير... ورواه أيضاً من حديث أبي شـــهاب عبدربه بن نافع الخياط، عن كثير النواء، عن إبراهيم بن الحســـن عن أبيه عن جده يرفعه قال: يجيء قوم قبل قيام الســـاعة يسمّون الرافضة براءٌ من الإسلام.

ثم يقول بأنّ هناك شـــواهد كثيرة على صحـــة هذه المعاني، منها إلى أن ينقل في الضمن يأتي إلى هذه النتيجة، أنا لا أريد أن أعلق الرواية ينقلها، قال: قال علي، قال رســـول الله، الرواية التي ينقلها عن علي عن رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم ـ وإنما أضيف (وآله) حتى لا أبتلي بمخالفة «لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء» وعن هذه الصلاة البتراء ســـأبينها إن شاء الله في الوقت المناســـب ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «ألا أدلك على عمل إذا عملتـــه، كنت من أهل الجنة؟ وإنك مـــن أهل الجنة...». فهذه جملة معترضة يريد الرسول أن يقول لعلي: أدلك على عمل إن عملته، يوصلك إلى الجنة. وليس بالضرورة أن يعمله عليٌّ حتى يدخل الجنة؛ لأنّ عليّاً من أهل الجنة. فما هو ذلك العمل الذي يوصل الإنسان إلى الجنة؟

وهذه تتمة الرواية: «إنه ســـيكون بعدنا قومٌ لهم نَبزٌ يقال لهم الرافضة، فإن أدركتموهم فاقتلوهم، فإنهم مشـــركون، قال: وقال علي رضي الله عنه: ســـيكون بعدنا قوم ينتحلون مودتنا، يكذبـــون علينا، مارقة، آية ذلك أنهم يسبون أبابكر وعمر رضي الله عنهما».

ويذكـــر رواية أخرى، عن علي رضي الله عنه: «يخرج في آخر الزمان قومٌ لهـــم نَبزٌ، يقال لهم الرافضة، يُعرفون به، وينتحلون شـــيعتنا، وليســـوا من شيعتنا، وآية ذلك أنهم يشتمون أبابكر وعمر، أينما أدركتموهم فاقتلوهم، فإنهم مشركون».

فهذه النظرية تبيّن أنّ الشيعة وأنّ أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام مشركون، وأنه يجب قتلهم، وأنها هي الطريق إلى الجنة، ويتقربون إلى الله بقتل شيعة علي وأهل بيته. وأساسها النظري موجود عند ابن تيمية، فإذا وجدتم أئمة

أو إمام الجماعة في المسجد الحرام يدعو إلى قتلهم، وتطهير الأرض منهم، فإنّ هؤلاء الأئمة أتباع هذا المنهج، وهم على هذه القاعدة، وهذا الذي عبرنا عنه بالسلفية الحديثة. وتطبيقات هذا الأساس النظري ما تجدونه في العراق من إراقة دماء مئات الآلاف من شيعة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام بعناوين مختلفة، سواء كان في كربلاء أو في الكاظمية، في مناسباتهم و في زياراتهم، كل هذا أساسه النظري عند الشيخ ابن تيمية.

فالذين يخرجون على الفضائيات مع الأسف الشديد، ومن باب الحمل على الصحة أقول: إنّ هؤلاء جاهلون بتراثهم حين يقولون: أين نشتم؟ أين نكفّر؟ أين نسبّ؟ أين نقتل؟ أين نأمر بالقتل؟

يظهر أنهم لم يقرأوا هذا التراث، وإذا قالوا: إننا قرأنا هذا التراث، إذن بدأوا يستغفلون الناس، يستغفلون المسلمين.

هذه نظريات الشيخ ابن تيمية، وهناك كلمات أخرى له فهو صاحب نظرية أينما وجدتم الرافضة فاقتلوهم، إذا أردتم الدخول إلى الجنة. ولذا يتقربون إلى الله بقتل شيعة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام.

المهم أنّ هذه هي نظرية السلفية قديماً والسلفية حديثاً، ولكنهم لا يمثلون إلا عدداً قليلاً من المسلمين، وإلا عموم المسلمين ليس تعاملهم مع أتباع مدرسة أهل البيت وفقاً للنظرية المذكورة، أنظروا إلى كبار علماء الأزهر، الذين قالوا بصحة التعبد بمذهب أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام، وهذا يكشف عن أنهم آمنوا بأنهم مسلمون، نعم اختلفنا، ولا مشكلة في الاختلاف، ألا يوجد الاختلاف بين المسلمين من أتباع الصحابة أنفسهم؟ نعم، يوجد، ولكن مع الأسف الشديد نظرية التكفير، نظرية

القتل، نظرية أنهم مشركون، نظرية تقربوا إلى الله بقتلهم، هذه نظرية ابن تيمية ومن تبعه.

ثم إنّ الشرك بالله أمر واضح، فما علاقة السبّ بالشرك؟ هذا أسلوبهم، فنحن في بحث الأطروحة المهدوية عندما ذكرنا كلمات الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، يخرجون على الفضائية مباشرة يقولون: إنّ السنّة والجماعة يعتبرونه كافراً زنديقاً، وهذه طبيعتهم فبمجرد أن لا يتفق أحد معهم في الأسس العقائدية التي يؤمنون بها، وفي الأسس النظرية التي يؤمنون بها، نجد أنهم يبدأون بنظرية التكفير، وأنهم مشركون إلى غير ذلك. وأنا لاأريد أن أدخل في التفاصيل، لكن أريد أن أقول: عموم النظرية هذا منشؤها.

هذا، وبعد أن يشير ابن تيمية إلى مجموعة من الروايات في هذا المجال، ومن غير أن يرد هذا القول الثاني، ينتهي إلى هذه النتيجة في صفحة (٥٨٦) من هذا الكتاب: «فإذا كان الخليفتان الراشدان عمر وعلي يجلدان حدَّ المفتري لمن يفضّل علياً على أبي بكر وعمر، أو من يفضل عمر على أبي بكر، مع أنّ مجرد التفضيل ليس فيه سب ولا عيب، علم أنّ عقوبة السبّ عندهما فوق هذا بكثير».

إذا كان التفضيل يجلدون عليه، فماذا يفعلون بمن يسبّ؟ لا يصرح بأنهم يكفّرونهم ويحكمون بقتلهم.

وإذا هم يتكلمون عن روايات، فالروايات قالت: «لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد». ذلك ليس حديثي الآن.

إلى أن يقول في الصفحة نفسها: «وأما من سبهم سبّاً، لا يقدح في عدالتهم ولا في دينهم مثل وصف بعضهم بالبخل أو الجبن أو قلة العلم

أو عــدم الزهد ونحو ذلك، فهذا هو الذي يســتحق التأديب والتعزير، ولا يحكم بكفره بمجرد ذلك،...».

منطــق غريب، إذا قلت هــذا ليس زاهداً، تعزّر، مــع أنّ الزهد ليس بواجــب. أو قلت: إن هذا الصحابي بخيل، تعــزّر، مع أنّ القرآن خاطبهم بقولــه: ﴿فَمِنكُمْ مَنْ يَبْخَلُ﴾.[٣٤] أو تقول: هذا قليل العلم، فإنك تســتحق التأديب والتعزير، علماً بأنّ بعض الصحابة لم يعيشــوا مع رسول الله إلا يوماً أو ساعة من نهار.

نعم، أصحاب هذه النظرية الســقيمة يترفقون بحالنا: «ولا يحكم بكفره بمجرد ذلك». يمنون علينا حين لا يحكمون بكفر من قال ذلك.

فهذا الإرهاب الفكري لا أدري من أين جاء؟!

أي عاقل يقبل مثل هذا المنطق؟ أيوجد إنسان يحترم نفسه يقبل مثل هذا المنطق السقيم العليل المشلول؟

ما أدري ماذا أقول؟ و ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟!

ثــم أنتم تقولون: يوجد فاضل ويوجد من هو أفضل، ألســتم تقولون: إنّ الخليفــة الأول والثاني أفضل من عثمان وعلي، وتعتقدون أنهما أكثر علماً، فلماذا أعزّر إذا أنا قلت: إنّ فلاناً أكثر علماً، وفلاناً أقل علماً؟!

ثم يقول: «وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفّرهم من العلماء».

أي إذا وجــد من أهل العلم من لم يكفّر ســابّ الصحابة، يحمل على هذا، وإلا من يســب الصحابة، من يبغض الصحابة، من يلعن الصحابة، فهو كافر.

ليس فقط يكون كافراً، فهو يقول: «وأما من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم

ارتدوا بعد رسول الله ﷺ ... فهذا لا ريب في كفره...».

يشير إلى بعض الذين قالوا بأنّ جملة من الصحابة ارتدوا بعد رسول الله ﷺ وهي روايات صحيحة في صحيح البخاري. نعم اختلفنا في العدد، بعضهم قال: سبعة عشر نفراً، وبعضهم قال: تسعة عشر، وبعضهم قال: مئة أو ألف نفر... ليس هذا مهماً، بل المهم نظرية الارتداد، ليست مختصة بمدرسة أهل البيت، فهي موجودة عند الصحابة أيضاً؛ يقول: «فهذا لا ريب في كفره؛ فإنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع من الرضا عنهم والثناء عليهم (يعني الصحابة)».

ثم يقول: «بل من يشك في كفر مثل هذا فإنّ كفره متعين».

فأنت أيها المسلم إذا شككت في أنّ شيعة أهل البيت كفار، فنظرية ابن تيمية هذه تقول لك: فأنت كافر.

هذا هو منطقهم معنا، ولكن ليس هذا منطقنا حتى مع السلفية، نحن نعتقد أنّ السلفية وعموم السلفية، بلا استثناء، بيننا وبين الله، هم إخواننا، نعتقد بإسلامهم، نعتقد بإيمانهم، لا يوجد عندنا أي مشكل. نعم نختلف معهم، وما المحذور في ذلك؟ نعم، لابد أن يكون الاختلاف على أساس علمي ومنهجي، بلا أن أكذبك، بلا أن أتهمك، بلا أن أرجعك إلى المجوس والنصارى، بلا أن أقول: أنت عميل وبلا أن تكفرني، وبلا أن تقول: أنت مشرك وبلا وبلا، يا أخي أنت أعرض نظريتك في فضائياتك كما تعرضها، وأنا أعرض نظرياتي أيضاً فيما أعتقد، والناس أحرار في أن يتخذوا هذا القرار أو ذاك.

وهنا أسأل الشيخ ابن تيمية بل كل من يتبعونه: إذا كان كل من سبّ

صحابياً، فلا أقل لابــد أن يضرب، ولابد أن ينكل به، بل يقتل بل يكفّر، فماذا تقولون فيما جاء في منهاج الســنّة: «ولم يكن كذلك عليٌّ، فإنّ كثيراً من الصحابة والتابعين كانوا يبغضونه ويسبونه ويقاتلونه..»؟[٣٥]

فهل ينطبق عليهم «كل من سب صحابياً..» أو لا ينطبق عليهم؟

ليس فقط يسبون علياً، بل يقاتلون علياً إذن على مبنى الشيخ ابن تيمية في كتابه الصارم المســلول، هؤلاء كلهم وهم من الصحابة والتابعين كفار يجب قتلهم. وهم رافضة. وهم زنادقة. وهم وهم وهم إلى آخره.

إلا أن يقول الشيخ ابن تيمية ومن حقه هذا: لا، نحن نصنف الصحابة: صحابة درجة أولى، وصحابة درجة ثانية. أو أنّ علياً ليس من الصحابة.

نعــم، هو يعتقد بــأنّ علياً صحابي، ولكن من الدرجــة الثانية، «فمن يســب الخليفة الأول والثاني والثالث، تنطبق عليه أحكام الإمام أحمد بن حنبل، الذي يقول بأنه يضرب وينتهي إلى الكفر، ولا أراه على الإسلام».

وأيضــاً مــن قتل عمــاراً، الذي لا شــك في أنــه من كبــار صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله؟!

معاوية هو الذي قتله، ولكن معاوية يدخل الجنة؛ لأنه وحسب ما يذهبون إليه اجتهد فأخطأ، أما حين تصل النوبة إلى أبي بكر وعمر وعثمان. فالأمر مختلف!

الهوامش:

١ . آل عمران: ١٣٨.
٢ . النساء: ١٧٤.
٣ . يوسف: ١١١.
٤ . النحل: ٨٩
٥ . سورة الحشر: ٧.
٦ . سورة النجم: ٣ ـ ٤.
٧ . سورة آل عمران: ٣١.
٨ . سورة المائدة: ٥٤.
٩ . سورة النساء: ٥٩.
١٠ . سورة النساء: ٨٠ .
١١ . كتاب المغازي، الباب ٨٣، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، طبعة مقابلة على النسخة السلطانية مزيدة ببعض الألفاظ من فتح الباري... ، في الحديث ٤٤٣٢.
١٢ . أسدالغابة١ : ١٨، دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩ م.
١٣ . الإصابة١ : ١٥٨، التحقيق الدكتور جمعة طاهر النجار جامعة الأزهر، منشورات محمد علي بيضون؛ لنشر كتب السنّة والجماعة، دارالكتب العلمية بيروت لبنان.
١٤ . أنظر الإصابة في تمييز الصحابة:١، الفصل الثالث:١٦٢.
١٥ . جامع المسانيد والسنن، المقدمة١: ١٢٥، للإمام الحافظ المحدث المؤرخ الثقة عماد الدين بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي المتوفى ٧٧٤هـ ، دارالفكر، منشورات محمدعلي بيضون.
١٦ . الإصابة١: ١٥٨، الفصل الأول في تعريف الصحابي.
١٧ . المصدر السابق١: ١٥٩.
١٨ . الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) في الجزء الأول صفحة (٩و١٠).
١٩ . الإصابة١: ٧ـ ٨ .
٢٠ . معرفة علوم الحديث، للحاكم النيسابوري، دارالكتب العلمية بيروت سنة (١٣٩٧هـ) الطبعة الثانية.
٢١ . سورة الفتح:٢٩؛ الاستيعاب، المقدمة، ١: ١١٥.
٢٢ . الإصابة ١: ٢٢ ؛ والكفاية : ٤٦ ، ٤٨ ؛ وأسد الغابة ١: ٩.
٢٣ . أسد الغابة، لابن الأثير١: ٩.
٢٤ . الإصابة في تمييز الصحابة ١ : ١٦٣.
٢٥ . الحديد : ١٠.
٢٦ . الأنبياء : ١٠١.
٢٧ . منهاج السنّة، ٧: ١٤٧، لابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم.
٢٨ . المصدر السابق ٧: ١٣٧.
٢٩ . الصارم المسلول على شاتم الرسول، شيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم عبد السلام الحراني الدمشقي المعروف بابن تيمية، حقّقه وفصله وعلق على حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد،

مطبوع سنة (١٤١٥من الهجرة) شركة أبناء شريف الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت.
٣٠ . النساء : ٣٦.
٣١ . الإصابة في تمييز الصحابة ١ : ١٦٣.
٣٢ . الإصابة في تمييز الصحابة١: ١٦٢.
٣٣ . كتاب الكبائر: ٢٥١، للإمام الحافظ شمس الدين أبيعبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار التقوى، شبرا الخيمة منشية الحرية.
٣٤ . سورة محمد : ٣٨.
٣٥ . منهاج السنّة النبوية، لابن تيمية، طبعة المدينة، المجلد السابع (سنة١٤١١من الهجرة) وهي من الطبعات المحققة في هذا المجال.

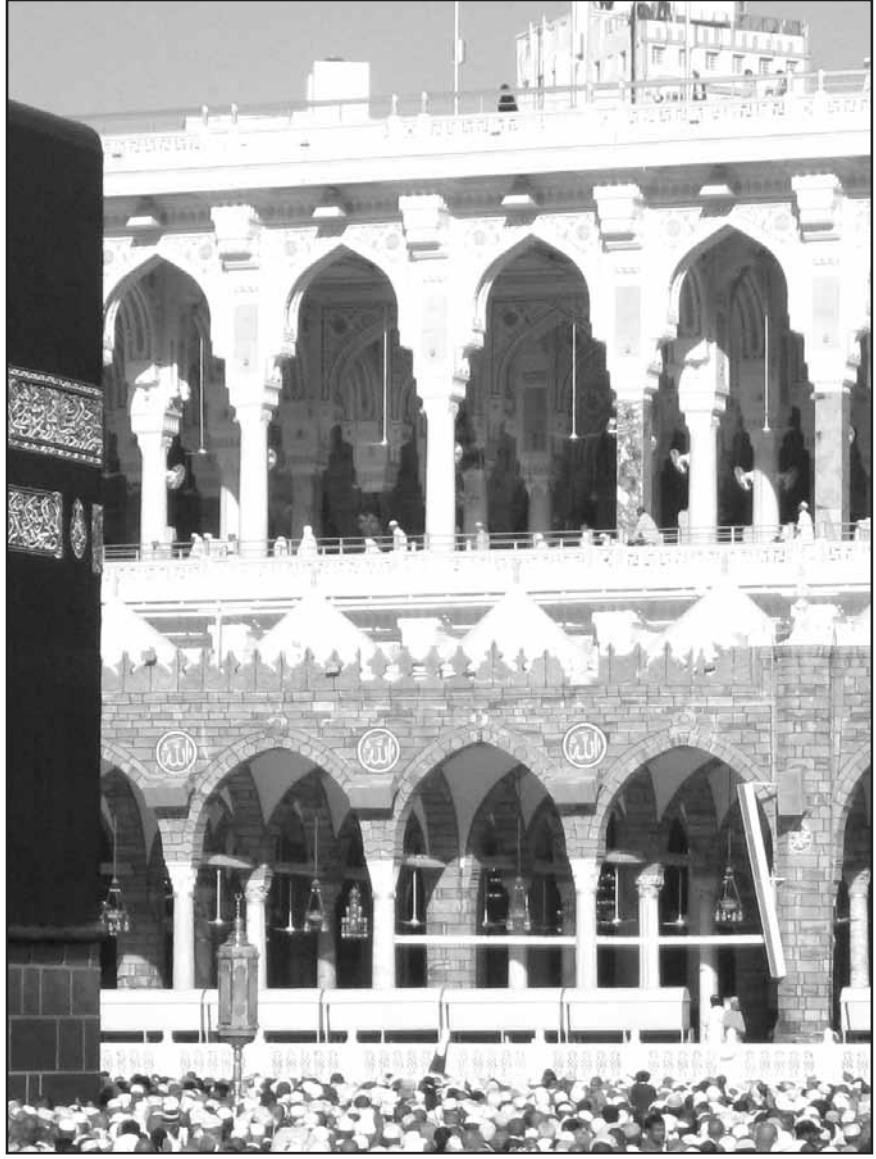

حكم بناء الطوابق للمطاف والطواف فيها

علي عندليب

من أهم المسائل التي تواجه الأمة الإسلامية في موسم الحج، مسألة الطواف بالبيت؛ لكثرة الحجاج وضيق المطاف، وعلاج هذه المشكلة إمّا دستوري بأن يؤمر بتسليم صاحب النافلة الطواف لصاحب الفريضة،

كما وردت في أحاديثنا: «أنّ أوّل ما يظهر القائم من العدل أن ينادى مناديه أن يسلم صاحب النافلة لصاحب الفريضة الحجر الأسود و الطواف»؛[1] وإما عملي بأن تبنى الطوابق التحتانية والفوقانية العديدة للمطاف؛ والرسالة متكفلة للمعالجة الثانية من حيث الحكم التكليفي والوضعي، والكلام في مقامين.

وقبل تبيين المسألة، لابد من بيان التطورات الواقعة في بناء الكعبة من بدوها إلى زماننا هذا؛ وحكم ازدياد ارتفاع الكعبة برفع سمكها:

١. بناء الكعبة في زمان آدم عليه السلام:

محمد بن يعقوب، عن عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد وأحمد بن محمد جميعاً عن ابن محبوب، عن محمد بن إسحاق، عن أبي جعفر عن آبائه عليهم السلام: «أنّ الله تبارك و تعالى أوحى إلى جبرئيل عليه السلام: أنا الرحمن الرحيم، وإني قد رحمت آدم و حواء؛ لما شكيا إلى ما شكيا، فأهبط عليهما بخيمة من خيم الجنة، وعزهما عني بفراق الجنة، وأجمع بينهما في الخيمة، فإني قد رحمتهما؛ لبكائهما ووحشتهما في وحدتهما، وأنصب الخيمة على الترعة التي بين جبال مكة ـ قال: والترعة مكان البيت وقواعده التي رفعتها الملائكة قبل آدم ـ فهبط جبرئيل عليه السلام على آدم بالخيمة على مقدار أركان البيت وقواعده فنصبها؛ قال: وأنزل جبرئيل آدم من الصفا وأنزل حواء من المروة، وجمع بينهما في الخيمة... قال: وأوحى الله عزّوجلّ إلى جبرئيل عليه السلام إهبط على الخيمة بسبعين ألف ملك يحرسونها من مردة الشياطين، و يؤنسون آدم، ويطوفون حول

الخيمة، تعظيماً للبيت والخيمة؛ قال: فهبط بالملائكة، فكانوا بحضرة الخيمة يحرسونها من مردة الشياطين العتاة، ويطوفون حول أركان البيت والخيمة كل يوم وليلة، كما كانوا يطوفون في السماء حول البيت المعمور؛ قال: و أركان البيت الحرام في الأرض حيال البيت المعمور الذي في السماء؛ ثم قال: إنّ الله عزّوجل أوحى إلى جبرئيل بعد ذلك أن اهبط إلى آدم وحوّاء فنحّهما عن مواضع قواعد بيتي، وارفع قواعد بيتي لملائكتي ثم ولد آدم، فهبط جبرئيل على آدم وحوّاء، فأخرجهما من الخيمة ونحّاهما عن ترعة البيت، ونحى الخيمة عن موضع الترعة قال: و وضع آدم على الصفا وحوّاء على المروة، فقال آدم: يا جبرئيل أبسخط من الله عزّوجل حوّلتنا وفرّقت بيننا، أم برضى وتقدير علينا؟ فقال لهما: لم يكن ذلك بسخط من الله عليكما، ولكنّ الله لا يسأل عما يفعل، يا آدم إنّ السبعين ألف ملك الذين أنزلهم الله إلى الأرض ليؤنسونك، و يطوفوا حول أركان البيت والخيمة، سألوا الله أن يبني لهم مكان الخيمة بيتاً على موضع الترعة المباركة حيال البيت المعمور، فيطوفون حوله، كما كانوا يطوفون في السماء حول البيت المعمور، فأوحى الله عزّوجلّ إليّ أن أنحيك وأرفع الخيمة، فقال آدم: قد رضينا بتقدير الله ونافذ أمره فينا، فرفع قواعد البيت الحرام بحجر من الصفا وحجر من المروة، وحجر من طور سيناء، وحجر من جبل السلام وهو ظهر الكوفة؛ وأوحى الله عزّوجلّ إلى جبرئيل أن ابنه وأتمه؛ فاقتلع جبرئيل الأحجار الأربعة بأمر الله عزّوجلّ من مواضعهن بجناحه، فوضعها حيث

أمـر الله عزّوجـلّ في أركان البيت علـى قواعـده التي قدرهـا الجبار، ونصـب أعلامها، ثـم أوحى الله عزّوجلّ إلى جبرئيـل أن ابنه وأتمه بحجارة من أبي قبيـس، واجعل له بابين: باباً شـرقياً وباباً غربياً؛ قال: فأتمه جبرئيـل؛ فلما أن فرغ، طافت حوله الملائكة، فلما نظر آدم و حوّاء إلى الملائكة يطوفـون حول البيت، انطلقا فطافا سبعة أشواط، ثم خرجا يطلبان ما يأكلان».[٢]

ورواه الصـدوق، عن محمد بن موسـى بن المتوكل، عن عبدالله بن جعفر الحمـيري، عن أحمد بن محمد بن عيسـى، عن الحسن بن محبوب، عن محمد بن إسحاق نحوه.[٣]

ومحمد بن علي بن الحسين بإسناده عن أبي بصـير، عن أبي‌عبدالله عليه السلام قـال: «إنّ آدم عليه السلام هوالذي بنى هذا البيت ووضع أساسه...».[٤]

٢ . بنـاء الكعبـة في زمـان إبراهيم عليه السلام:

محمد بن يعقـوب، عن عدّة من أصحابنا، عن أحمـد بن محمد، عن

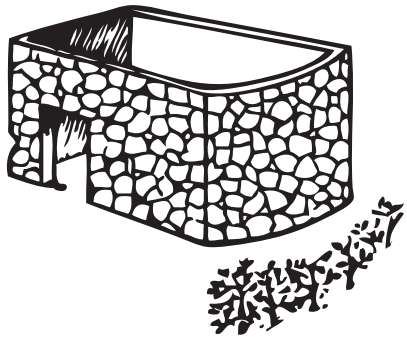

ابن فضال، عن عبدالله ابن سـنان، عـن أبي‌عبـدالله عليه السلام قـال: «لمّا أمر إبراهيم وإسماعيـل ببناء البيت وتمّ بنـاؤه، قعد إبراهيـم على ركن ثم نادى هلمّ الحج...».[٥]

ومحمد بـن يعقوب، عـن عدّة مـن أصحابنا، عن أحمـد بن محمد، عن سـعيد بن جناح، عن عدّة من أصحابنا، عـن أبي‌عبدالله عليه السلام قال: «كانت الكعبة على عهد إبراهيم عليه السلام تسعة أذرع وكان له بابان...».[٦]

٣ . بناء الكعبة في الجاهلية:

محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن علي بن النعمان، عن سعيد ابن عبدالله الأعرج، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ

قريشاً في الجاهلية هدموا البيت، فلما أرادوا بناءه حيل بينهم وبينه، وألقى في روعهم الرعب، حتى قال قائل منهم: ليأتي كل رجل منكم بأطيب ماله، و لاتأتوا بمال اكتسبتموه من قطيعة رحم أو حرام، ففعلوا، فخليّ بينهم و بين بنائه، فبنوه حتى انتهوا إلى موضع الحجر الأسود، فتشاجروا فيه أيّهم يضع الحجر الأسود في موضعه، حتى كاد أن يكون بينهم شرّ، فحكموا أول من يدخل من باب المسجد، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله فلما أتاهم أمر بثوب فبسط، ثم وضع الحجر في وسطه، ثم أخذت القبائل بجوانب الثوب فرفعوه، ثم تناوله صلى الله عليه وآله فوضعه في موضعه فخصّه الله به».[٧]

ومحمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن داود بن سرحان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ساهم قريشاً في بناء البيت، فصار لرسول الله صلى الله عليه وآله من باب الكعبة إلى النصف ما بين الركن اليماني إلى الحجر الأسود».[٨]

٤ . بناء الكعبة في زمان علي بن الحسين عليهما السلام:

محمد بن يعقوب، عن عدّة

مـــن أصحابنا، عن أحمـــد بن محمد، عن ســـعيد بن جناح، عن عدّة من أصحابنا، عـــن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كانت الكعبة على عهد إبراهيم عليه السلام تســـعة أذرع، وكان لها بابان، فبناها عبدالله بن الزبير فرفعها ثمانية عشر ذراعاً، فهدمها الحجاج فبناها ســـبعة وعشرين ذراعاً».[٩]

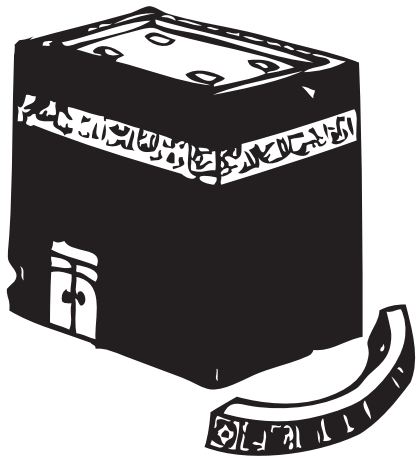

ومحمد بـــن يعقوب، عـــن عدّة مـــن أصحابنا، عن أحمـــد بن محمد، عن ابن أبي عمـــير، عن أبي علي صاحب الأنمـــاط، عـــن أبـــان بـــن تغلب قال: لمـــا هدم الحجاج الكعبة فرّق النـــاس ترابها، فلما صاروا إلى بنائها، فـــأرادوا أن يبنوها، خرجت عليهم حيّة، فمنعـــت الناس البناء حتى هربـــوا، فأتوا الحجاج فأخبروه، فخاف أن يكون قد منع بناءها فصعد المنبر، ثم نشـــد الناس، وقال: أنشد الله عبداً عنده ممـــا ابتلينا به علم لما أخبرنا به. قال: فقام إليه شيخ، فقال: إن لم يكن عند أحد علم، فعند رجل رأيته جاء إلى الكعبة، فأخذ مقدارها، ثم مضى، فقـــال: من هو؟ قال: علي بن الحســـين عليهما السلام فقال: معدن ذلك، فبعث إلى علي بن الحسين صلوات الله عليهمـــا، فأتاه فأخبره ما كان من منـــع الله إياه البناء؛ فقال له علي بن الحســـين عليهما السلام: «يا حجاج عمدت إلى بناء إبراهيم وإسماعيـــل، فألقيته في الطريـــق وانتهبته كأنـــك ترى أنه تراث لـــك، إصعد المنبر، وأنشـــد الناس أن لا يبقـــى أحد منهم أخذ منه شيئاً إلا ردّه»؛ قال: ففعل، فأنشد

الناس أن لا يبقى منهم أحد عنده شيء إلا ردّه؛ قال: فردوه؛ فلمّا رأى جمع التراب، أتى علي بن الحسين صلوات الله عليهما، فوضع الأساس، وأمرهم أن يحفروا؛ قال: فتغيبت عنهم الحية؛ وحفروا حتى انتهوا إلى موضع القواعد؛ قال لهم علي بن الحسين عليهما السلام: «تنحوا؛ فتنحوا؛ فدنى منها، فغطّاها بثوبه، ثم بكى، ثم غطّاها بالتراب بيد نفسه، ثم دعا الفعلة، فقال: ضعوا بناءكم»؛ فوضعوا البناء، فلما ارتفعت حيطانها أمر بالتراب، فقلب فألقى في جوفه، فلذلك صار البيت مرتفعاً يصعد إليه بالدرج.[١٠]

٥ . مساحة الكعبة وسمكها:

إنّ المستفاد من الأحاديث الواردة في بناء الكعبة هو أنّ طول الكعبة وعرضها كانا على ما بنى في زمان آدم عليه السلام والمساحة لم تتغير في طول التاريخ، والطول ثلاثون ذراعاً والعرض إثنان وعشرون ذراعاً؛ وأما السمك فقد تغيّر في الأدوار المختلفة، فإنه كان في زمان إبراهيم عليه السلام تسعة أذرع، وفي الجاهلية ثمانية عشر ذراعاً، وكان في زمان علي بن الحسين عليهما السلام سبعة وعشرين ذراعاً؛ وإليك الأحاديث الواردة في هذا الباب:

محمد بن يعقوب، عن عدّة من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد ، عن سعيد بن جناح ، عن عدّة من أصحابنا ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كانت الكعبة على عهد إبراهيم عليه السلام تسعة أذرع، وكان لها بابان، فبناها عبدالله بن الزبير، فرفعها ثمانية عشر ذراعاً، فهدمها الحجاج، وبناها سبعة وعشرين ذراعاً» .[١١]

ومحمد بن يعقوب مرسلًا عن ابن أبي نصر، عن أبان بن عثمان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان طول الكعبة يومئذ تسعة أذرع ولم يكن

لها سقف، فسقفها قريش ثمانية عشر ذراعاً، فلم تزل، ثم كسرها الحجاج على ابن الزبير، وجعلها سبعة وعشرين ذراعاً».[١٢]

ومحمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم وغيره بأسانيد مختلفة رفعوه قال: «إنما هدمت قريش الكعبة لانّ السيل كان يأتيهم من أعلى مكّة فيدخلها، فانصدعت، وسرق من الكعبة غزال من ذهب رجلاه من جوهر، وكان حائطها قصيراً، وكان ذلك قبل مبعث النبيﷺ بثلاثين سنة، فأرادت قريش أن يهدموا الكعبة ويبنوها و يزيدوا في عرضها (عرصتها) ثم اشفقوا من ذلك وخافوا إن وضعوا فيها المعاول أن تنزل عليهم عقوبة؛ فقال الوليد ابن المغيرة: دعوني أبدء فإن كان لله رضى لم يصبني شيء، وإن كان شيء كففنا، فصعد على الكعبة وحرك منها حجراً فخرجت عليه حيّة وانكسفت الشمس، فلمّا رأوا ذلك بكوا وتضرّعوا وقالوا: أللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح، فغابت عنهم الحيّة، فهدموه ونحوا حجارته حوله حتى بلغوا القواعد التي وضعها إبراهيمعليه السلام، فلمّا أرادوا أن يزيدوا في عرصته وحركوا القواعد التي وضعها إبراهيمعليه السلام أصابتهم زلزلة شديدة وظلمة، فكفوا عنه، وكان بنيان إبراهيم الطول ثلاثون ذراعاً، والعرض إثنان وعشرون ذراعاً والسمك تسعة أذرع، فقالت قريش: نزيد في سمكها، فبنوها...».[١٣]

فالمتحصل من ذلك كله أنّ طول الكعبة كان ثلاثين ذراعاً، وعرضها كان اثنين وعشرين ذراعاً من لدن آدمعليه السلام إلى زمان علي بن الحسينعليهما السلام، وأما ارتفاعها فكان متغيراً في الأدوار المختلفة، فإنه كان تسعة أذرع في زمان إبراهيمعليه السلام وثمانية عشر ذراعاً

في الجاهلية، وسبعة وعشرين ذراعاً في عهد علي بن الحسين عليهما السلام وأما عهد آدم عليه السلام فلم يعلم مقداره.

وفي قبال تلك الروايات رواية كلثوم الدالة على أنّ سمك الكعبة في عهد إبراهيم عليه السلام كان اثني عشر ذراعاً:

محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، وأحمد بن إدريس، عن عيسى بن محمد بن أيوب، عن علي بن مهزيار، عن الحسين بن سعيد، عن علي بن منصور، عن كلثوم بن عبد المؤمن الحراني، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «أمر الله عزوجل إبراهيم عليه السلام أن يحج ويحج إسماعيل معه، ويسكنه الحرم، فحجا على جمل أحمر... فلما قضيا مناسكهما أمر الله إبراهيم عليه السلام بالانصراف، وأقام إسماعيل وحده ما معه أحد غير أمّه، فلما كان من قابل أذن الله لإبراهيم عليه السلام في الحج وبناء الكعبة، وكانت العرب تحج إليه، وإنما كان ردماً إلاّ أنّ قواعده معروفة، فلما صدر الناس، جمع إسماعيل الحجارة وطرحها في جوف الكعبة، فلما أذن الله له في البناء، قدم إبراهيم عليه السلام فقال: يا بُنيّ قد أمرنا الله ببناء الكعبة، وكشفا عنها، فاذا هو حجر واحد أحمر، فأوحى الله عزوجل إليه: ضع بناءها عليه، وأنزل الله عزوجل أربعة أملاك يجمعون إليه الحجارة، فكان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يضعان الحجارة، والملائكة تناولهما حتى تمت اثنى عشر ذراعاً، وهيئا له بابين: باباً يدخل منه، وباباً يخرج منه، ووضعا عليه عتباً وشرجاً من حديد على أبوابه، وكانت الكعبة عريانة، فصدر إبراهيم وقد سوّى البيت، وأقام إسماعيل، فلما ورد عليه الناس، نظر إلى امرأة من حمير أعجبه جمالها، فسأل الله عزوجل أن يزوّجها إياه، وكان لها بعل، فقضى الله على

بعلها بالموت، وأقامت بمكة حزناً على بعلها، فأسلى الله ذلك عنها، وزوّجها إسماعيل...».[١٤]

ولكن الرواية مشتملة على أمر يوهن الوثوق إلى صدورها، وهو نظر إسماعيل عليه السلام إلى امرأة من حمير أعجبه جمالها! كما أنّ صدر الرواية أيضاً مخالف لما هو المشهور والمعروف، من كون إسماعيل وأمه في مكة من حين طفولية إسماعيل، ويدلّ عليه أيضاً الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام.[١٥]

فقوله: «أمر الله عزوجل إبراهيم أن يحج ويحج إسماعيل معه ويسكنه الحرم...» لايمكن الاعتماد عليه، فالرواية موهونة مضافاً إلى ضعف السند، لجهالة علي بن منصور وكلثوم بن عبد المؤمن.

وكيف كان، فلا إشكال في أنّ ارتفاع البيت في عهد إبراهيم عليه السلام كان أقلّ من ارتفاعها في عهد سيد الساجدين عليه السلام، سواء كان تسعة أذرع أو اثني عشر ذراعاً، فإنّ ارتفاعها في العهد الأخير كان سبعة وعشرين ذراعاً.

وأما ما قيل من كون الشاذروان من البيت، فكان عرض الكعبة أقل من عرضها في عهد آدم وإبراهيم عليهما السلام فلا دليل عليه، بل الروايات المتقدمة تدلّ على خلاف ذلك.

٦ . حكم رفع سمك الكعبة:

من الأمور التي لها صلة بمسألتنا هو أنه هل يجوز رفع جدار البيت بأن يزيد فيه عما كان أم لا؟ فيه وجهان؛ والظاهر جوازه:

ويمكن أن يستدلّ عليه بأمور:

١. الأخبار الواردة في تطورات بناء الكعبة:

قد يقال: إنّ المستفاد من الروايات المتقدمة في تطورات بناء الكعبة هو

أنّ ارتفاع الكعبة صار في معرض التغيير، فتارة كان ارتفاعها تسعة أذرع، وأخرى ثمانية عشر ذراعاً، وثالثة كان سبعة وعشرين ذراعاً، والكل كانت في مرأى المعصوم عليه السلام أو بفعله، فإنّ الأول كان ببناء إبراهيم عليه السلام مباشرة؛[١٦] والثاني كان في مرأى رسول الله صلى الله عليه وآله وبفعله قبل البعثة؛[١٧] والثالث كان بمرأى سيد الساجدين عليه السلام وبحضرته.[١٨]

فالظاهر أنه لا خصوصيّة لحد من الحدود في ارتفاع الكعبة، بل يجوز رفعه بلاحد محدود؛ فتأمّل.

٢. الأخبار الواردة في أن الكعبة ممتدة من موضعها إلى السماء؛[١٩] فرفع جدارها ليس بأمر خارج عنها؛ فتأمّل.[٢٠]

٣. الأصل: إنّ مقتضى أصل البراءة هو جواز زيادة سمك الكعبة عمّا كان عليه؛ لأنه لو شككنا في جوازه ولم يتمّ الدليل، كان من الشبهة التحريمية البدويّة، ومقتضى أصالة البراءة جوازه؛ فيجوز رفع الجدار بأيّ مقدار كان.

المقام الأول: حكم بناء الطوابق للمطاف:

ألف: حكم بناء الطوابق الفوقانيّة:

يمكن تصوير بناء الطوابق الفوقانيّة للمطاف على صور:

١. بناء الطوابق للمطاف متصلة بالكعبة مع رفع جدارها.

٢. بناء الطوابق للمطاف منفصلة عن الكعبة مع رفع جدارها.

٣. بناء الطوابق للمطاف متصلة بالكعبة بلا رفع جدارها.

٤. بناء الطوابق للمطاف منفصلة عن الكعبة بلا رفع جدارها.

أما الصورتان الأوليان، فبعد ما تقدم من جواز رفع جدار البيت، فلا دليل على حرمة بناء الطوابق

الفوقانيّة بكلا صورتيها، فمقتضى الأصل جوازه.

وأما الصورتان الأخيرتان، فيمكن أن يقال بالتفصيل بين الطوابق التي تحاذي جدار الكعبة، فيجوز؛ وبين الطوابق التي تكون فوقها فلا يجوز.

والدليل على ذلك هو أنّ الأصل جوازه، في الصورة التي تحاذي الجدار، بعد ما لم يكن دليل على حرمته؛ ودلالة ما ورد في منع رفع الأبنية فوق الكعبة على حرمته في الصورة التي تعلو عليها؛ وهو ما رواه محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن علي بن الحكم وصفوان، عن العلاء، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لا ينبغي للرجل أن يقيم بمكة سنة قلت: كيف يصنع؟ قال: يتحوّل عنها؛[٢١] ولا ينبغي لأحد أن يرفع بناء فوق الكعبة».[٢٢]

و رواه الصدوق بإسناده عن العلاء مثله.[٢٣]

و رواه أيضاً عن أبيه، عن علي بن سليمان الرازي، عن محمد بن خالد الخزاز، عن العلاء، مثله.[٢٤]

و رواه الشيخ بإسناده عن الحسين بن سعيد، عن فضالة بن أيوب، عن العلاء بن رزين، مثله.[٢٥]

و رواه أيضاً بإسناده عن علي بن مهزيار، عن فضالة، عن العلاء، مثله.[٢٦]

و رواه أيضاً بإسناده عن موسى بن القاسم، عن صفوان، عن العلاء بن رزين، مثله؛[٢٧] إلاّ أنه ليس فيه صدر الحديث.

بتقريب أنّ قوله عليه السلام: «لاينبغي» ظاهر في الحرمة؛[٢٨] فيحرم رفع البناء فوق الكعبة، وحيث إنّ قوله عليه السلام: «بناء» مطلق سواء كان بناء الدور في مكة، أو بناء المساجد حتى بناء المسجد الحرام، فيحرم رفع بناء

المسجدالحرام فوق الكعبة، فلا يجوز بنـاء الطوابق الفوقانيـة للمطاف، بحيث تفوق على الكعبة؛ وحيث إنّ الرواية صحيحة، فيتمّ المطلوب.

ولكـن يمكن النقـاش فيه بأنه وإن كانت كلمة «لاينبغي» دالة على الحرمـة، إلا أنهـا في الرواية بمعنى الكراهة بقرينة السـياق، حيث إنّ قولهعليه السلام: «لاينبغي للرجل أن يقيم...» بمعنـى الكراهـة، إذ الإقامة في مكة سنة ليست بحرام، بل هي مكروهة، أللهـم إلا أن يقـال: إنّ القرينـة الخارجية الموجبة لإرادة الكراهة من الصدر، لاتوجـب حمل الذيل أيضاً علـى الكراهة، وحيـث إنّ الصدر ظاهر في نفسـه في الحرمة، وإنما حمل على الكراهة جمعـاً بين الأدلة، فلا سياق؛ فتأمل.

هـذا مضافاً إلى التأمل في جريان مقدمات الحكمـة، وتمامية الإطلاق في كلمة «بنـاء» بحيث كان دالاً على حرمة رفع الطوابق التي من المسجد الحرام فوق الكعبة.

فرعان:

الفرع الأول: حكـم بناء الطوابق الفوقانية مع عدم جواز رفع جدار البيت:

إنّ قلنـا بعدم جـواز رفع البناء فوق الكعبة حتى بناء المسجد الحرام، وقلنـا بعدم جواز رفع جدار البيت، ولكن رفع جـدار البيت على وجه غير مشروع، فهل يجوز بناء الطوابق الفوقانية محاذاة الجدار المرفوع أم لا؟ فيه وجهان:

الوجه الأول: عدم جـوازه؛ لأنّ الجـدار المرفـوع حيـث كان غير مشروع فهو كالعدم، فالطوابق التي تحاذيه رفعت فوق الكعبة التي كانت في صدر الإسلام، فتدل على حرمته صحيحة محمد بن مسلم المتقدمة.

الوجه الثاني: جـوازه؛ لأنّ رفع

الجـدار وإن كان حراماً، إلا أنه بعد رفعه يصدق عليه الكعبة، فالطوابق التي تحاذيـه لم تكن فـوق الكعبة، وصـدق الكعبة أمر عرفي، ولا ريب في أنّ العـرف يرى المجمـوع كعبة؛ فالحرمة لاتنافي صدق الكعبة.

بـل قـد يقال: إنه إن شـك في صدق الكعبـة على المجموع من الجدار المرفـوع والجـدار الموجود، فلايمكن التمسـك بأدلة حرمة رفع البناء فوق الكعبـة على حرمة بناء الطوابـق، لأنـه تمسـك بالعام في الشبهة المصداقية له، فيرجع فيه إلى أصالة البراءة.

الفـرع الثانـي: حكم رفـع جدار حجـر إسماعيل مع بنـاء الطوابق الفوقانية:

بعد القول بجـواز بناء الطوابق الفوقانية المتصلة بالكعبة، فهل يجب رفع جدار حجر إسماعيل عليه السلام بمحاذاة الطوابق أم لا؟ فيه وجهان:

الوجه الأول:

وجـوب رفع جـدار الحجر؛ لأنّ الأخبـار الواردة في تأسـيس حجر إسماعيل عليه السلام متكفّلـة للحكمة التي بعينها موجودة في الطوابق الفوقانية؛ وإليك نصّ الروايات:

محمد بـن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سـعيد، عن فضالـة بن أيوب، عـن معاوية بن عمار قال: سـألت أباعبدالله عليه السلام عن الحجر أمن البيت هو أو فيه شـيء من البيت؟ فقال: «لا، ولا قلامـة ظفر، ولكن إسماعيل دفن فيه أمّه فكـره أن يوطأ، فجعل عليه حجراً وفيه قبور الأنبياء».[٢٩]

ومحمـد بن يعقـوب، عن محمد بـن يحيى، عن أحمد بـن محمد، عن علي بـن النعمان، عن سـيف بن عميرة، عن أبي بكر الحضرمي، عن

أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ إسماعيل دفن أمه في الحجر وحجر عليها؛ لئلا يوطأ قبر أمّ إسماعيل في الحجر».[٣٠]

ومحمد بن إدريس نقلاً من نوادر أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي، عن الحلبي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن الحجر فقال: «إنكم تسمونه الحطيم، وإنما كان لغنم إسماعيل، وإنما دفن فيه أمه، وكره أن يوطأ قبرها فحجر عليه، وفيه قبور أنبياء».[٣١]

بتقريب أنّ بناء الطوابق الفوقانية من دون حجر معدّ لوطإ قبر أم إسماعيل عليه السلام إذ لافرق في وطإ القبر بين الطواف في المطاف الموجود و بينه في الطوابق الفوقانية.

ولكنه يناقش فيه:

أولاً: بأنّ حرمة الطواف تكليفاً من الحجر، لاتوجب حرمة البناء فوق الحجر؛ لأنّ مقدمة الحرام ليست بحرام؛ مع أنّ حرمة البناء فوقه غير وجوب رفع جدار الحجر في الطوابق الفوقانية.

وثانياً: بأنّ المشي في الطوابق الفوقانية للحجر، لايعدّ عرفاً وطأ القبر حتى يقال بأنّ حكمة جعل الحجر موجودة في الطوابق أيضاً، ولاأقلّ من الشك في ذلك.

وثالثاً: بأنّ وطأ قبر أمّ إسماعيل لم يكن محرماً، بل الطواف في الحجر باطل؛ و لذا يجوز بل يستحبّ الوقوف للدعاء والصلاة فيه، فلو كان وطأ قبرها حراماً، لم يستحب الصلاة ولا الدعاء فيه.

الوجه الثانى:

عدم وجوب رفع جدار الحجر وجواز البناء فوق الحجر؛ لعدم الدليل على وجوب رفع الجدار ولا حرمة البناء، والأصل عدمهما.

وأما الطواف فوق الحجر في الطوابق الفوقانية، فهو أمر آخر

يأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

ب: حكم بناء الطوابق التحتانية.

الظاهر أنه لا إشكال في بناء الطوابق التحتانية للمطاف سواء كانت متصلة بالكعبة أم لا، إذ لادليل على حرمته، فالأصل جوازه.

وأما بناء حجر إسماعيل في الطوابق التحتانية بمحاذاة الحجر الموجود، فلا وجه له بعد عدم جريان الحكمة الموجبة لتأسيس الحجر في الطوابق التحتانية، فيجوز بناء الطوابق التحتانية من دون بناء الحجر فيها.

المقام الثاني: حكم الطواف في الطوابق:

ألف: حكم الطواف في الطوابق الفوقانية:

١. الطواف في الطوابق الفوقانية المتصلة بالجدار الموجود، وكون المطاف أسفل منه:

الظاهر أنه لاريب في صحة الطواف المذكور؛ لأنه طواف بالبيت بلا إشكال، والأخبار الدالة على وجوب الطواف أو استحبابه مطلقة، لا اختصاص لها بالطواف في المطاف الموجود، إلا أن يقال: إنّ تلك الأخبار ليست في مقام البيان من تلك الجهة، ولكن الأصل يدل على الصحة.

٢. الطواف في الطوابق الفوقانية المتصلة بالجدار المزيد فيه بعد رفعه، وكون المطاف أسفل منه:

الظاهر أيضاً في هذه الصورة هو صحة الطواف؛ سواء قلنا بجواز رفع الجدار أم لا، إذ بعد رفع الجدار يكون الطواف حوله طوافاً بالبيت عرفاً، فلا إشكال فيه، إلا ما تقدم من عدم كون الأخبار في مقام البيان من تلك الجهة، ولكن أصالة البراءة تكفي في صحته.

ويمكن أن يستدل على صحته أيضاً بالأخبار التي يستدل بها على صحة الطواف فوق الكعبة، كما تأتي في الصورة الثالثة.

٣. الطواف في الطوابق المرفوعة على الكعبة ؛ سواء كانت متصلة بها أم لا، فيه وجهان:

الوجه الأول: صحة الطواف:

و قد يستدل على ذلك بأمور:

١. ما ورد في أنّ الكعبة قبلة من موضعها إلى السماء:

محمد بن الحسن بإسناده عن الطاطري، عن محمد بن أبي حمزة، عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «سأله رجل، قال: صليت فوق أبي قبيس العصر، فهل يجزي ذلك والكعبة تحتي؟ قال: نعم، إنها قبلة من موضعها إلى السماء».[٣٢]

بتقريب أن قوله عليه السلام: «إنها قبلة...» ظاهر في أن الكعبة ممتدة من موضعها إلى السماء، حيث إنّ ضمير (إنها) ترجع إلى الكعبة يعني أنّ الكعبة من موضعها إلى السماء قبلة، الظاهر عرفاً في أنّ كلها كعبة، فالطواف في الطوابق المذكورة طواف بالكعبة، كما أنّ الصلاة في الطوابق المذكورة صلاة إلى الكعبة.

وقد يناقش فيه:

أولاً: بأنه يمكن أن يكون المراد أنّ القبلة من موضع الكعبة إلى السماء، لا أنّ الكعبة ممتدة إلى السماء؛ و يؤيده كلام السائل حيث قال: «والكعبة تحتي»، ولم يردعه الإمام عليه السلام ولم يقل: إنها كعبة من موضعها إلى السماء، بل قال: «إنها قبلة...».

وثانياً: بأنه ولو سلم أنّ الرواية تدل على أنّ الكعبة ممتدة إلى السماء، ولكنها لا تدلّ على صحة الطواف في الطوابق التي تكون فوق الكعبة، بل تدلّ على جواز الصلاة

إليها، فلابد من التماس دليل آخر، ولو بالإطــلاق على صحة الطواف المذكور، فبضمّ هذا الدليل إلى تلك الرواية يصحّح الطــواف المذكور، فعلــى هذا إن لم يحــرز الإطلاق في أدلة الطواف، لا يمكن الحكم بصحة الطواف المذكور.

وثالثــاً: بــأنّ الروايــة ضعيفة من حيث الســند؛ لاشــتمال طريق الشــيخ؛[٣٣] إلى الطاطري على علي بن محمد بن الزبير الذي في وثاقته تأملٌ، وإن لايبعد وثاقته على ما هو المقرر في محله.

ورابعاً: بأنها معارضة بصحيحة محمد بن مســلم عن أبي جعفرعليه السلام قــال: «...لا ينبغي لأحد أن يرفع بناء فوق الكعبة». بتقريــب أنه لو كان البيت ممتداً من الأرض إلى السماء، فلا موضوع لرفع البناء فوق الكعبة مع أنّ الإمامعليه السلام منــع منه، فالرواية تــدل علــى أنّ فوق جــدار البيت لا يصــدق عليه الكعبة، فليســت الكعبة ممتدة إلى الســماء، فتعارض رواية الامتداد لو تمت دلالتها.

وبما رواه الصدوق، عن أبيه، عن سعد بن عبدالله، عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحســن الطويل، عن عبدالله بــن المغيرة، عــن ذريح بن يزيــد المحاربي، عــن أبي عبدالله عليه السلام قــال: «إنّ الله عزوجل أغرق الأرض كلها يوم نوح إلا البيت، فيومئذ سمي العتيق؛ لأنه اعتق يومئذ من الغرق، فقلت له: أصعد إلى السماء؟ فقال: لا، لم يصل إليه الماء، و رفع عنه».[٣٤]

بتقريــب أنّ رفع الماء عن البيت كاشــف عن كون البيت هو البناء الموجود، فمــا فوقه ليس من البيت، و إلا لم يكن وجه لقولهعليه السلام: «و رفع عنه»، أللهم إلا أن يقال: إنّ رفع الماء عن البيت بمعنى عدم وصوله إليه لا رفعه فوقه، فيكون عطفاً تفسيرياً.

٢. مـا ورد في امتـداد الكعبـة من الأرض إلى السماء:

محمد بن علي بن الحسـين قال: قال الصادق عليه السلام: «أساس البيت من الأرض السابعة السفلى إلى الأرض السابعة العليا».[٣٥]

بتقريـب أن المـراد من الأرض السابعة العليا هي السماء السابعة، والتعبير عنها بالأرض كأنه من جهة عـدّ كل سماء أرضـاً بالإضافة إلى ما فوقهـا؛[٣٦] فعلى هذا يكون الطواف في الطوابق المذكورة طوافاً بالبيت.

وقد يناقش فيه أولاً:

بأنّ التعبير عن السماء السابعة بالأرض السـابعة غير صحيح، ولو كان مـن جهـة عدّ كل سمـاء أرضاً بالإضافة إلى ما فوقها؛ لأنّ السـماء السـابعة لا يكون لها سماء حتى يقال بأنها أرض بالإضافـة إليها، مع أنه عبّر في الرواية عن الجميع بالأرض.

وثانيـاً: بأنّ حمـل الأرض على السماء في الرواية لا دليل عليه، بل الظاهر منها أنّ البيت أساسـه ممتدة في الأرضين السبعة قبل السموات

السبع، فلا دلالة في الرواية على امتداده إلى السماء، بل يكون أساسه في الأرضين السبعة، ونفس البيت في الأرض السابعة العليا كما هو الموجود في مكة.

والظاهر من الروايات أنّ الأرضين السبعة متصلة، ولعل المراد منها الأرض التي يسكن فيها ابن آدم ظاهرها وباطنها؛ وإليك بعض النصوص الواردة في هذا المقام:

منها ما رواه محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن فضال، عن داود ابن فرقد، عن أبي يزيد الحمار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ الله بعث أربعة أملاك في إهلاك قوم لوط... فقال له جبرئيل: إنا بعثنا في إهلاكهم، فقال: يا جبرئيل عجل، فقال: إنّ موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب؛ فأمره أن يتحمل هو ومن معه إلا امرأته، ثم اقتلعها ـ يعني المدينة ـ جبرئيل بجناحه من سبعة أرضين، ثم رفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا يناح الكلاب...».[٣٧]

فإنّ الظاهر من قوله عليه السلام: «ثم اقتلعها... من سبعة أرضين» هو كون أساس مدينة قوم لوط من الأرض السابعة السفلى إلى الأرض السابعة العليا، وهي ما يسكن فيه ابن آدم في قبال السموات السبع التي منها سماء الدنيا.

ومنها ما رواه محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن علي بن معبد، عن عبيد الله الدهقان، عن درست بن أبي منصور، عن عطية أخي أبي العرام؛[٣٨] قال: ذكرت لأبي عبدالله عليه السلام المنكوح من الرجال فقال: «... وهم بقية سدوم، أما إني لست أعني بهم أنهم بقيتهم أنهم ولدهم، ولكنهم من طينتهم، قال: قلت: سدوم التي قلبت؟ قال: هي أربع مدائن: سدوم وصريم والدما وعميرا قال: أتا هنّ جبرئيل عليه السلام

وهنّ مقلوعات إلى تخوم الأرضين السابعة، فوضع جناحه تحت السفلى منهن، ورفعهن حتى سمع أهل السماء يناح كلابهم ثم قلبها».[٣٩]

ورواه الصدوق عن أبيه، عن محمد بن يحيى العطار، عن محمد بن أحمد، عن موسى بن جعفر السعدآبادى، عن علي بن معبد، عن عبيد الله الدهقان مثله.[٤٠]

وهذه الرواية في الدلالة على المدعى كالرواية السابقة، فإنّ المدائن المذكورة كانت في الأرض التي يسكنها ابن آدم، مع أنه جاء في الرواية أنها قلعت من الأرض السفلى من الأرضين السبعة.

وثالثاً: بأنّ الرواية مرسلة فلا اعتبار لها، ولو كان المرسل هو الصدوق والمرسلة في الفقيه.

ورابعاً: بأن صدق الطواف لايكفي في صحته، بل لابد من قيام دليل ولو بالإطلاق على صحته.

وخامساً: بأنها معارضة بما تقدم في صحيحة محمد بن مسلم.

٣. الأخبار الواردة في طواف نوح عليه السلام :

محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن محبوب، عن الحسن بن صالح، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «سمعت أباجعفر عليه السلام يحدث عطاء قال: كان طول سفينة نوح ألف ذراع ومأتي ذراع، وعرضها ثمانمأة ذراع، وطولها في السماء مأتي ذراع، وطافت بالبيت، وسعت بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم استوت على الجوديّ».[٤١]

ومحمد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن سعد بن عبدالله، عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحسن الطويل، عن عبدالله بن المغيرة، عن ذريح بن يزيد المحاربي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ الله عزوجل أغرق الأرض

كلها يوم نوح، إلا البيت فيومئذ سمي العتيق؛ لأنه أعتق يومئذ من الغرق، فقلت له: أصعد إلى السماء؟ فقال: لا، لم يصل إليه الماء، ورفع عنه».[٤٢]

بتقريب أنّ الرواية الأولى أطلقت الطواف بالبيت بطواف سفينة نوح عليه السلام التي كان طولها في السماء مأتي ذراع، وكانت السفينة على الماء الذي رفع عن البيت كما في الرواية الثانية، فيستكشف من الرواية الأولى بضميمة الرواية الثانية صدق الطواف بالبيت فوق جدار البيت، فالطواف في الطوابق، التى تكون فوق الكعبة صحيح، كما طاف نوح عليه السلام.[٤٣]

وقد يناقش فيه :

أولاً: بأنّ غاية ما يستفاد منهما صدق الطواف بالبيت في الطوابق الفوقانية، وأما صحته وإجزاؤه في الحج والعمرة، فلا دلالة فيهما عليها، بل لابد من التماس دليل آخر عليها.

وثانياً: بأنّ رواية الحسن بن صالح ضعيفة؛ لعدم وثاقته؛[٤٤] نعم الروايات الواردة في عدم وصول الماء إلى البيت، وأنه سمي عتيقاً لأجل ذلك مستفيضة؛[٤٥] فلا بأس بها.

الوجه الثاني: عدم صحة الطواف:

قد يقال: إنّ الطواف في الطوابق، التي تكون فوق الكعبة لا يصح، وذلك لوجهين:

١. عدم صدق الطواف:

يمكن أن يقال: إنّ الطواف عرفاً المشي حول البيت، وحيث كانت الطوابق فوق الكعبة، فلا يصدق على المشي فيها المشي حول البيت، بل هو مشي فوق البيت، فلا يصدق عليه الطواف؛ ولا أقلّ من الشك في ذلك، فلا يجزي، بل لابد من الاحتياط؛ لأنه شك في مقام الامتثال

ولابد من إحرازه.

والجواب عنه هو عدم الشك في صدق الطواف عليه عرفاً، ويؤيده بل يشهد عليه إطلاق الطواف على طواف سفينة نوح عليه السلام وإن كان سند الرواية ضعيفاً؛ لأنه يكشف عن إطلاقه عند الراوي الذي كان من أهل اللسان.

٢. عدم الدليل على صحته:

قد يقال: إنّ الطواف المذكور وإن كان طوافاً عند العرف، ولكن لا دليل على صحته وإجزائه، إذ يمكن أن يكون الطواف مقيداً بكونه حول الجدار لا فوقه، كما أنه مقيد بابتدائه من الحجر الأسود، وعدم كونه من حجر إسماعيل، وكونه بين المقام والبيت على قول، وحيث لا دليل على صحته، فلابد من الاحتياط في مقام الامتثال.

ويناقش فيه، بأنه وإن لم يكن دليل لفظي من الآيات والأخبار على صحته، إذ ليست الآيات والأخبار في مقام البيان من تلك الجهة، ولكن الشك في اشتراط الطواف بكونه حول الجدار الموجود يكون مجرى البراءة، فالأصل عدم اشتراطه، كما في الأقل والأكثر، فيصحّ الطواف في الطوابق الفوقانية، وإن كان خلاف الاحتياط.

فرع: حكم الطواف في الطوابق الفوقانية فوق حجر إسماعيل:

بعد الفراغ عن صحة الطواف في الطوابق الفوقانية المتصلة بالكعبة، لابد من الكلام في أنه هل يصح الطواف فوق حجر إسماعيل في تلك الطوابق أم لا؟ فيه وجهان:

الوجه الأول: صحة الطواف

قد يقال: إنّ الطواف في الطوابق الفوقانية في جانب حجر إسماعيل، يصحّ مطلقاً ولو كان فوق الحجر؛

لأنه إنما منع الطواف في الحجر، ولا يصدق على المشي في سقف الحجر الطواف في الحجر بل الطواف فوق الحجر، ولا دليل على بطلانه، والأصل يقتضي صحته.

الوجه الثاني: بطلان الطواف

يمكن أن يقال: إنه وإن لا يصدق عليه الطواف في الحجر، إلا أنّ حكمة منع الطواف فيه جارية في الطواف في سقفه أيضاً، وهي حرمة قبر أمّ إسماعيل عليه السلام كما تقدم؛ حيث إنّ الطواف في الحجر يوجب وطأ قبرها مع أنّ القبر كان في باطن الأرض، فكذلك الطواف في السقف: فإنه طواف فوق القبر.

ويناقش فيه بأنّ الطواف في السقف لايكون وطأ القبر الذي كان في الحجر عرفاً، بخلاف الطواف في الحجر، فإنه وطأ القبر، وإن كان القبر في باطن الأرض وفي عمقها، فالحكمة غير جارية فيه.

نعم، إن شك في صدق الوطإ وهتك الحرمة، فالأصل يقتضي الاحتياط؛ للشك في الامتثال، بخلاف الشك في اشتراط الطواف بعدم كونه فوق الحجر بعد إحراز عدم صدق الوطإ، فإنه مجرى البراءة من باب الأقلّ والأكثر.

٤. الطواف في الطوابق الفوقانية المنفصلة عن البيت:

الكلام في هذه الصورة هو الكلام في الصور المتقدمة، ولا زيادة فيها إلا من جهتين:

الأولى: خروج الطواف عن المطاف، لوكان الانفصال بحيث كانت الطوابق بعيدة عن مقام إبراهيم عليه السلام على القول باعتبار كون الطواف بين المقام والبيت.

الثانية: الشك في صدق الطواف عرفاً، إذا كان الانفصال بحيث كانت

الطوابق بعيدة عن الكعبة، فالأصل يقتضي الاحتياط.

ب: حكم الطواف في الطوابق التحتانية:

١. الطواف في الطوابق التحتانية المتصلة بقواعد البيت:

قد يقال: إنّ الطواف في تلك الطوابق صحيح، وذلك لوجوه:

الأول: صدق الطواف عليه عرفاً، فيدلّ على صحته الأدلة الواردة في أبواب الطواف.

وقد يناقش فيه:

أولاً: بعدم صدق الطواف بالبيت في الطوابق التحتانية سيّما الطوابق السفلى.

وثانياً: بأنّ أدلة الطواف ليست في مقام البيان من تلك الجهة، فلا يمكن الاستدلال بها على صحته.

الثاني: ما تقدم من مرسلة الصدوق عن الصادق عليه السلام أنه قال: «أساس البيت من الأرض السابعة السفلى إلى الأرض السابعة العليا»؛ فالطواف في تلك الطوابق يكون طوافاً بالبيت، فلا إشكال.

ويناقش فيه:

أولاً: بعدم اعتبار الرواية للإرسال.

وثانياً: بأنّ الطواف بالبيت غير الطواف بأساس البيت.

وثالثاً: بأنّ المراد من الرواية هو أنّ البيت من الأرض إلى السماء السابعة على ما قيل. وإن ناقشنا فيه كما تقدم.

الثالث: كون الشك في صحته من الشك في الأقلّ والأكثر، والأصل يقتضي صحته.

والجواب عنه: أنّ الشك في صدق الطواف عليه، لا في اعتبار أمر زائد على الطواف، من كونه في الطوابق الفوقانية، أو عدم كونه في الطوابق التحتانية، فالمرجع قاعدة الاشتغال لا البراءة.

نعم، لــو صدق الطــواف عليه عرفاً، فيمكن الحكم بصحته بمقتضى أصالة البراءة.

فــرع: حكــم الطواف تحــت حجر إسماعيل عليه السلام:

إن قلنا بصحة الطواف في الطوابق التحتانيــة المتصلة بقواعــد البيت، فلا إشــكال في عدم جريــان حكمة منــع الطواف في حجــر إسماعيل عليه السلام في الطــواف تحت الحجــر، إذ لا وطأ للقبر، بل يكون القبر فوق الطائف؛ وعلى هذا لو كان دليل ولو بالإطلاق على صحتــه فلا كلام؛ وإلا لابدّ من الرجوع إلى الأصل، والأصل يقتضي صحته؛ لأنه شك في اعتبار أمر زائد، والأصل عدمه كما في الأقلّ والأكثر.

٢. الطواف في الطوابق التحتانية المنفصلة عن قواعد البيت:

قد يقال: إنّ صحــة الطواف في هذه الصورة مشكلة من جهتين:

الأولى: مــن حيــث الخروج عن المطــاف؛ فيمــا كانــت الطوابــق التحتانيــة بعيدة عن محــاذاة المقام، على القول بكون الطواف بين المقام والكعبة.

الثانيــة: عــدم صــدق الطواف بالبيــت في هذه الصــورة، ولو قلنا بصدقــه في صــورة الاتصــال؛ لأنّ الطــواف في الطوابــق المنفصلــة يكون طوافاً بالمسجد لا بالبيت، ولا أقلّ من الشــك، فالمرجع هو قاعدة الاشتغال.

هذا كلّــه على القــول بصدق المســجد الحــرام علــى الطوابــق الفوقانية والتحتانية.

وأمّــا إن قلنــا بعــدم صــدق المســجدالحرام عليهــا، فهل يصحّ الطواف في تلك الطوابق، أو يشترط في صحة الطواف كونه في المســجد الحرام؟ فالكلام يقع في أمرين:

١. **صدق المسجد الحرام عليها.**
٢. **شرطية كون الطواف في المسجد الحرام.**

الأمر الأول في صدق المسجد الحرام على الطوابق الفوقانية والتحتانية:

قد يقال: إنّ المسجد الحرام مكان خاص جعله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مسجداً، فالمسجد الحرام اسم للمكان المشخص، وهو سطح الأرض المعين في مكّة المكرمة، وأما فضاء ذلك المكان أو باطنه فليس بمسجد، فبناء الأبنية فيهما بقصد المسجدية، وإن كان يوجب صيرورتها مسجداً، إلا أنّ اتصافه بوصف خاص، وهو كونه المسجد الحرام فلا يثبت.

ويؤيده عدم جريان أحكام المسجد الحرام على فضائه وباطنه؛ فتأمل.

وقد يناقش فيه بأنه ما الفرق بين توسعة المسجد الحرام في العرض والطول وبين توسعته عمقاً وارتفاعاً؟ فكما يصدق المسجد الحرام على المقدار الزائد في العرض والطول، فكذلك يطلق المسجدالحرام على المقدار الزائد عمقاً أو ارتفاعاً؟

ولكنه يجاب عنها بأنّ الفرق بينهما بالدليل؛ لأنّ الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام تدلّ على أنّ أصل المسجد الحرام أوسع من المسجد الحرام الموجود فعلاً؛ وإليك نصّ الروايات:

محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن جميل بن دراج قال: قال له الطيار وأنا حاضر: هذا الذي زيد هو من المسجد؟ فقال: نعم، إنهم لم يبلغوا بعد مسجد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.[٤٦]

ومحمد بن يعقوب، عن الحسين بن محمد، عن معلى بن محمد، عن الوشاء، عن حماد بن عثمان،

عن الحسين بن النعمان قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عما زادوا في المسجد الحرام فقال: «إنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حدّا المسجدالحرام ما بين الصفا والمروة».[٤٧]

ومحمد بن يعقوب، عن عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن فضالة بن أيوب، عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان خطّ إبراهيم بمكة ما بين الحزورة إلى المسعى، فذاك الذي كان خطّ إبراهيم عليه السلام يعني المسجد».

ورواه الشيخ بإسناده عن الحسين بن سعيد مثله.[٤٨]

ومحمد بن الحسن بإسناده عن محمد بن علي بن محبوب، عن العباس بن معروف، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن حمّاد بن عثمان، عن الحسين بن نعيم قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عما زادوا في المسجد الحرام عن الصلاة فيه، فقال: «إنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حدّا المسجد ما بين الصفا والمروة، فكان الناس يحجون من المسجد إلى الصفا».[٤٩]

فالمتحصل من تلك الروايات أنّ ما زيد في المسجد الحرام فهو من المسجد، إذ أصل المسجدالحرام الذي حدّه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كان أوسع من المسجد الحرام الفعلي.

نعم، يمكن أن يختص بعض الأحكام بالمسجدالحرام الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لا يجري فيما زيد فيه، وإن كان يطلق عليه المسجدالحرام، مثل كراهية النوم فيه:

محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد، عن حريز، عن زرارة بن أعين قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ما تقول في النوم في المساجد؟ فقال: لا بأس به

إلا في المسجدين: مسجد النبي صلى الله عليه وآله والمسجدالحرام؛ قال: وكان يأخذ بيدي في بعض الليل، فيتنحى ناحية ثم يجلس، فيتحدث في المسجدالحرام فربما نام هو ونمت، فقلت له في ذلك، فقال: إنما يكره أن ينام في المسجدالحرام الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فأمّا النوم في هذا الموضع فليس به بأس.[٥٠]

ولكنه مع ذلك كله يمكن أن يقرّب القول بكون الطوابق من المسجدالحرام لوجهين:

الأول: صدق المسجدالحرام عليها عرفاً، كما هو المشاهد من الزائرين لبيت الله الحرام، فإنه لايشك أحد منهم في كون الدور الثاني والثالث من المسجدالحرام، كما لا يشك في صدقه على الطابق التحتاني، إلا أن يقال: إنّ صدق المسجدالحرام في نظر العرف لا يكون ميزاناً في كونه من المسجدالحرام شرعاً بعد كون أصل تأسيسه من قبل إبراهيم عليه السلام.

الثاني: أنه لا ريب في صدق المسجدالحرام فيما حفر من أرض المسجدالحرام، بحيث صارت حفيرة عميقة مكشوفة، فكذلك يصدق عليها المسجدالحرام إذا صارت مسقفة؛ هذا في الطوابق التحتانية.

وكذلك لا ريب في صدق المسجدالحرام إذا ألقي في أرض المسجدالحرام التراب فصارت مرتفعة؛ ومثله الطابق الفوقاني، إذ المعلوم أنه لا خصوصية في السطح الخاص من أرض المسجدالحرام، فلا فرق بين السطح الموجود، والطوابق التحتانية والفوقانية.

ولكنه يناقش فيه بأنه فرق واضح بينهما، إذ الحفيرة المكشوفة أو الأرض المرتفعة هي بعينها المسجدالحرام عند العرف، بخلاف بناء الطوابق الأخر غير السطح الموجود فعلاً، فإنه غيرها، وإن أطلق

عليها المسجدالحرام عرفاً.

الأمر الثاني: اشتراط صحّة الطواف بكونه في المسجدالحرام

لا ريب في صدق الطواف بالبيت، وإن كان الطائف خارج المسجدالحرام، فليس الطواف متقوماً بكونه في المسجد؛ وإنما الكلام في صحته خارج المسجدالحرام.

قد يقال: إنّ الطواف خارج المسجد صحيح، وذلك من وجوه:

١. إطلاق الأخبار

وقد يقرّب صحة الطواف خارج المسجد، بإطلاق الروايات الآمرة بالطواف حيث لم يقيد الطواف بكونه في المسجدالحرام، فالطواف صحيح سواء كان في المسجدالحرام أو خارجه.

ولكنه يناقش فيه بأنّ الروايات الواردة لم تكن في مقام البيان من تلك الجهة، بل وردت في مقام التشريع.

والجواب عنها، بأنّ الروايات الواردة لم تكن على سياق واحد، بل بعضها في مقام بيان حكم الطواف وشرائطه، وحيث لم يذكر فيه تقيده بكونه في المسجد، فلا محالة يدل على صحته مطلقاً:

سعد بن عبدالله (في بصائر الدرجات) عن القاسم بن الربيع، ومحمد بن الحسين بن أبي الخطاب، ومحمد بن سنان جميعاً عن مياح المدائني، عن المفضل بن عمر، عن أبي عبدالله عليه السلام في كتابه إليه: «فإذا أردت المتعة في الحج، فأحرم من العقيق، واجعلها متعة، فمتى ما قدمت مكة، طفت بالبيت، واستلمت الحجر الأسود، فتحت به، وختمت سبعة أشواط، ثم تصلي ركعتين عند مقام إبراهيم، ثم اخرج من المسجد، فاسع بين الصفا والمروة،

تفتتح بالصفا، وتختتم بالمروة...».[٥١]

وقد يستشكل فيه:

أولاً: بـأنّ ذيل الحديث مانع عن انعقاد الإطلاق فيه، إذ قوله عليه السلام: «ثم اخرج من المسـجد...» يكشف عن فرض الطواف والصلاة في المسجد.

وثانياً: بـأنّ الرواية ضعيفة من حيث السند؛ لأجل عدم اعتبار طريق صاحب الوسائل إلى كتب المتقدمين، لعدم كونه طريقاً واقعياً إلى النسخ؛ وضعف مياح المدائني.[٥٢]

٢. الإطلاق المقامي

قد يقال: إنّ الأخبـار الواردة في أبواب الطواف، وإن لم تكن في مقام البيان بحيث يستكشف منها الإطلاق اللفظـي، ولكنه حيـث لم يذكر في رواية اشتراط صحة الطواف بكونه في المسـجدالحرام، فالإطلاق المقامي يـدلّ على عدم الاشـتراط، فيصحّ الطواف خارج المسجد.

ودعوى أنّ الإطـلاق المقامي لا ينعقد؛ لأنّ الطواف كان في المسجد، ولم يكن طواف خارج المسـجد، بل ولم يمكن الطواف فيه، فعدم ذكر هذا الشـرط لا يوجب نقض الغرض، فلا إطلاق؛ ممنوعة، لأنّ أحكام الحج والطواف لم تكـن مختصة بمن كان في زمن المعصومـين عليهم السلام بل كانت مجعولـة بنحـو القضيـة الحقيقية؛ فعلى هذا، لو كان الطواف مشروطاً بكونه في المسـجد فلابد من ذكره، وحيث لم يذكر فالإطلاق المقامي يدل على صحتـه في الزمان الذي يمكن الطواف خارج المسجد.

٣. الأصل

إذا شـك في اشـتراط صحـة الطواف بكونه في المسـجدالحرام، ولم يكـن دليل على هذا الشـرط نفياً أوإثباتـاً، فالأصل يقتضي عدم اعتباره؛ لأنه من باب الأقلّ والأكثر.

الهوامش:

١ . الوسائل٩ :٤١٢ ، الباب١٧ من أبواب الطواف، ح١.
٢ . الكافي٤ : ١٩٧ـ ١٩٥، كتاب الحج، باب علّة الحرم، وكيف صار هذا المقدار، ح٢.
٣ . علل الشرائع:٤٣٠ ،٤٣١ باب العلة التى من أجلها صار الحرم مقدار ما هو ، ح ٣.
٤ . راجع الفقيه٢ : ٢٣٥، نكت في حج الأنبياء و المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، ح٢٢٨٦.
٥ . الكافي٤ :٢٠٦، باب حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت... ح ٦.
٦ . الكافي٤ :٢٠٧، باب حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت...ح ٧.
٧ . الكافي٤ :٢١٧، باب ورود تبع وأصحاب الفيل البيت...ح ٣.
٨ . الكافي٤ :٢١٨، باب ورود تبع وأصحاب الفيل البيت...ح ٥.
٩ . الكافي٤ :٢٠٧، باب حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت.....ح ٧.
١٠ . الكافي٤ :٢٢٢، باب ورود تبّع وأصحاب الفيل البيت...ح ٨.
١١ . الكافي٤ :٢٠٧، باب حج إبراهيم و إسماعيل وبنائهما البيت ح ٧ .
١٢ . الكافي٤ :٢٠٧، باب حج إبراهيم و إسماعيل وبنائهما البيت ح ٨.
١٣ . الكافي٤ :٢١٧، باب ورود تبّع وأصحاب الفيل البيت...ح٤.
١٤ . الكافي٤ :٢٠٢ و ٢٠٣، باب حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت...ح ٣.
١٥ . الوسائل٩ :٥١٢، الباب ١ من أبواب السعي ح ١٠.
١٦ . راجع رواية سعيد بن جناح عن عدة من أصحابنا.
١٧ . راجع رواية داود بن سرحان.
١٨ . راجع رواية أبان بن تغلب.
١٩ . راجع رواية عبدالله بن سنان.
٢٠ . وجه التأمل هو أنّ كون الكعبة ممتدة إلى السماء لايدل على جواز رفع الجدار الموجود بل لعله أمر توقيفي لابد من الاقتصار عليه؛ مع أنّ دلالتها على امتداد الكعبة إلى السماء غير تامة ،كما يأتي.
٢١ . في العلل: زيادة «إلى غيرها».
٢٢ . الكافي٤ :٢٣٠، باب كراهية المقام بمكة ح١.
٢٣ . الفقيه٢ :١٦٥، باب في ابتداء الكعبة.....ح ٤٥.
٢٤ . علل الشرايع٢ : ٤٤٥، باب علة كراهة المقام بمكة، ح ٤.
٢٥ . التهذيب٥ : باب الزيادات في فقه الحج، ح ٢٠٩.
٢٦ . التهذيب٥ : باب الزيادات في فقه الحج ،ح ٢٦٢.
٢٧ . التهذيب٥ : باب الزيادات في فقه الحج ، ح ١٠٥.

٢٨ . يمكن استفادة ظهور كلمة «لاينبغي» في الحرمة في زمان الائمة عليهم السلام من بعض الروايات، بحيث كان ظهورها في الحرمة مفروغاً عنه بين الأصحاب والإمام عليه السلام: منها ما رواه محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد، عن ابن فضال، عن أحمد بن عمر، عن درست الواسطي، عن علي بن رئاب، عن زرارة بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لا ينبغى نكاح أهل الكتاب ، قلت: جعلت فداك و أين تحريمه؟ قال: قوله :﴿**ولا تمسكوا بعصم الكوافر**﴾ ». الكافي٥: ٣٥٨، باب نكاح الذمية،ح٧.

٢٩ . الكافي٤ :٢١٠، باب حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت... ح ١٥؛ والوسائل٩ :٤٢٩، الباب ٣٠ من أبواب الطواف ح١.

٣٠ . الكافي٤ :٢١٠، باب حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت... ح ١٣؛ والوسائل٩ :٤٢٩، الباب ٣ من أبواب الطواف ح٢.

٣١ . راجع الوسائل٩ :٤٣١، الباب ٣٠ من أبواب الطواف، ح١٠.

٣٢ . راجع الوسائل٣ :٢٤٧، الباب ١٨ من أبواب القبلة ،ح ١.

٣٣ . راجع التهذيب١٠ :٧٦، المشيخة: وما ذكرته عن علي بن الحسن الطاطري، فقد أخبرني به أحمد بن عبدون ،عن علي بن محمد بن الزبير ،عن أبي مالك أحمد بن عمرو بن كيسبة ،عن علي بن الحسن الطاطري؛ و راجع الفهرست ص٢٧٢: (أخبرنا بروایاته كلها أحمد بن عبدون ،عن أبي الحسن علي بن محمد بن الزبير القرشي، عن علي بن الحسن بن فضال و أبي المالك أحمد بن عمر بن كيسبة النهدي جميعاً عن علي بن الحسن الطاطري).

٣٤ . علل الشرايع٢ :٣٩٩، باب العلة التي من أجلها سمي البيت العتيق، ح ٥.

٣٥ . الوسائل٤ :٣٣٩، الباب ١٨ من أبواب القبلة، ح ٣؛ والفقيه٢ :٢٤٢.

٣٦ . المستند في شرح العروة ،كتاب الصلاة:٤١٩، فصل في القبلة.

٣٧ . الوسائل١٤ :٢٥٠، الباب ١٧ من أبواب النكاح المحرم، ح ٥.

٣٨ . في العلل: (أبي المغرا).

٣٩ . الكافي٥ :٥٤٩، باب من أمكن من نفسه ،ح ٢.

٤٠ . علل الشرايع٢ :٥٥٢، باب علة تحريم اللواط والسحق، ح ٧.

٤١ . الوسائل٩ :٣٨٦، الباب ١ من أبواب الطواف، ح ٥.

٤٢ . علل الشرائع٢ :٣٩٩، باب العلة التي من أجلها سمي البيت العتيق، ح ٥.

٤٣ . ومنه يظهر صحة السعي في الطوابق الفوقانية للمسعى، حيث قال: «وسعت بين الصفاء والمروة سبعة أشواط».

٤٤ . يمكــن أن يقال: إنّ الصــدوق رواها في الفقيه مرسلة، ومرســلات الفقيه حجة، فالرواية تكون معتــبرة؛ إلا أن المبنى غير صحيح على ما هو المقرر في محله.
٤٥ . علــل الشــرائع٢ : ٣٩٨،٣٩٩، باب العلة التي من أجلها سمي البيت العتيق ح ١، ٤؛ وتفسير القمي١ : ٣٢٧، و٢ :٨٣.
٤٦ . الوسائل٣ : الباب ٥٥ من أبواب أحكام المساجد، ح١.
٤٧ . الوسائل٣ : الباب ٥٥ من أبواب أحكام المساجد، ح٢.
٤٨ . الوسائل٣ : الباب ٥٥ من أبواب أحكام المساجد، ح٣.
٤٩ . الوسائل٣ : الباب ٥٥ من أبواب أحكام المساجد، ح ٤
٥٠ . الوسائل٣ : الباب ١٨ من أبواب أحكام المساجد، ح ٢
٥١ . الوســائل٨ : الباب ٢ من أبواب أقسام الحج، ح٣.
٥٢ . رجال النجاشي:٤٢٤.

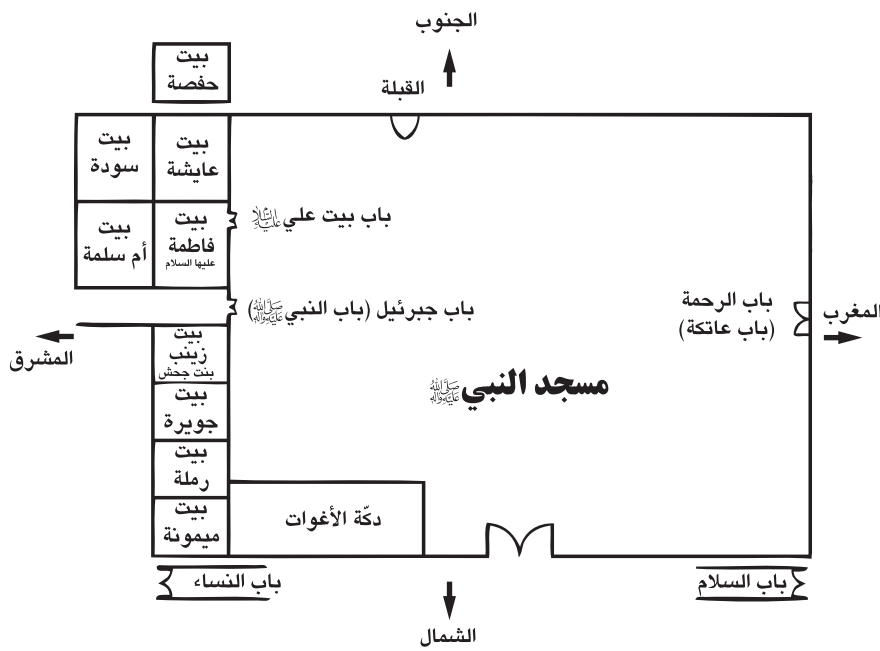

الحجرات

محسن الأسدي

لقد سميت السورة التاسعة والأربعون في القرآن الكريم وهي مدنية، ذات الثماني عشرة آية بالحجرات؛ لأنه تعالى ذكر فيها البيت النبوي المبارك والمكوّن من حجرات.

وهذه السورة على وجازتها تعدُّ بحق سورة جليلة؛ لما جاءت به من منظومة أخلاقية فاضلة، وتربوية خالدة، ومفاهيم رائعة؛ وحتى أنّ بعضاً سمّاها بسورة الأخلاق والآداب، فنهت إضافةً إلى ما سنتعرض إليه في هذه المقالة عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب، والظنّ، والتجسس، والغيبة... حيث إنها راحت تنتقل من أدب إلى أدب، ومن مفهوم إلى آخر.

يقول سيد قطب عن هذه السورة: سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود والإنسانية. حقائق تفتح للقلب وللعقل آفاقاً عالية وآماداً بعيدة؛ وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة؛ وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم، وقواعد التربية والتهذيب، ومبادئ التشريع والتوجيه، ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات!... إنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة، لعالم رفيع كريم نظيف سليم؛ متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم؛ والتي تكفل قيامه أولاً، وصيانته أخيراً... هو عالم له أدب مع الله، ومع رسول الله. يتمثل هذا الأدب في إدراك حدود العبد أمام الرب، والرسول الذي يبلغ عن الرب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فلايسبق العبد المؤمن إلهه في أمر أو نهي، ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم؛ ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه؛ ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأياً مع خالقه... تقوى منه وخشية، وحياء منه وأدباً... وله أدب خاص فيه خطاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوقيره...[١]

فكم كانت الساحة المسلمة يومذاك بحاجة إلى مواصلة ومتابعة من السماء زيادةً في بنائها، بناءً أخلاقياً متيناً، تتولد منه ثمرات جليلة على جميع الأصعدة الفردية والاجتماعية والثقافية والسياسية... فجاء هذا المقطع القرآني (٢ـ٥) من سورة الحجرات:

﴿يا أيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللّهِ وَرَسُولِهِ وَٱتَّقُواْ ٱللّهَ إِنَّ ٱللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ * ﴿يَا أيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أن تَحْبَطَ أعْمَالُكُمْ وَأنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ * ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللّهِ أولَـئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأجْرٌ عَظِيمٌ﴾ * ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَاتِ أكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ * ﴿وَلَوْ أنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَٱللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

بمنظومة تأديبية، يعلِّم المسلمين كيفية العلاقة مع الله تعالى ورسوله ﷺ فلا يسبقون الله تعالى ورسوله ﷺ بشيء سواءً أكان هذا أمراً أو نهياً أو حكماً أو أدباً؟ وليس لهم إلا الطاعة والامتثال، وإلا جعلوا من أنفسهم ندًّا له تعالى، وندًّا لرسول الله ﷺ وأنّى لهم ذلك؟! حين يجعلون لأنفسهم رأياً مقابل رأيه، وفعلاً إزاء فعله، وقولاً مقابل قوله. ويبيّن أدب الخطاب معه تعالى، وأن يكون بالتعظيم والتبجيل حتى عطفت ذلك على الإيمان به وبرسوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ...﴾[٢] ومع رسوله ﷺ والذي يجب أن يتصف أيضاً بالتعظيم والتوقير: ﴿... فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ...﴾.[٣] وأن يكون بعيداً عمّا يؤذي النبي ﷺ وقد منعت آيات عديدة أن يؤذوه أو يكونوا سبباً في أذيته ﷺ، منها الآية ٥٣ من سورة الأحزاب: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبيّ إلا أن يؤذن لكم... إنّ ذلك كان يؤذي النبيَّ فيستحي

منكم ... وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ...﴾.

إنّ ذلك المقطع يرسم لهم ولنا ولجميع المسلمين حدوداً لا يصح تجاوزها، وبالتالي فهو أدب كريم، يتمثل في إدراك حدود العبد أمام خالقه وأمام رسوله صلى الله عليه وآله الذي يُبلّغ عن الله سبحانه وتعالى.

فهو يتحدث عن ثلاث حالات واقعة في الساحة المؤمنة يومذاك، عبر نهيه المؤمنين عنها، وهي كما سمّاها ونصّ عليها القرآن الكريم:

* التقدم بين يدي الله ورسوله :

﴿يا أيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي لا تبدوا رأياً، أو تبرموا أمراً، أو تجزموا به بغير إذنٍ، وقبل أن يحكم الله ورسوله به؛ وألاّ يتسارعوا في الأشياء بين يديه، أي قبله، بل أن يكونوا تبعاً له في جميع الأمور.

* رفع الأصوات والجهر بها، وأن يستبدلوا كل هذا بأن يخفضوا أصواتهم وأن يخافتوا بها أدباً مع رسول الله صلى الله عليه وآله.

﴿يا أيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

* المناداة من وراء ﴿... إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

فقد جاء هذا الأمر أو الأدب الثالث؛ ليبين أدباً خاصاً يحمل توقيراً

لرسول اللهﷺ حين مخاطبتهﷺ نقف عنده تفصيلاً لمناسبته المجلة، فيما نكتفي عن الأدبين الأول والثاني في هذا المقطع بما تضمنته أسباب النزول، فقد ذكروا أسباباً عديدة في نزول الآيات ١ - ٥ :

سبب النزول:

في التقدم ورفع الأصوات:

عن ابن أبي مليكة أن عبدالله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول اللهﷺ، فقال أبو بكر: أمر، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبوبكر: ما أردت إلا خلافي، وقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿**يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تُقَدِّموا بَينَ يَدى اللّهِ وَرَسولِهِ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَلَو أنَّهُم صَبَروا حَتّى تَخرُجَ إلَيهِم**﴾ رواه البخاري عن الحسن بن محمد الصباح.

وفي رفع الأصوات، ذكر الشيخ الطبرسي في مجمع البيان: نزل قوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم**﴾ إلى قوله: ﴿**غفور رحيم**﴾ في وفد تميم وهم عطارد بن حاجب بن زرارة في أشراف من بني تميم منهم الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم في وفد عظيم، فلما دخلوا المسجد نادوا رسول اللهﷺ من وراء الحجرات أن أخرج إلينا يا محمد؛ فآذى ذلك رسول اللهﷺ فخرج إليهم فقالوا: جئناك لنفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا فقال: «قد أذنت» فقام عطارد بن حاجب وقال: الحمد لله الذي جعلنا ملوكاً الذي له الفضل علينا والذي وهب علينا أموالاً عظاماً نفعل بها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثر

عــدداً وعدة، فمن مثلنا في الناس، فمــن فاخرنا فليعدّ مثل ما عددنا، ولو شئنا لأكثرنا من الكلام، ولكنا نستحي من الإكثار، ثم جلس.

فقال رســول اللهﷺ لثابت بن قيس بن شمــاس: «قم فأجبه» فقام فقال: الحمد لله الذي الســموات والأرض خلقه قضى فيهن أمره ووسع كرسيه علمــه، ولم يكن شــيء قط إلا مــن فضله، ثم كان من فضلــه أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رســولاً أكرمهم نســباً وأصدقهم حديثاً وأفضلهم حســباً، فأنزل الله عليه كتاباً، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله على العالمــين، ثم دعا الناس إلى الإيمان بالله، فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه أكرم الناس أحســاباً وأحسنهم وجوهاً، فكان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول اللهﷺ نحن فنحن أنصار رسول اللهﷺ وردؤه نقاتــل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورســوله، منع ماله ودمه، ومن نكث جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً. أقول هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم.

ثم قام الزبرقان بن بدر ينشــد وأجابه حسان بن ثابت، فلما فرغ حسان من قوله، قال الأقرع: إنّ هذا الرجل خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، فلما فرغوا أجازهم رسول اللهﷺ فأحســن جوائزهم وأسلموا؛ عن ابن إســحاق. وقيل: إنهم أناس من بني العنــبر كان النبيﷺ أصاب من ذراريهــم، فأقبلوا في فدائهم فقدموا المدينة ودخلوا المســجد، وعجلوا أن يخرج إليهم النبيﷺ فجعلوا يقولون: يا محمد أخرج إلينا! عن أبي حمزة الثمالي عن عكرمة عن ابن عباس.

و ورد أيضــاً في قوله عزوجل: ﴿**يا أيُّها الَّذيـنَ آمَنوا لا تَرفَعوا أصواتَكُم فَوقَ**

﴿صَوتِ النَبِيِّ﴾ الآية. نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وقر، وكان جهوري الصوت، وكان إذا كلم إنساناً جهر بصوته، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

حتى جاء عن ثابت عن أنس: لما نزلت هذه الآية: ﴿لا تَرفَعوا أصواتَكُم فَوقَ صَوتِ النَبِيِّ﴾ قال ثابت بن قيس: أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق صوت النبي وأنا من أهل النار، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: هو من أهل الجنة.

وقال ابن أبي مليكة: كاد الخيران أن يهلكا: أبوبكر وعمر رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس وأشار الآخر برجل آخر، فقال أبوبكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، وقال عمر: ما أردت خلافك وارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿لا تَرفَعوا أصواتَكُم﴾ الآية. وقال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ يَغُضّونَ أصواتَهُم عِندَ رَسولِ اللّهِ﴾ الآية. قال عطاء عن ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿لا تَرفَعوا أَصواتَكُم﴾ تألى أبوبكر أن لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخي السرار، فأنزل الله تعالى في أبي بكر: ﴿إِنَّ الَّذينَ يَغُضّونَ أصواتَهُم عِندَ رَسولِ اللّهِ﴾.

عن أبي بكر قال: لما نزلت على النبي ﷺ ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ قال أبوبكر: فآليت على نفسي أن لا أكلم رسول الله ﷺ إلا كأخي السرار.

وفي المناداة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادونَكَ مِن وَراءِ الحُجُراتِ أَكثَرُهُم لا يَعقِلونَ﴾.

أبو مسلم البجلي قال: سمعت زيد بن أرقم يقول: أتى ناس النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو في الحجرة يا محمد يا محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادونَكَ مِن وَراءِ الحُجُراتِ أَكثَرُهُم لا يَعقِلونَ﴾.

وقال محمد بن إسحاق وغيره: نزلت في جفاة بني تميم، قدم وفد منهم على النبي صلى الله عليه وسلم فدخلوا المسجد، فنادوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء حجرته أن أخرج إلينا يا محمد، فإن مدحنا زين وإن ذمنا شين، فآذى ذلك من صياحهم النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم، فقالوا: إنا جئناك يا محمد نفاخرك، ونزل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادونَكَ مِن وَراءِ الحُجُراتِ أَكثَرُهُم لا يَعقِلونَ﴾ وكان فيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والزبرقان بن بدر وقيس...

إنها المفاخرة!

وجاءت قصة هذه المفاخرة، التي كانت سبباً في نزول ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادونَكَ مِن وَراءِ الحُجُراتِ أَكثَرُهُم لا يَعقِلونَ﴾ عن جابر بن عبدالله قال: جاء بنو تميم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فنادوا على الباب يا محمد اخرج إلينا، فإن مدحنا زين وإن ذمنا شين، فسمعهم النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج عليهم وهو يقول: إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين، فقالوا: نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا، فقال الزبرقان بن بدر لشاب من شبانهم قم فاذكر فضلك وفضل قومك،

فقـــام فقال: الحمد لله الذي جعلنا خير خلقه، وآتانـــا أموالاً نفعل فيها ما نشاء، فنحن من خير أهل الأرض ومن أكثرهم عدة، ومالاً وسلاحاً، فمن أنكر علينا قولنا فليأت بقول هو أحســـن مـــن قولنا، وفعال هي خير من فعالنا، فقال رســـول الله صلى الله عليه وســـلم لثابت بن قيس بن شماس قم فأجب. فقام فقال: الحمد لله أحمده وأســـتعينه وأومن به، وأتوكل عليه. وأشـــهد أن لا إلـــه إلا الله وحده لا شـــريك له، وأشـــهد أن محمداً عبده ورســـوله، دعـــا المهاجرين والأنصار من بني عمه، أحســـن الناس وجوهاً وأعظمهم أحلاماً فأجابوا، فالحمد لله الذي جعلنا أنصاره ووزراء رســـوله وعزاً لدينه، فنحن نقاتل الناس حتى يشـــهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قالها منع منا نفســـه ومالـــه، ومن أباها قتلناه، وكان رغمه مـــن الله تعالى علينا هيناً، أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات، فقال الزبرقان بن بدر لشـــاب من شبانهم: قم يا فلان، فقل أبياتاً تذكر فيها فضلك وفضل قومك، فقام الشاب فقال:

نَحنُ الكِرامُ فَلا حَيٌّ يُفاخِرُنا

فينا الرُؤوسُ وَفينا يُقسِمُ الرَبعُ

وَنُطعِمُ الناسَ عِندَ القَحطِ كُلُّهُمُ

مِنَ السَديفِ إِذا لَم يُؤنَسِ القَزَعُ

إِذا أَبَينا فَلا يَأبى لَنا أَحَدٌ

إِنّا كَذَلِكَ عِندَ الفَخرِ نَرتَفِعُ

قال: فأرســـل رسول الله ﷺ إلى حســـان بن ثابت، فانطلق إليه الرسول فقال: وما يريد مني وقد كنت عنده؟

قال: جاءت بنو تميم بشاعرهم وخطيبهم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس فأجابهم وتكلم شاعرهم، فأرسل إليك تجيبه فجاء حسان فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبه فقال حسان:

نَصَرنا رَسولَ اللّهِ وَالدينُ عَفوَةٌ
عَلى الرَغمِ سارَ مِن مَعدٍ وَحاضِرِ
أَلسنا نَخوضُ المَوتَ في حَومَةِ الوَغى
إِذا طابَ وِردُ المَوتِ بَينَ العَساكِرِ
وَنَضرِبُ هامَ الدارِعينَ وَنَنتَمي
إِلى حَسَبٍ مِن جُرمِ غَسّانَ قاهِرِ
فَلَولا حَياءُ اللّهِ قُلنا تَكَرُّماً
عَلى الناسِ بِالحَقَّينِ هَل مِن مُنافِرِ
فَأَحياؤُنا مِن خَيرِ مَن وَطِئَ الحَصى
وَأَمواتُنا مِن خَيرِ أَهلِ المَقابِرِ

قال: فقام الأقرع بن حابس فقال: إني والله لقد جئت لأمر ما جاء له هؤلاء، وقد قلت شعراً فاسمعه، فقال: هات، فقال:

أَتَيناكَ كَيما يَعرِفُ الناسُ فَضلَنا
إِذا فاخَرونا عِندَ ذِكرِ المَكارِمِ
وَإِنّا رُؤوسُ الناسِ مِن كُلِّ مَعشَرٍ
وَأَن لَيسَ في أَرضِ الحِجازِ كَوارِمِ
وَ إِنَّ لَنا المِرباعَ في كُلِّ غارَةٍ
تَكونُ بِنَجدٍ أَو بِأَرضِ التَهائِمِ

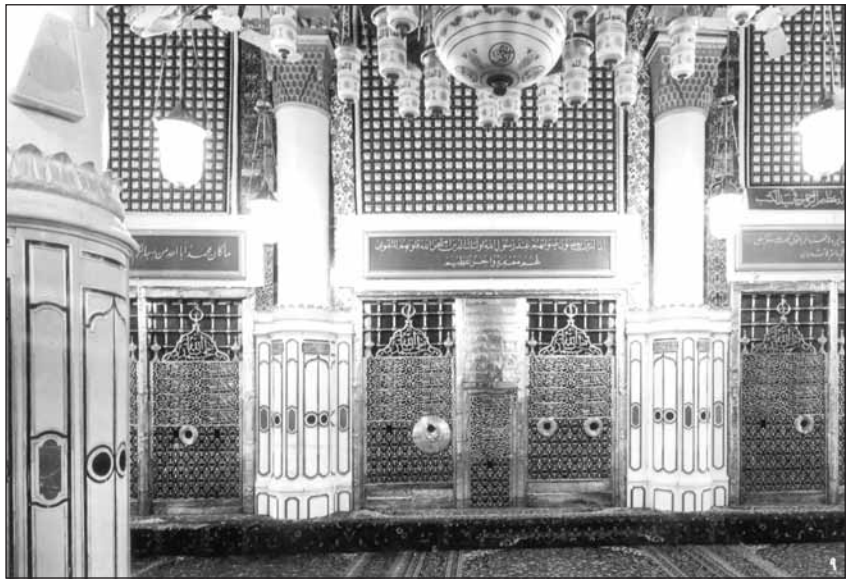

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم يا حسان فأجب، فقال:

بَني دارمٍ لا تَفخَروا إنَّ فَخرَكُم
يَعودُ وَبالاً عِندَ ذِكرِ المَكارِمِ
هَبَلتُم عَلَينا تَفخَرونَ وَأنتُمُ
لَنا خَولٌ مِن بَينِ ظِئرٍ وَخادِمِ
وَأَفضَلُ ما نِلتُم مِن المَجدِ وَالعُلى
رَدافَتَنا مِن بَعدِ ذِكرِ الأَكارِمِ
فَإِن كُنتُم جِئتُم لِحَقنِ دِمائِكُم
وَأَموالِكُم أَن تُقسموا في المَقاسِمِ
فَلا تَجعَلوا لِلّهِ نَداً وَأَسلِموا
وَلا تَفخَروا عِندَ النَبِيِّ بِدارِمِ
وَإِلا وَرَبُ البَيتِ مَالَت أَكُفَنا
عَلى هامِكُم بِالمُرهَفاتِ الصَوارِمِ

قال: فقام الأقــرع بن حابس فقال: إنّ محمداً المولى إنه والله ما أدري ما هذا الأمر، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر؟!

ثم دنا من النبي صلى الله عليه وســلم فقال: أشــهد أن لا إله إلا الله وأنك رســول الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما نصرك ما كان قبل هذا، ثم أعطاهم رســول الله صلى الله عليه وســلم وكســاهم وارتفعت الأصوات وكثر اللغط عند رســول الله صلى الله عليه وســلم، فأنزل الله هذه الآية:

﴿لا تَرفَعوا أصواتَكُم فَوقَ صَوتِ النَبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأجرٌ عَظيمٌ﴾.[٤]

والحجرات لغةً:

الحَجَرُ: الصَّخْرةُ، أو كُسارة الصخور، أو الصخور الصلبة المكونة من تجمع الكسارة والفتات وتصلُّبهما، جمعها أحجار وحجارة.

حجر الشيءَ على نفسه: خصّها به. حجره، وسميت هكذا لأنها تحجر أو تمنع النفس والمال عن الغير. وحجّر الشيءَ: ضيَّقه. وفي الحديث: «حجَّرت واســعاً». وحجر: منع، ومنه حجر عليه: منعه شرعاً من التصرف لصغر أو ســفه أو جنون، وهو الحَجر في الشرع، وحجر عليه الأمر: منعه منه، ومنه حَجَّرَ الأرض وعليها وحولها: وضع على حدودها أعلاماً بالحِجَارة ونحوها لحيازتها، أو احتجَرَ الأرضَ وعليها وحولها: حجَرها. واحتجر الشيءَ على نفسه: حجره عليها.

واحتجر حُجرَةً: اتخذها. ومنه الحجار: حائط الحجرة. ومنه الحُجرة: الغرفة

في أسفل البيت، والحُجْرَةُ: الرقعة من الأرض المحجورة، أي الممنوعة بحائط يحوط عليها، وحُجْــرَةُ الدار.. جمعها حُجَرٌ وحُجْراتٌ وحُجُراتٌ وحُجَراتٌ لغــات كلها. فالحجرات: جمع حجرة، من الفعل حَجَرَ، والثلاث: حُجَر، ثم تجمع الحجر فيقــال: حَجُرات وحُجْرات، وقد تجمع بعض العرب الحجر: حَجَــرات بفتح الجيم، وكذلــك كلّ جمع كان من ثلاثة إلى عشــرة على فُعَــلٍ يجمعونه على فعَلات بفتح ثانيه، والرفــع أفصح وأجود ومنه قول الشاعر:

أما كانَ عَبَّادٌ كفِئا لِدَارِم ... بَلى، وَلأبْياتٍ بها الحُجُرَاتُ

يقول: بلى ولبني هاشم.

والحُجُرات، بضمتين، ويجوز فتح الجيم: جمع حُجْرة بضم الحاء وسكون الجيم وهي البقعة المحجورة، أي التي منعت من أن يستعملها غير حاجرها فهي فُعلة بمعنى مفعولة كغُرفــة، وقُبضة. وفي الحديث: «أيقظوا صواحب الحجر» يعني أزواجه، وكانت الحجرات تفتح إلى المسجد.[٥]

وفي القرآن الكريم:

لم تــرد هذه المفردة ﴿**الحجـرات**﴾ في التنزيل العزيــز إلا مرةً واحدة في السورة والآية محل كلامنا، ولكن ذكرت مشتقات الفعل حَجَرَ تسع عشرة مرةً، موزعةً بين معاني، نذكر منها ما يناسب المقالة:

* الحِجارة، وجاءت في آيات عديدة:

مرةً أنها حجارة من طين في آية واحدة:

﴿**لنُرسـل عليهم حِجارة من طيـن**﴾ الذاريات: ٣٣ التي تبيّن أن من الحجارة

نوعاً مكوّناً من الطين، الذي من بعض معانيه أنه «التراب المختلط بالماء، وقد يسمى بذلك وإن زالت عنه رطوبة الماء، ومن معانيه الوحل.. والطينة القطعة من الطين..».

وأخرى حجارة من سجيل، التي جاءت ثلاث مرات في آيات ثلاث: ﴿**ترميهم بحجارة من سجيل**﴾ الفيل:٤. والحجر:٧٤، وهود:٨٢ .

فهي مكونة من سجيل، «والسجيل لغةً: الطين المتحجّر» أو هو حجر وطين مختلط، وقيل: سجيل معرب (سنك جيل) عن الفارسية أي حجر مخلوط بالطين، أو هو الطين على قول.[٦]

ومن هذا يمكننا استفادة أنّ حجرات البيت النبوي المبارك لعلّها كانت مبنيّةً من قطع طين. لا من الصخر الذي هو من معاني الحجر كما ذكرنا في اللغة، والذي لا يخلو من شيء من الفخامة بعكس الطين الذي يدل على البساطة.

* الحجر والتحجير: أن يجعل حول المكان حجارة، يقال: حجرته حجراً، فهو محجور، وحجرته تحجيراً فهو محجر، وسمي ما أحيط به الحجارة حجراً وبه سمي حجر الكعبة وديار ثمود، قال تعالى: ﴿**كذب أصحاب الحجر المرسلين**﴾ الحجر:٨٠ ، وتصور من الحجر معنى المنع لما يحصل فيه، فقيل للعقل حجر، لكون الإنسان في منع منه مما تدعو إليه نفسه، وقال تعالى: ﴿**هل فى ذلك قسم لذى حجر**﴾ الفجر:٥ والحجر: الممنوع منه بتحريمه، قال تعالى: ﴿**وقالوا هذه أنعامٌ وحرثٌ حجرٌ**﴾ الأنعام: ١٣٨ أي محجورة محرمة ممنوعة.[٧]

القراءة :

الحجرات: جمع حجرة وهي فعلة، بمعنى مفعولة كالغرفة، وجمعها الحجرات،

وقد قرأت بضمتين، وقرأت الحجرات بضم الحاء وفتح الجيم، والحجرات بتسكينها. الحجرات بفتح الجيم والباقون بضمها، وقرئ بهن جميعاً.

وقال ابن الجوزي: فأمّا «الحجرات» فقرأ أُبيٌّ بن كعب، وعائشة، وأبوعبدالرحمن السلمي، ومجاهد وأبو العالية، وابن يعمر، [وأبوجعفر وشيبة]: بفتح الجيم؛ وأسكنها أبو رزين، وسعيد بن المسيب، وابن أبي عيلة؛ وضمها الباقون. قال الفراء: وجه الكلام أن تُضمَّ الحاء والجيم، وبعض العرب يقول: الحُجُرات والرُّكبات، وربما خفَّفوا فقالوا: «الحُجْرات»، والتخفيف في تميم، والتثقيل في أهل الحجاز. وقال ابن قتيبة. واحد الحُجُرات حُجرة، مثل ظُلْمة وظُلُمات.[٨]

والحجرات بلاغةً:

جاءت الكناية: في قوله: ﴿**من وراء الحجرات**﴾ كناية عن موضع خلوته ﷺ ومقيله مع بعض نسائه، وقد ازدادت الكناية بإيقاع الحجرات معرفة بالألف واللام دون الإضافة إليه، وفي ذلك من حسن الأدب ما لا يخفى.

الآلوسي: وفي ذكر ﴿**ٱلْحُجُرَاتِ**﴾ كناية عن خلوته عليه الصلاة والسلام بنسائه؛ لأنها معدة لها، ولم يقل: حجرات نسائك ولا حجراتك توقيراً له ﷺ وتحاشياً عما يوحشه عليه الصلاة والسلام.

وتعريف ﴿**الحجرات**﴾ باللام تعريف العهد، لأن قوله: ﴿**ينادونك**﴾ مؤذن بأنّ الحجرات حجراته؛ فلذلك لم تعرف بالإضافة. وهذا النداء وقع قبل نزول الآية فالتعبير بصيغة المضارع في {ينادونك} لاستحضار حالة ندائهم.[٩]

البيوت:

نعم، عبّر عن هذه الحجرات بمفردة أخرى وهي البيوت:

والبيت لغةً:

من الفعل باتَ يَبيتُ بيتاً وبياتاً ومبيتاً ومباتاً وبيتوتةً: أدركه الليلُ، نام أو لم ينم، ومنه بات فلان في مكان كذا: أقام به ليلاً؛ كل ما يبات فيه يسمى بيتاً حتى الغرف التي بالبيوت تسمى عند العرب بيتاً؛ لأنه يبات فيها، والبيت هو القصر والمسكن، والحُجرة، جمعه بيوت وأبيات وجمع الجمع بيوتات وأبابيت.

البيت في القرآن الكريم :

قال الراغب: أصل البيت: مأوى الإنسان بالليل؛ لأنه يقال: بات: أقام بالليل، كما يقال: ظل بالنهار، ثم قد يقال للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه، وجمعه أبيات وبيوت، لكن البيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشعر. قال عزوجل: ﴿**فتلك بيتوهم خاوية بما ظلموا**﴾.[١٠]، وقال تعالى: ﴿**واجعلوا بيوتكم قبلة**﴾.[١١] ﴿**لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم**﴾.[١٢] ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومدر وصوف ووبر، وبه شبه بيت الشعر، وعبر عن مكان الشيء بأنه بيته، وصار أهل البيت متعارفاً في آل النبي عليه الصلاة والسلام، ونبّه النبي ﷺ بقوله: «سلمان منا أهل البيت».

وبيت الله والبيت العتيق: مكة، قال الله عزوجل: ﴿**وليطوفوا بالبيت العتيق**﴾.[١٣] ﴿**إنّ أول بيت وضع للناس للذى ببكة**﴾.[١٤] ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت**﴾.[١٥] يعني: بيت الله.

وقولــه عزوجل: ﴿**وليـس البر بـأن تأتـوا البيوت مـن ظهورها ولكـن البر من اتقى**﴾.[١٦] إنما نزل في قوم كانوا يتحاشــون أن يســتقبلوا بيوتهم بعد إحرامهــم، فنبه تعالى أن ذلــك مناف للبر. ﴿**فى بيـوت أذن الله أن ترفع**﴾.[١٧] قيل: بيوت النبيﷺ ﴿**لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم**﴾.[١٨] وقيل: أشير بقوله: ﴿**فى بيوت**﴾ إلى أهل بيته وقومه.

وقولــه تعالى: ﴿**وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت**﴾.[١٩] يعني: مكة، و ﴿**قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة**﴾.[٢٠] أي: سهل فيها مقراً، ﴿**وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة**﴾.[٢١] يعني: المسجد الأقصى.

وقوله عزوجل: ﴿**فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين**﴾.[٢٢]

بيت:

فالبيت هو الحجرة، وهو أمر متفق عليه بينهم، وبالتالي فهذه الحجرات أو البيوت كما يعبر عنها التنزيل العزيز تشكل البيت النبوي المبارك.

وقد أضيفت مرةً إلى النبيﷺ كما في الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبىّ إلا أن يؤذن لكم**﴾.[٢٣]

وأخرى أضيفت إلى نسائهﷺ، كما في الآية: ﴿**وقرن فى بيوتكن... * واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً**﴾.[٢٤]

وعمّا تعنيه الإضافة:

أولاً: أنها للتملك:

كما جاء عن الآلوســي في تفســيره للآيتين المذكورتين، حيث يستدل

بها على ملكية نساء النبيﷺ للبيوت، فيقول: «وظاهر إضافة البيوت إلى ضمير النساء المطهرات أنها كانت ملكهن، وقد صرح بذلك الحافظ غلام محمد الأسلمي نور الله تعالى ضريحه في «التحفة الإثنى عشرية»، وذكر فيها أنّ عليه الصلاة والسلام بنى كل حجرة لمن سكن فيها من الأزواج، وكانت كل واحد منهن تتصرف بالحجرة الساكنة هي فيها تصرف المالك في ملكه بحضوره صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر الفقهاء أنّ من بنى بيتاً لزوجته وأقبضه إياها كان كمن وهب زوجته بيتاً وسلمه إليها، فيكون البيت ملكاً لها...».[٢٥]

وهذا القول كما يبدو تعارضه الآية الأخرى، التي جاءت متأخرة عن تلك الآيتين، وأضافت البيوت إلى النبي، ﴿**بيوت النبيّ**﴾.[٢٦] والتي يصرح الآلوسي بضرس قاطع: «وهي أحق بأن تكون للملك»، وغيره أيضاً كابن عاشور: وإضافة ﴿**بيوت النبيّ**﴾ على معنى لام الملك؛ لأن تلك البيوت ملك له ملكها بالعطية من الذين كانت ساحة المسجد ملكاً لهم من الأنصار...

فهذا يعني أنّ البيوت ملك للنبيﷺ لأنه بناها، أو اشترها من حارثة بن النعمان إن لم يهبها له كما يفهم مما جاء بهذا الخصوص؛ وهي في الوقت الذي تكون ملكاً للنبيﷺ بحكم الآية، كيف تكون ملكاً لزوجاته: «وظاهر إضافة البيوت إلى ضمير النساء المطهرات أنها كانت ملكهن» ؟ اللهم إلا أن يكونﷺ وزوجاته شركاء، فيصح إسناد الملك إلى كل منهما في آن واحد. أو أنه بعد أن ملكها وهبها لهن، وكلا الأمرين لم أجد دليلاً عليه.

وأيضاً الآية الأخرى التي أضافت البيوت إلى المطلقات رجعيّاً: ﴿**لا**

تخرجوهن من بيوتهن﴾.[٢٧] فكيف تطلب الآية: ﴿**لَا تُخْرِجُوهُنَّ**﴾ إن كنَّ يملكنها؟ ولم يقل أحدٌ بملكيتهنَّ، وإنما أضيفت لهن للسكنى كما يأتينا في قول الزمخشري، وفي أقوال غيره.[٢٨]

ثانياً: أنها للسكنى:

ابن عاشور: وإضافة البيوت إليهن؛ لأنهن ساكنات بها أسكَنهُنّ رسول الله ﷺ فكانت بيوت النبي ﷺ يميِّز بعضها عن بعض بالإضافة إلى ساكنة البيت، يقولون: حُجرة عائشة، وبيت حفصة، فهذه الإضافة كالإضافة إلى ضمير المطلقات في قوله تعالى: ﴿**لا تخرجوهن من بيوتهن**﴾.[٢٩] وذلك أنّ زوج الرجل هي ربة بيته، والعرب تدعو الزوجة البيت ولا يقتضي ذلك أنها ملك لهُنّ؛ لأن البيوت بناها النبي ﷺ تباعاً تبعاً لبناء المسجد، ولذلك لما تُوفِّيت الأزواج كلهن أدخلت ساحة بيوتهن إلى المسجد في التوسعة، التي وسعها الخليفة الوليد بن عبدالملك في إمارة عمر بن عبدالعزيز على المدينة ولم يُعطِ عوضاً لورثتهن.

وأيضاً في موضع آخر يصرح: وإضافتها إلى ضميرهن في قوله: ﴿**ما يتلى فى بيوتكن**﴾.[٣٠] على معنى لام الاختصاص، لا لام الملك.[٣١]

وزيادةً في الفائدة نكتفي بما قاله الزمخشري عن الآية الأولى من سورة الطلاق: ﴿**لَا تُخْرِجُوهُنَّ**﴾ حتى تنقضي عدتهنّ ﴿**مِن بُيُوتِهِنَّ**﴾ من مساكنهنّ التي يسكنها قبل العدة، وهي بيوت الأزواج؛ وأضيفت إليهنّ لاختصاصها بهنّ من حيث السكنى. فإن قلت: ما معنى الجمع بين إخراجهم أو خروجهن؟ قلت: معنى الإخراج: أن لا يخرجهن البعولة غضباً عليهن

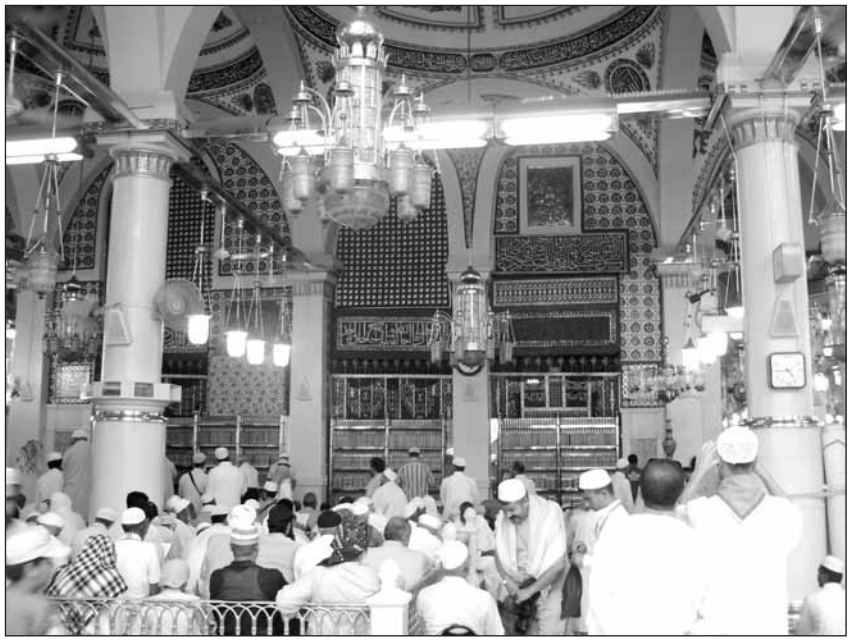

وكراهة لمساكنتهن، أو لحاجة لهم إلى المساكن، وأن لا يأذنوا لهنّ في الخروج إذا طلبن ذلك، إيذاناً بأنّ إذنهم لا أثر له في رفع الحظر، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ذلك.

فضيلتها !

وهذه الآية الأخيرة ٣٤ الأحزاب؛ تبيّن ما يجري في هذه البيوت أو الحجرات من معارف تتمثّل بآيات الله وتتمثّل بالحكمة، وهي بهذا قد حظيت بفضيلة كبيرة ومنقبة نبيلة؛ لأنها كانت مهبط وحي السماء وقرآنها، وغدت بحق مشرق النور، ومبعث الهدى والحق والإيمان والخير العميم، وكل ذلك كان ومازال وسيبقى رحمةً للناس كافة.

وقد ذكر الشاعر حسان بن ثابت هذه الحجرات مبيّناً فضيلتها، وما ينزل فيها وما حدث لها حين رحل الرسول صلى الله عليه وآله إلى بارئه تعالى في قصيدة

رثاء للنبيﷺ ضمّت ستة وأربعين بيتاً، كان منها هذه الأبيات:

بطيبة رسم للرسول ومعهدُ
منيرٌ وقد تعفو الرسوم وتَهمدُ
ولا تنمحي الآياتُ من دار حرمةٍ
بها منبرُ الهادي الذي كان يَصعدُ
وواضحُ آثارٍ وباقي معالمٍ
ورَبع له فيه مُصلى ومسجدُ
بها حجراتٌ كان ينزل وسطها
من الله نور يُستضاء ويُوقدُ
معارف لم تُطمَس على العهد آيُها
أتاها البِلى فالآي منها تَجَدَّدُ
عرفت بها رسمَ الرسول وعهده
وقبراً بها واراه في الترب مُلحِدُ
ظللت بها أبكي الرسولَ فأَسعدَت
عيونٌ ومثلاها من الجفن تُسعدُ
يُذكِّرن آلاءَ الرسول وما أرى
لها مُحصِياً نفسي فنفسي تبلَّدُ
مُفجَّعة قد شفَّها فقدُ أحمد
فظلت لآلاء الرسول تُعددُ
وما بلغت من كل أمر عشيرَه
ولكن لنفسي بَعدُ ما قد تَوَجِّدُ

أطالت وقوفاً تذرف العين جهدَها

على طـــلل القبر الذي فيه أحمـــدُ

فبوركْتَ يا قبرَ الرسول وبوركَتْ

بلادٌ ثوى فيها الرشيد المسددُ.[٣٢]

الشيء الملفت!

ولكن الشـــيء الملفت أن التعبير بالحجرات هو الذي تحدثت عنه الآية مرةً واحـــدة، والروايات كثيراً دون لفظة البيوت، كما نجد ذلك في مجاورتها للمسجد النبوي، ثم في تهديمها وإلحاقها سنة ٨٨ هجرية بالمسجد النبوي.

ويبـــدو أنّ ذلـــك ورد والله العالم إمـــا لبيان أنّ النـــداء وقع من وراء الحجرات، فإنَّ هذه الحجـــر كانت لها جدر تحجب مَن كانَ خارجاً منها أن يرى مَن في داخلها .ووقع نداؤهم من وراء هذه الجدر.

ابن عاشـــور: وإنما ذكـــر الحجرات دون البيـــوت؛ لأن البيت كان بيتاً واحداً مقسماً إلى حجرات تسع.

يقول الرازي: قوله: ﴿**الحجرات**﴾ إشارة إلى كون النبيﷺ في خلوته التي لا يحسن في الأدب إتيان المحتاج إليه في حاجته في ذلك الوقت، بل الأحسن التأخير وإن كان في ورطة الحاجة.[٣٣]

أو لأنهـــم بتهديمها هدّموا أحجـــاراً، وهي أحجار عاديـــة بنيت منها، ووجدوها مبعثرةً بعد التهديم، فتحدثت الروايات بإســـهاب عنها. وليس في هذه الغرف ما يهـــدم إلا هذه الحجيرات أو الأحجار؛ وقد يكون هناك سبب أو أكثر لذلك، لم أعثر عليه.

عدد الحُجُرات:

ويطلق اسم الحجرات على البيوت، التي كان يسكنها رسول الله ﷺ مع زوجاته أمهات المؤمنين، بعد هجرته إلى المدينة المنورة، وبعد أن أقام ﷺ في بيت أبي أيوب حتى بُني له مسجده ومساكنه؛ وفي خبر: «وكانت لحارثة بن النعمان منازل قرب مسجد رسول الله ﷺ وحوله، وكلما أحدث رسول الله ﷺ أهلاً، تحول له حارثة بن النعمان عن منزله، حتى صارت منازله كلها لرسول الله ﷺ».[٣٤]

ونقلت المصادر أنّ عددها كان تسعاً بعدد نسائه ﷺ، وقيل: إنّ هناك حجرة عاشرة لأمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث، فقد بنى الرسول ﷺ في بداية الأمر حجرتين لزوجته سودة وهي قبل عائشة، ولعائشة، وقد تكون حجرتها هي الرابعة من بيوت حارثة بن النعمان، بمعنى أنه لم يكن يبني بيوتاً أو حجراً، وهو ما قد يستفاد من رواية بيوت حارثة بن النعمان.

ابن عاشور: «وكانت الحجرات تِسعاً، وهي من جريد النخل، أي الحواجز التي بين كل واحدة والأخرى، وعلى أبوابها مُسوح من شعر أسود، وعَرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحو سبعة أذرع، ومساحة البيت الداخل، أي الذي في داخل الحجرة عشرة أذرع، أي فتصير مساحة الحجرة مع البيت سبعة عشر ذراعاً. قال الحسن البصري: كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي...».[٣٥]

وقد اتفق أصحاب السير أنّ عدد زوجاته اللاتي دخل بهن كان إحدى

عشرة امرأة وهن:

* أمُّ المؤمنين خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى، وهي أول من تزوج بها، وكان ذلك قبل البعثة النبوية المباركة، وعمره كان خمساً وعشرين سنةً، وهي أمُّ أبنائه، ولم يتزوج عليها غيرها مدة حياتها حتى توفاها الله تعالى، قبل الهجرة النبوية بثلاث سنوات، رضوان الله تعالى عليها.

* سودة و عائشة؛ وقد اختلف فيمن بدأ بنكاحها بعد أمِّ المؤمنين خديجة الكبرى، فقال بعضهم: كانت عائشة بنت أبي بكر، فيما قال بعضهم: بل كانت سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس؛ لأنّ عائشة كانت يوم تزوّجها صغيرةً لا تصلح للجماع، فيما سودة كانت امرأةً ثيّباً، بمعنى كانت متزوجةً قبل رسول الله ﷺ. لهذا لا خلاف بين جميع أهل العلم بسيرة رسول الله ﷺ أنّ رسول الله ﷺ بنى بسودة قبل عائشة. وزواجه بها كان في مكة.

* حفصة بنت عمر بن الخطاب، تزوّجها رسول الله ﷺ بعد أن كانت عند خنيس بن حذافة، وكان بدريّاً، شهد بدراً مع رسول الله ﷺ فلم تلد له شيئاً كما يذكر الطبري في تاريخه.

* وأما زينب بنت خزيمة فقد توفيت في حياته سنة أربع للهجرة، ولم يبق عنده حين وفاتها إلا عائشة وسودة وحفصة.

* أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة؛ وكانت قبل رسول الله ﷺ زوجةً لأبي سلمة الذي استشهد بعد إصابته بجراحة يوم أحد. تزوجها رسول الله ﷺ قبل الأحزاب سنة ثلاث.

* جويرية بنت الحارث؛ تزوّجهاﷺ سنة خمس هجرية، وكانت قبله عندمالك بن صفوان.

* أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب، كانت من مهاجرات الحبشة هي وزوجها، فتنصّر زوجها فأبت أن تتابعه، وبعد أن مات، تزوّجهاﷺ.

* زينب بنت جحش؛ تزوّجها رسول اللهﷺ بعد أن طلقها زيد بن حارثة في القصة المعروفة، التي تحدث عنها التنزيل العزيز في سورة الأحزاب: ٣٦ – ٣٨.

* صفية بنت حيي بن أخطب؛ كانت من سبيٍّ يوم خيبر، ألقى رداءه عليها، فكانت صفيَّه يوم خيبر، ثم عرض عليها الإسلام فأسلمت، فأعتقها، وذلك سنة ست.

* ميمونة بنت الحارث؛ تزوّجهاﷺ بسَرف في عمرة القضاء، وكانت قبله عند عمير بن عمرو.

فهذه إحدى عشرة امرأة، لا خلاف بين أصحاب السير والمؤرخين أنهن زوجات للنبيﷺ قد دخل بهن. وأكثر من اجتمع عنده من هؤلاء تسع نسوة، عدا السيدة أم المؤمنين خديجة التي لم يتزوج عليها أحداً من النساء في حياتها.

وقد توفي صلوات الله وسلامه عليه وعنده هؤلاء النسوة التسع. وأنّ كل واحدة منهن كانت تسكن في حجرة مستقلة، وكانت حجرهن لاصقات بالمسجد النبوي الشريف، ولم يكن لواحدة منهن بيت مستقل. وكانت بيوتهن هذه محيطة بالمسجد النبوي، وكانت مطلّة عليه من جهات ثلاث هي: الجنوب والشرق والشمال.[٣٦]

حجرة سيدة النساء عليها السلام:

وبعد أن بنى المسجد، و بنى على زاويته الشرقية الجنوبية بيته، بنى فيما يلي المسجد وإلى جهة الشمال حجرة أو بيتاً لابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، عندما تزوجت من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، في نهاية عام اثنين للهجرة، وعن عيسى بن عبدالله عن أبيه أنّ بيت فاطمة رضي الله عنها في الزور الذي في القبر بينه وبين بيت النبيّ صلى الله عليه وآله خوخة، وسمّاها غالي الشنقيطي بخوخة علي عليه السلام، والخوخة كما في القاموس: «مخترق ما بين كل

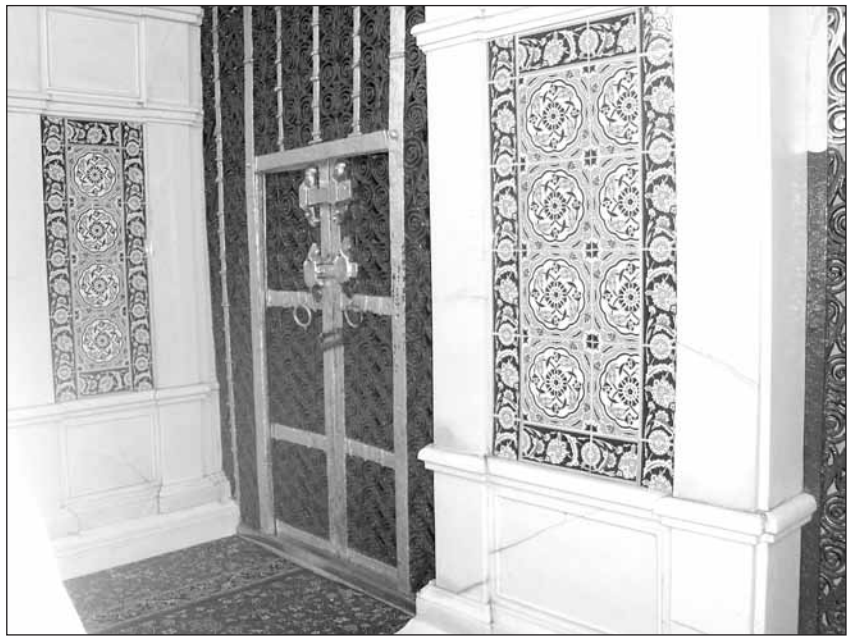

دارين». والمراد هنا هو الفاصلة بين البيتين كالمَمرّ، فكان باب دارها منه. وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يأتي خلف بيت فاطمة عليها السلام ويتهجد عند هذه الأسطوانة.[٣٧]

كما كان لبيتها باب إلى الجنوب في الخوخة التي بين بيت الرسول صلى الله عليه وآله

وبيتها، وكانت فاطمة تستر الباب في بعض الأحيان بساتر. وهذا الباب الذي كان يقع على الخوخة أي من جهة الجنوب، يأتيه الرسول صلى الله عليه وآله عند صلاة الصبح ويأخذ بعُضادتَي الباب ويقول: السلام عليكم يا أهل البيت، أو يقول: الصلاة الصلاة الصلاة، ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾.[٣٨]

هذا وقد لا يكون لبيت الزهراء عليها السلام إلا باب واحد على جهة الغرب ينفتح على المسجد، وأنّ مرور كل من الإمام علي والزهراء وأولادهما كان من المسجد، بمعنى أنه لم يكن لهما طريق إلى الخارج إلا عبر المسجد، كما يظهر من متون حديث (سَدّ الأبواب):

عن ابن عباس: «سدّوا أبواب المسجد كلها إلاّ باب عليّ».

وعنه أيضاً: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بالأبواب فسدت كلها إلا باب علي».[٣٩]

عن زيد بن أرقم: «كان لنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أبواب شارعة في المسجد، قال: فقال يوماً: «سُدّوا هذه الأبواب إلا باب عليّ...».[٤٠]

عن ابن عمر: ...ولقد أوتي ابن أبي طالب ثلاث خصال، لئن تكن لي واحدة منها أحب إلي من حمر النعم: ... وسدت الأبواب إلا بابه في المسجد.[٤١]

عن زيد بن أرقم: «سدوا هذه الأبواب إلا باب علي...».[٤٢]

إذن إما أن يكون لها سلام الله عليها البيت المذكور، أو أنها سكنت حين زواجها في بيت اختاره الإمام علي عليه السلام بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم أخذ لهما النبي صلى الله عليه وآله بيتاً قرب بيته، فقد روى ابن سعد بسنده عن أبي جعفر أنه قال: «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة وتزوج علي فاطمة، وأراد أن يبني بها قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: أطلب منزلاً، فطلب علي منزلاً فأصابه مستأخراً عن النبي قليلاً فبنى بها فيه، فجاء النبي صلى الله عليه وآله إليها قال: إني أريد أن أحوِّلك إليَّ.

فقالت لرسول الله: فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عني تريد أن يتحول لي عن منزله، فقال رسول الله: قد تحول حارثة عنا حتى قد استحييت!

فبلغ حارثة فتحول وجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تُحول فاطمة إليك، وهذه منازلي وهي أسقب (أنسب) بيوت بني النجار بك، وإنما أنا ومالي لله ولرسوله! والله يا رسول الله للذي تأخذ مني أحب إلي من الذي تدع! فقال رسول الله: صدقت بارك الله عليك فحولها إلى بيت حارثة».[٤٣]

وربما يستفاد مما ذكره السيد القزويني: «ولا يُعلم بالضبط مدة إقامة الإمام والسيدة فاطمة عليهما السلام في دار حارثة بن النعمان، إلا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بنى لها بيتاً ملاصقاً لمسجده، كبقية الحُجرات، التي بناها

لزوجاته، وانتقلت السيدة فاطمة إلى ذلك البيت الجديد الملاصق لبيت الله، المجاور لبيت رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ عليّاً عرّس بفاطمة عليها السلام في بيت حارثة بن النعمان.[٤٤]

ومما جاء عن موقع حجرتها:

عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن معاوية بن وهب قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: هل قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مابين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة؟ فقال: نعم، وقال: بيت علي وفاطمة عليهما السلام مابين البيت الذي فيه النبي صلى الله عليه وآله إلى الباب الذي يحاذي الزقاق إلى البقيع قال: فلو دخلت من ذلك الباب والحائط مكانه أصاب منكبك الأيسر، ثم سمى سائر البيوت وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الصلاة في مسجدي تعدل ألف صلاة في غيره إلا المسجد الحرام فهو أفضل».

الحسين بن محمد، عن معلى بن محمد، عن الحسن بن علي الوشاء، وعدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن أحمد بن محمد جميعاً، عن حماد بن عثمان، عن القاسم بن سالم قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إذا دخلت من باب البقيع فبيت علي صلوات الله عليه على يسارك قدرممرعنز من الباب، وهو إلى جانب بيت رسول الله صلى الله عليه وآله و باباهما جميعاً مقرونان».[٤٥]

وكان بين بيت فاطمة عليها السلام وبيت النبي صلى الله عليه وآله كوّة أي فتحة، فعن عمر بن علي بن عمر بن علي بن الحسين عليه السلام قال: كان بيت فاطمة في موضع الزور مخرج النبي صلى الله عليه وآله وكانت فيه كوّة إلى بيت عائشة، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قام

إلى المخـــرج اطّلع من الكوّة إلى فاطمة فعلم خبرهم، وإنّ فاطمةعليها السلام قالت لعليّ: إن ابنيّ أمسَـــيا عليلين فلو نظرتَ لنا أدماً «أرادت زيتاً» نستصبح به «يُســـتضاء به»، فخرج عليّ إلى السوق فاشترى لهم أدماً، وجاء به إلى فاطمة فاستصبحت، فدخلت عائشـــةُ المخرجَ في جوف الليل فأبصرت المصباح عندهم وذكرت كلاماً وقع بينهما، فلمّا أصبحوا ســـألت فاطمة النبيّصلى الله عليه وآله أن يسدّ الكوة فسدّها رسول اللهصلى الله عليه وآله. [٤٦]

وأما مساحتها:

فقـــد ذكر البتنوني أنّ طولهـــا أي مقصورة فاطمة الزهراء من الجنوب ١٤ متراً ونصفاً ومن الشـــمال ١٤ متراً فقط، ومن الشـــرق والغرب سبعة أمتار ونصف.[٤٧]

حجرتهصلى الله عليه وآله الخاصة:

إنّ وجود منزل أو حجرة خاصة بهصلى الله عليه وآله يســـتقبل فيها أصحابه والوفود أمر ضروري، ويقتضيه دوره الرسالي والقيادي.

ومـــا ورد في أنـــهصلى الله عليه وآله له حجـــرة خاصة بـــه دون نســـائه وابنته عليها السلام:

ما جاء عن علي بن أبي هاشم قال، حدثنا هشيم، عن يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرته، والناس قائمون من وراء الحجرة يصلون بصلاته.[٤٨]

ويبدو أنّ هذا المكان أو الحجرة كانت تقع شـــرقي المســـجد، وهو من

السعة بدرجة مناسبة كما يتضح لنا ذلك حين يصف أنس وليمة النبي ﷺ في حجرتــه الخاصــة: «فقال لي: هل بقي في المســجد أحد؟ قلت: لا، قال: فانظر مــن كان في الطريق فادعهم، قال: فدعــوت حتى امتلأت الحجرة،

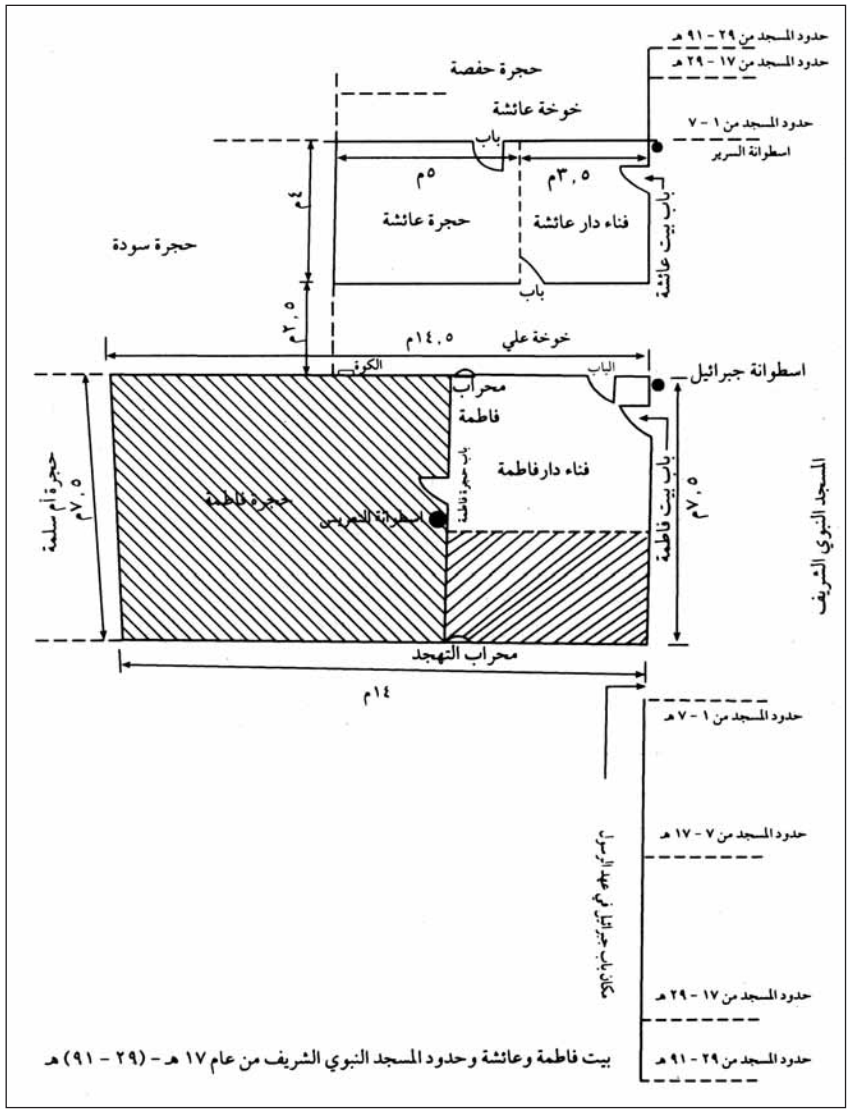

بيت فاطمة وعائشة وحدود المسجد النبوي الشريف من عام ١٧ هـ - (٢٩ - ٩١) هـ

فقال: هل بقي من أحد؟ قلت: لا يا رسول الله، قال: هلم التُّور فوضعته بين يديه، فوضع أصابعه الثلاث فيه، وغمزه، وقال للناس كلوا بسم الله...».[٤٩]

ومن قول ابن حجر: «ثم اعلم أنّ لحديث التمسك بذلك (الكتاب والعترة) طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً... وفي بعض تلك الطرق أنه قال ذلك بحجة الوداع بعرفة، وفي أخرى أنه قاله بالمدينة في مرضه وقد امتلأت الحجرة بأصحابه...».[٥٠]

وعن أمّ سلمة أنها قالت : «سمعت رسول اللهﷺ في مرضه الذي قبض فيه يقول وقد امتلأت الحجرة من أصحابه: أيها الناس، يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي، وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم. ألا إني مخلف فيكم كتاب الله وعترتي أهل بيتي. ثم أخذ بيد علي فرفعها فقال: هذا عليٌ مع القرآن والقرآن مع علي، خليفتان بصيران لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض فأسألهما ماذا خلفت فيهما». [٥١]

وقد تكررت عبارة «امتلأت الحجرة بأصحابه» حتى وإن قلنا المقصود كبار أصحابه فعددهم ليس بالقليل.

وأنّ لحجرته هذه بابين؛ كما في الخبر، عندما أرادوا أن يصلوا على جثمان النبي الطاهرﷺ قالوا كيف نصلي عليه؟ فقال عليعليه السلام : «أدخلوا أرسالاً أرسالاً». فكانوا يدخلون من هذا الباب فيصلون عليه، ثم يخرجون من الباب الآخر.[٥٢]

وكان يتعبّد في حجرته هذه، وأحياناً يأكل فيها، ويدعو فيها مَن يحب أن يشاركه غداءه أو عشاءَه، بعيداً عن حُجَرِ نسائهﷺ وهو ما يظهر مما جاء في مسند أحمد أن هناك حجرة خاصة لا تنسب إلى غيره، «حدثنا محمد بن

أبي عدي عن حميد عن أنس أنّ النبيﷺ كان يصلي ذات ليلة في حجرته، فجاء أناس فصلوا بصلاته فخفف، فدخل البيت ثم خرج، فعاد مراراً، كل ذلك يصلي، فلما أصبح، قالوا: يا رسول الله، صليت، ونحن نحبّ أن تمدّ في صلاتك، قال: قد علمت بمكانكم، وعمداً فعلت».[٥٣]

وعن أنس قال: «كنت أخدم رسول الله فقدم لرسول الله فرخ مشوي فقال: اللهم ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير! قال: فقلت اللهم اجعله رجلاً من الأنصار، فجاء علي فقلت إنّ رسول الله على حاجة! ثم جاء فقلت: إنّ رسول الله على حاجة! ثم جاء فقال رسول الله: إفتح، فدخل، فقال رسول الله ما حبسك عليَّ فقال: إنّ هذه آخر ثلاث كرات يردني أنس يزعم أنك على حاجة! فقال: ما حملك على ما صنعت؟! فقلت: يا رسول الله سمعت دعاءك فأحببت أن يكون رجلاً من قومي! فقال رسول الله: إنّ الرجل قد يحبّ قومه! هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».[٥٤]

وفي رواية: يا أنس إني أريد الصيام، أطعمني شيئاً، فأتيته بتمر وإناء فيه ماء، وذلك بعد ما أذن بلال فقال: يا أنس اُنظر رجلاً يأكل معي». وفي أخرى: «كنت أبيت عند حجرة النبيﷺ فكنت أسمعه إذا قام من الليل يقول: سبحان الله رب العالمين». [٥٥]

و دفنﷺ :

لقد قام الإمام عليعليه السلام بإنزال الجثمان الطاهر لرسول اللهﷺ إلى القبر، ثم وضع عليه اللبن، وهال عليه التراب وسواه، ورفع موضع القبر بمقدار

شـــبر واحد عن وجه الأرض، وقيل: أكثر من ذلـــك، ثم توالت من بعد ذلك عمليات البناء والإعمار لمرقده المبارك حتى وصل الإعمار إلى ما نراه اليوم.

وخلاصة ما اتفق عليه المؤرخون أنه لما توفي رسول اللهﷺ دفن في المكان الذي قبض فيه، لكنهم اختلفوا في الحجرة التي ضمّت رفاته الطاهر:

بين قائل: إنه دفن في حجرة أمِّ المؤمنين عائشة، كما هو المشهور المعروف عند العامة، ولم أجد فيما تيسر لي مخالفاً لذلك.

و قائل آخر: إنه دفن في حجرة ابنته ســـيدة النساء فاطمة الزهراءعليها السلام. ولكلا الفريقين أدلته على ما ذهب إليه.

ولعلّ الغرفة أو الحجرة الخاصة بهﷺ التي تحدثنا عنها أعلاه، هي التي دفنﷺ فيها، وتبعد قليلاً عن حجر نســـائه، والتي بجانبها يقع بيت علي وفاطمة صلوات الله عليهما، كما يستفاد من رواية الكافي.[٥٦]

ويمكن استفادة كونها موضع رفاته الطاهر من التالي:

جاء عن الإمام عليعليه السلام: «... إنّ الله تعالى لم يقبض نبيّاً في مكان، إلا وقد ارتضاه لرمسه فيه، وإني دافنه في حجرته التي قبض فيها».[٥٧]

«وقـــبره بالمدينة في حجرته التي توفي فيها، وكان قد أســـكنها في حياته عايشـــة بنت أبي بكر بن أبي قحافة، فلمـــا قبض النبيﷺ اختلف أهل بيتـــه ومن حضر من أصحابه في الموضع الـــذي ينبغي أن يدفن فيه، فقال بعضهم: يدفـــن في البقيع، وقال آخرون: يدفن في صحن المســـجد، فقال أمير المؤمنينعليه السلام: «إنّ الله لم يقبض نبيه إلا في أطهر البقاع، فينبغي أن يدفن في البقعة التي قبض فيهـــا». فاتفقت الجماعة على قوله، ودفن في حجرته

على ما ذكرناه.[٥٨]

فعبـــارة «في حجرته» ذكرت ثلاث مرات، ولم يضفها كل من الشـــيخين المفيد والطوسي لغيرهﷺ؛ وما ذكره الشيخ الطوسي: «وكان قد أسكنها في حياته عايشـــة بنت أبي بكر بن أبي قحافـــة» مخالف لما جاء في الأخبار من أنهﷺ «وكلما أحدث رســـول اللهﷺ أهلاً، تحول له حارثة بن النعمان عن منزله، حتى صارت منازله كلها لرســـول اللهﷺ». وقد تكون حجرة عائشة هـــي الرابعة من بيوت حارثة بن النعمـــان، أو أنهﷺ بنى في بداية الأمر حجرتين لزوجته سودة ثم لعائشة، المهم كانت لها حجرة تستقل فيها.

وكونهﷺ دفن في هذه الغرفة الخاصة به، هو رأي اختاره أيضاً الشـــيخ على الكوراني وله أدلته في موقعه؛ وقد قرأت بحثاً للســـيد جعفر العاملي في موقعـــه حول هذا الموضوع، فبعد إقرار الســـيد العاملي بأنهﷺ كان قد مـــرض، وبقي في بيت عائشـــة أو في حجرتها، إلا أنـــه قد ناقش في مكان دفنهﷺ المذكور وهو في حجرة أمّ المؤمنين عائشـــة؛ ليخلص من نقاشه إلى أنـــهﷺ كان قد انتقل من دار عائشـــة إلى دار فاطمة في نفس اليوم الذي توفي فيه، وهو يوم الاثنين، ... تناول هذا في بحث له أسماه: أين دفن النبيﷺ في بيت عائشة أم في بيت فاطمةعليها السلام؟

مبتدأً بحثه بما قاله ابن كثير: «قد علم بالتواتر: أنه عليه الصلاة والسلام دفن في حجرة عائشـــة التي كانت تختص بها، شـــرقي مسجده، في الزاوية الغربية القبلية من الحجرة، ثم دفن بعده أبوبكر، ثم عمر...».[٥٩]

وقضية دفنهﷺ في بيت عائشة موجودة في صحيح البخاري وغيره عن عائشة عموماً.. وعن ابن أختها عروة بن الزبير، كما يلاحظ في أكثر الروايات.

ثم يقول: أما نحن فنشـــك في ذلك كثيراً، ثم راح يســـوق أدلته على ما ذهب إليه.

ولمن يريد زيادةً فعليه بموقعي الشـــيخ علي الكوراني، والســـيد جعفر العاملي.

من هذا كله يتضح أنه صار لكل واحدة من نســـائه حجرة، وللســـيدة الزهراء والإمام علي عليهما السلام حجرة خاصة بهما، إضافةً إلى حجرته الخاصة به ﷺ التي يقضي فيها شطراً من وقته. وبالتالي فإنها جميعاً تشكل حجراته ﷺ التي كان يســـكنها أو يتردّد عليهـــا، ويبدو أنهم راحوا ينادونه من وراء هذه الحجرات؛ لأنهم لم يميزوا في أي واحدة كان ﷺ موجوداً وقت النداء. يقول ابن الجوزي: قال المفســـرون: وإنما نـــادَوا من وراء الحُجرات، لأنهم لم يعلموا في أيّ الحُجَر رسولُ الله ﷺ.

أثاثها:

لقـــد كان رســـول الله ﷺ أفضل خلـــق الله على الإطلاق وأشـــرفهم، لكنه عـــاش أفقرهم وأزهدهم، تجد ذلك واضحاً في ســـيرته المباركة؛ وما حجراته محور مقالتنا إلا دليلاً من أدلة كثيرة على ذلك، فلم تعرف بيوت رســـول الله ﷺ المبنية من حجارة وطين، ومن أكســـية من شعر مربوطة في خشب عرعر، فخامةً في شيء لا في بنائها ولا في أثاثها؛ في متاعها وفرشها، ومظهرهـــا...، فلا أبهة فيها ولا زخارف... لكنها كانت في مضامينها الأكثر نضارة وجمالاً، والأنفع منزلاً وسكناً، والأحسن مجلساً ومقاماً، والأكثر عطاءً ومعرفةً، والأفضل هدياً ورشـــداً، توفرها للناس في النشـــأتين في دنياهم

وآخرتهم، وكيف لا تكون كذلك، وهي مهبط وحي السماء، ومنزل آياتها وبركاتها، وأماكن دعوتها...؟!

ولا غرابة أو مبالغة في بساطتها وتواضع ما فيها، وهذه بعض متون روايات تبين مساحة كل حجرة، وعلوِّ سقفها، ومواد بنائها:

فقد جاء في خبر عن داود بن قيس أنه قال: رأيت الحجرات من جريد النخل مغشاة من خارج بمسوح الشعر، وأظن عرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ست أو سبع أذرع، وأحزر البيت الداخل عشر أذرع، وأظن سمكه بين الثمان والسبع نحو ذلك، ووقفت عند باب عائشة فإذا هو مستقبل المغرب؟!

وجاء عن الحسن البصري أنه قال: كنت أدخل بيوت أزواج النبيﷺ في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي. ثم راح يصفها وهو كما قالوا الذي رُبِّي في حجر أمّ سلمة زوج النبيﷺ فيقول: كنت أدخل بيوت رسول اللهﷺ وأنا غلام مراهق وأنال السقف بيدي، وكان لكل بيت حجرة، وكانت حجرة من أكسية من خشب عرعر، ويتميز فرشها بالبساطة حيث يفرش بعضها بالحصر، وهو بساط من سعف النخل... ومثله ما قاله الحسن بن أبي الحسن: كنت أدخل بيوت النبيﷺ وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدي... وأنّ بابه عليه الصلاة والسلام، كان يقرع بالأظافر: أي لا حلق له. إلى غيرها من الأخبار.

ولِمَ لا تكون كذلك، وقد كان عليه الصلاة والسلام يزهد في زينة الدنيا وزخرفها، حتى أنه تعجب من زوجته أمّ سلمة عندما قامت بتحسين بيتها وبنائه باللبن أثناء غيبته في غزوة دومة الجندل، فعن عبدالله بن يزيد الهذلي

قال: رأيت بيت أمّ سلمة وحجرتها من لبن فسألت ابن ابنها فقال: لما غزا رسول اللهﷺ دومة الجندل بنت أمّ سلمة حجرتها بلبن، فلما قدم رسول اللهﷺ فنظر إلى اللبن، فدخل عليها أول نسائه فقال: ما هذا البناء؟ قالت: أردت يا رسول الله أن أكف أبصار الناس، فقال: يا أمّ سلمة إنّ شرما ذهب فيه مال المسلم البنيان؟!

وكيف لا تكون مجردةً من كل زينة ورياش، ورسول اللهﷺ كما في متون أخبار عديدة كان سريره خشبات مشدودة بالليف، يقال: إنها بيعت زمن بني أمية، فاشتريت بأربعة آلاف درهم، وكانﷺ ينام على الحصير حتى أثّر في جنبه، فقد روي في البخاري ومسلم أنّ عمر قال عن رسول اللهﷺ: وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدَم حشوها ليف، وإنّ عند رجليه قرظاً مصبوباً، وعند رأسه أُهُب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: يا رسول الله إنّ كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله! فقال: يا عمر إنما هي نبوّة وليست ملكاً، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟

وحينما دخل عدي بن حاتم بيت النبيﷺ قال: تناولﷺ وسادةً من أدم محشوة ليفاً، وقال: اجلس على هذه، قلت: بل أنت، قال: بل أنت. قال: وجلست عليها وجلس النبي على الأرض... إذن لم تكن إلا وسادة واحدة عندهﷺ.

وكيف لا تكون حجره هكذا وهي البعيدة عن كل ما يعدُّ ترفاً وتوسعةً حتى في آلة طبخ؟ وأين أدوات الطبخ هذه وقد اكتفىﷺ وعياله بتمر وماء، وكان يمضي عليه اليوم واليومان وهو لا يجد من الدقل (التمر الرديء) ما يملأ به بطنه، وقد تمر الأيام على أبيات رسول الله ولا يجدون ما

يأكلونه لا تمراً ولا شعيراً إلا ماء... حتى رحل إلى ربّه سبحانه وتعالى، فعن عائشة: ما شبع آل محمد من خبز الشعير هذا يومين متتاليين حتى مات رسول اللهﷺ وكنا نتراءى الهلال والهلال والهلال ثلاثة أهلة في شهرين... ولا يوقد في بيت الرسول نار!! قيل: فما كان طعامكم؟ قالت عائشة: الأسودان «التمر والماء» ولما سألها ابن أختها عروة: هل أكل رسول اللهﷺ خبز النقي؟ قالت: مادخل بيت رسول الله منخل قط... ولا رأى رسول الله منخلاً قط... قال: فكيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نطحنه ثم نذريه (مع الهواء) ثم نثريه ونعجنه.

وفي رواية جاء للنبيﷺ رجل فقال: يارسول الله أنا ضيفك اليوم! فأرسل النبي إلى تسع زوجات عنده...؛ ترد كل واحده منهن: والله ما عندنا ما يأكله ذو كبير (والمعنى من طعام يمكن أن يأكله إنسان أو حيوان). وفي أخرى: جاء رجل إلى النبيﷺ فقال: إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق، ما عندنا إلا ماء، فما كان من النبي إلا أن أخذه إلى المسجد عارضاً ضيافته على من يضيفه من المسلمين، فقال: من يضيف ضيف رسول الله؟! فقال رجل من الأنصار: أنا يارسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول اللهﷺ. [٦٠]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾:

تلك هي الحجرات عدداً وبناءً وأثاثاً، التي راحوا يطوفون حولها وينادون: أن أخرج إلينا يا محمد، وكان هذا بعيداً عن أدب الخطاب، مما

سبب أذىً لرسول الله صلى الله عليه وآله.

يقــول الآلوســي: ومناداتهم من ورائها إما بأنهــم أتوها حجرة حجرة فنــادوه من ورائها فيكون القصد إلى الاســتغراق العرفي أي جميع حجرات نسائه صلى الله عليه وســلم، أو بأنهم تفرقوا على الحجرات، متطلبين له عليه الصلاة والسلام، على أنّ الاستغراق إفرادي لا شمولي مجموعي، ولا أنه من مقابلة الجمع بالجمع المقتضية لانقسام الآحاد على الآحاد، لأنّ من ناداه صلى الله عليه وسلم من وراء حجرة منها فقد ناداه من وراء الجميع على ما قيل، وعلى هذا يكون إسناد النداء من إسناد فعل الأبعاض إلى الكل، وقيل: إنّ الذي نادى رجل واحد، كما هو ظاهر خبر الأقرع بن حابس.[٦١]

﴿مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ :

يذكر الآلوســي: مــن خارجها، خلفها أو قدامها علــى أنّ ﴿وَرَاءِ﴾ من المواراة والاستتار، فما استتر عنك فهو وراء، خلفاً كان أو قداماً إذا لم تره، فإذا رأيتــه لا يكون وراءك، فالوراء بالنســبة إلى من في الحجرات ما كان خارجهــا لتواريه عمن فيها، وقال بعض أهل اللغة: إنّ وراء من الأضداد، فهو مشترك لفظي عليه ومشترك معنوي على الأول وهو الذي ذهب إليه الآمدي وجماعة.

الزمخشري: والوراء: الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام. ومن لابتداء الغاية، وأنّ المناداة نشأت من ذلك المكان. فإن قلت: فرق بين الكلامين بين ما تثبت فيه وما تسقط عنه. قلت: الفرق بينهما أنّ المنادي والمنــادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء، وفي الثاني: لا يجوز،

لأنّ الــوراء تصير بدخول من مبتدأ الغاية. ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهــى لفعل واحد، والذي يقول: ناداني فلان من وراء الــدار. لا يريد وجه الدار ولا دبرها، ولكن أي قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقــاً بغير تعيين واختصاص، والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أنّ النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو في وجوهها، وإنما أنكر عليهم أنهم نادوه من الــبرّ والخارج مناداة الأجلاف بعضهــم لبعض، من غير قصد إلى جهــة دون جهة... ومناداتهم من ورائها يحتمــل أنهم قد تفرّقوا على الحجــرات متطلبين له، فناداه بعض من وراء هذه، وبعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوهــا حجرة حجرة فنادوه من ورائهــا، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها، ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله صلى الله عليه وآله ولمكان حرمته. والفعل وإن كان مســنداً إلى جميعهم، فإنه يجــوز أن يتولاه بعضهم، وكان الباقون راضين، فكأنهم تولوه جميعاً.

فيمــا يذهب ابن عاشــور إلى أنّ الوراء: الخلف، وهــو جهة اعتبارية بحسب موقع ما يضاف إليه. والمعنى: أنّ الحجرات حاجزة بينهم وبين النبي صلى الله عليه وســلم، فهم لا يرونه فعبر عن جهة من لا يرى بأنها وراء. و ﴿مِـنْ﴾ للابتداء، أي ينادونك نداء صــادراً من وراء الحجرات فالمنادون بالنســبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم كانوا وراء حجراته؛ فالذي يقول: نادانــي فلان وراء الدار، لا يريد وراء مفتح الدار ولا وراء ظهرها، ولكن أيَّ جهة منها، وكان القوم المنادون في المســجد فهم تجاه الحجرات النبوية، ولو قال: ناداني فلان وراء الدار، دون حرف «مِنْ»، لكان محتمِلاً لأن يكون المنادي والمنادَى كلاهما في جهة وراء الدار، وأنَّ المجرور ظرف مســتقر في

موضع الحال من الفاعل أو المفعول ولهذا أوثر جلب «مِنْ» ليدل بالصراحة على أنّ المنادَى كان داخل الحجرات، لأن دلالة «مِنْ» على الابتداء تستلزم اختلافاً بين المبدإ والمنتهَى كذا أشـــار في «الكشاف»، ولا شك أنه يعني أنّ اجتلاب حرف «مِنْ» لدفع اللبس، فلا ينافي أنه لم يُثبت هذا الفرق في قوله تعالى: ﴿**ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم**﴾ في ســـورة الأعراف:١٧ وقوله: ﴿**ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض**﴾ في سورة الروم:٢٥. فلفظ ﴿**وَرَاءِ**﴾ هنا مجاز في الجهة المحجوبة عن الرؤية.[٦٢]

مَن المنادِي ؟

ظهر من أســـباب النزول، أنه قد وقع اختلاف بينهم في من تولى ذلك النداء، فقولٌ: رجـــال الوفد جميعم كما هو نصُّ الآية: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ**﴾ وإسناد فعل النداء إلى ضمير ﴿**الذين**﴾ لأن جميعهم نادوه. حين جاءوا وقت الظهيرة ولم يعلموه في أي حجرة من حجر نســـائه، فنادوه جميعاً كل منهم خلف حجرة بغلظة وجفاء.

أبومســـلم البجلي قال: سمعـــت زيد بن أرقم يقـــول: أتى ناس النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو في الحجرة يا محمد يا محمد.

الشيخ الطبرسي: وهم الجفاة من بني تميم، لم يعلموا في أي حجرة هو، فكانوا يطوفون على الحجرات وينادونه.

قـــول آخر: الأقرع بن حابس، كمـــا جاء في حديث البراء بن عازب أنّ الذي نادى النداء هو الأقرع بن حابس، وعليه فإسناد فعل ﴿**ينادونك**﴾ إلى ضمير الجماعة مجاز عقلي عن نسبة فعل المتبوع إلى أتباعه، إذ كان الأقرع

بـــن حابس مقدَّم الوفد، كما يقال: بنو فـــلان قتلوا فلاناً. وإنما قتله واحد منهم، قال تعالى: ﴿**وإذ قتلتم نفساً**﴾.[٦٣]

وأيضـــاً في رواية أخرى عن البراء بن عازب قـــال: فقام رجل فقال: يا رسول الله إنّ حمدي زين وإنّ ذمي شين، فقال النبيﷺ ذاك الله.[٦٤]

ثم خاطب القرآن العزيز النبيﷺ فقال: ...﴿**أكثرهم لا يعقلون**﴾ وصفهم الله سـبحانه بالجهل وقلة الفهم والعقل إذا لم يعرفوا مقدار النبيﷺ ولا ما استحقه من التوقير، فهم بمنزلة البهائم.

﴿**ولـو أنهم صبـروا حتى تخرج إليهم لـكان خيراً لهـم**﴾ من أن ينادونك من وراء الحجرات في دينهم بما يحرزونه من الثواب، وفي دنياهم باســتعمالهم حســن الأدب في مخاطبــة الأنبياء ليعدّوا بذلك في زمــرة العقلاء. وقيل: معناه لأطلقت أسراهم بغير فداء فإنّ رسول اللهﷺ كان سبى قوماً من بني العنــبر، فجاءوا في فدائهم، فأعتق نصفهم وفــادى النصف، فيقول: «ولو أنهم صبروا لكنت تعتق كلهم ﴿**والله غفور رحيم**﴾ لمن تاب منهم».[٦٥]

ابن عاشــور: ومعنى قوله: ﴿**ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم**﴾ أنه يكسبهم وقاراً بين أهل المدينة، ويستدعي لهم الإقبال من الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يخرج إليهم غير كاره لندائهم إياه، ورفع أصواتهم في مسجده فكان فيما فعلوه جلافة.

فقوله: ﴿**خيراً**﴾ يجوز أن يكون اســم تفضيــل، ويكون في المعنى: لكان صبرهــم أفضل من العجلــة. ويجوز أن يكون اسماً ضدّ الشــر، أي لكان صبرهــم خيراً لما فيه من محاســن الخُلق، بخلاف مــا فعلوه فليس فيه خير، وعلى الوجهين فالآية تأديب لهم وتعليمهم محاسن الأخلاق وإزالة لعوائد

الجاهلية الذميمة.

وإيثـار ﴿**حتـى**﴾ في قوله: ﴿**حتى تخـرج إليهـم**﴾ دون (إلى) لأجل الإيجاز بحذف حرف (أن) فإنه ملتزم حذفه بعد ﴿**حتّى**﴾ بخلافه بعد (إلى) فلا يجوز حذفه.

وفي تعقيب هذا اللوم بقوله: ﴿**والله غفور رحيم**﴾ إشـارة إلى أنه تعالى لم يُحْص عليهم ذنباً فيما فعلوا ولا عَرّض لهم بتوبة. والمعنى: والله شـأنه التجاوز عن مثل ذلك رحمة بالناس؛ لأن القوم كانوا جاهلين.[٦٦]

وأخيراً أدخلت الحجرات في المسجد!

بعد أن شـهدت هذه الحجرات طيلة ثلاثة عشر عاماً آيات مباركات، وسيرة رائعة لرسول اللهﷺ بما فيها من خلق وعلم وعمل وتشريع وتوجيه وتأسيس دولة ونشر دين، وتخطيط لجهاد وكفاح، وزهد في الدنيا ومغرياتها، وبعـد أن توفيت أزواجه عليه الصلاة والسـلام، وكانت آخرهن وفاة أمّ سلمة رضي الله عنها عام (٦٣هـ) خلطت البيوت والحجر بالمسجد.[٦٧]

إنّ ضمّها إلى المسـجد، وإنهاء آثارها وللآثار قيمـة معرفية وتاريخية، تذكرهم بحياتهﷺ وسيرته، خصوصاً لمن لم يعِشها من الأجيال..، إضافةً إلى ما تتركه من ثمرات أخلاقية محسوسـة، تضع بصماتها على سلوك الناس سبّب أذًى وألماً عند المسلمين.

قال يومئـذ أبو أمامة: ليتها تركت فلم تهـدم حتى يقصر الناس عن البناء، ويروا ما رضي الله لنبيهﷺ ومفاتيح خزائن الدنيا بيده!

فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم!

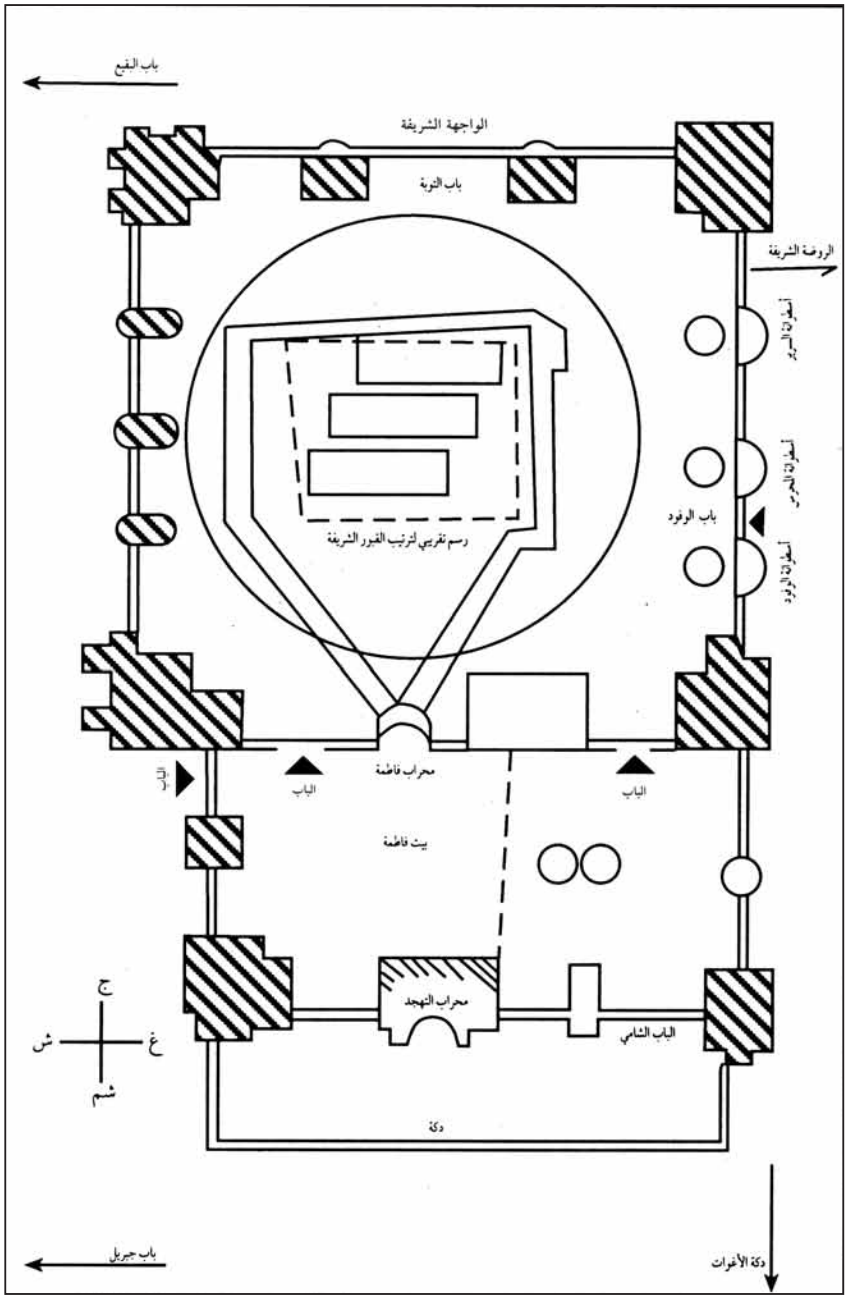

في زمــن عبدالملك، لما ورد كتابه بهدمها وضمّها للمســجد، ضجّ أهل

المدينــة بالبكاء كيــوم وفاته عليه الصلاة والســلام. وعن معاذ بن محمد الأنصاري، قال: سمعت عطاء الخراساني في مجلس فيه عمران بن أبي أنس يقول وهو فيما بين القبر والمنبر: أدركت حجر أزواج رسول الله من جريد النخل على أبوابها المســوح من شعر أســود، فحضرت كتاب الوليد بن عبدالملك يقرأ يأمر بإدخال حجر أزواج النبي في مســجد رســول الله، فما رأيــت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم! وقال نحو ذلك أبو أمامة بن ســهل بن حنيف: وإنهم ليبكون حتى أخضل لحاهم الدمع.

قال معاذ: فلما فرغ عطاء الخراساني من حديثه، قال عمران بن أبي أنس: كان منها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها على أبوابها مســوح الشعر، ذرعت الستر فوجدته ثلاث أذرع في ذراع والعظــم أو أدنى من العظــم.. فأما ما ذكرت من كثرة البكاء فلقد رأيتني في مجلس فيه نفر من أبناء أصحاب رسول اللهﷺ منهم أبوسلمة بــن عبدالرحمن وأبوأمامة بن ســهل بن حفيف وخارجة بــن زيد، وإنهم ليبكــون حتى اخضل لحاهم الدمع، فمن حق النــاس أن يبكوا ويطيلوا في بكائهم، وهو يفقدون آثار أكرم وأفضل إنسان خلقه الله تعالى، وحمّله أعظم رسالة كانت رحمة للعالمين كما في الآية: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين**﴾.[٦٨]

وكان حقاً ما قاله ســعيد بن المسيب يومئذٍ: والله لوددت أنهم تركوها علــى حالها ليراها النشءُ من أهل المدينــة، ويقدم القادم من أهل الآفاق، فيرى ما اكتفى به رســول اللهﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها.

لقد ظلَّ المســجد النبوي الشــريف على ما هو عليه بعد إصلاحات

الخليفــة الثالث عثمان بن عفــان حتى جاء الخليفة الأمــوي الوليد بن عبدالملــك، فرأى إحداث زيادة أخرى مع إعادة بناء المســجد النبوي، فأمر واليه على المدينة يومذاك عمر بن عبدالعزيز بهدم مســجد رسول اللهﷺ وهدم بيوت أزواج رســول اللهﷺ وإدخالها في المســجد، وبنائه من جهاته الأربع، وتوســعته؛ وبدأ هدم المســجد في صفر سنة ٨٨هـ وبدأ العمل في ربيع الأول سنة ٨٨هـ، وانتهى العمل في عام ٩١هـ.

فقد ذكر محمد بن عمر، أنّ محمد بن جعفر بن وردان البناء قال: رأيت الرســول الذي بعثه الوليد بن عبدالملك، قدم في شــهر ربيع الأول سنة ثمــان وثمانين، قدم معتجراً (اعتجر فلان بالعِمامة لفّها على رأســه وردّ طرفهــا على وجهه) فقــال الناس: ما قدم به الرســول! فدخل على عمر بن عبدالعزبز بكتاب الوليد يأمره بإدخال حُجَر أزواج رســول اللهﷺ في مســجد رســول الله، وأن يشــتري ما في مؤخره ونواحيه حتى يكون مائتي ذراع في مائــتي ذراع، ويقول له: قــدّم القِبلة إن قدرت، وأنت تقدر لمكان أخوالك، فإنهم لا يخالفونك، فمن أبى منهم فمر أهل المصر، فليقدموا له قيمة عدل، ثم اهدم عليهم وادفع إليهم الأثمان، فإنَّ لك في ذلك ســلف صدق؛ عمر وعثمان، فأقرأهــم كتاب الوليد وهم عنده، فأجاب القوم إلى الثمن، فأعطاهم إياه، وأخذ في هدم بيوت أزواج النبيﷺ وبناء المســجد، فلــم يمكث إلا يســيراً حتى قدم الفَعلة، بعث بهــم الوليد... وعن صالح بن كيســان... قال: فاســتعملني على هدمه وبنائه، فهدمناه بعمال المدينة، فبدأنــا بهدم بيــوت أزواج النبيﷺ... وعنه أيضاً: ابتدأنا بهدم مســجد رســول اللهﷺ في صفر من ســنة ثمان وثمانين، وبعث الوليد إلى صاحب

الروم يُعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله ﷺ وأن يعينه فيه، فبعث إليه بمائة ألف مثقال ذهب، وبعث إليه بمائة عامل، وبعث إليه من الفُسيفساء بأربعين حِملاً ... فبعث بذلك الوليد إلى عمر بن عبد العزيز.

هذا وقد جاء عن عبدالله بن يزيد الهذلي قال: «رأيت منازل أزواج رسول الله ﷺ حين هدمها عمر بن عبدالعزيز وهو أمير المدينة في خلافة عبدالملك فزادها في المسجد، وكانت بيوتاً باللبن ولها حجر من جريد مطرود بالطين عددت تسعة أبيات بحجرها وهي ما بين بيت عائشة إلى الباب الذي يلي باب النبي ﷺ إلى منزل أسماء بنت حسن بن عبدالله بن عبيدالله».[٦٩]

ويبدو أنّ عدداً من صغار الصحابة في المدينة فضلاً عمن كان في خارجها، ممن امتدّ عمره كان موجوداً حين هدمت الحجرات، وأدخلت مع الضريح المقدس لرسول الله ﷺ في المسجد النبوي، وكان منهم:

أنس بن مالك، توفي سنة٩٠ هـ، و أبوالطفيل عامر بن واثلة، توفي سنة ١٠٠ هـ. ولعل هناك غيرهما: عبدالله بن بسر المازني، توفي سنة ٩٦ هـ. يوسف بن عبدالله بن سلام، توفي في خلافة عمر بن عبدالعزيز.

عبدالله بن ثعلبة، توفي سنة ٨٩ هـ .

محمود بن لبيد الأنصاري، توفي ٩٨ هـ .

عبدالله بن ثعلبة العذري، توفي سنة ٨٩ هـ .

المقدام بن معدي الكندي، توفي سنة ٨٧ هـ . كما يستنتج من قول النووي التالي.[٧٠]

وذكر فيه المؤلف (محمود سعيد ممدوح، كشف الستور عما أشكل من

أحكام القبور) ما صرّح به النووي في شرح مسلم: «ولما احتاجت الصحابة والتابعون إلى الزيادة في مسجد رسول اللهﷺ حين كثر المسلمون، وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه ومنها حجرة عائشـــة...».[٧١] كان هذا في مقام ردّه على الوهابية في كتابه المذكور.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ

الهوامش:

١ . في ظـلال القرآن: السـورة والآيات؛ له كلام طويل نافع، اكتفينا بشيء منه.
٢ . سورة الفتح : ٩.
٣ . سورة الأعراف : ١٥٧.
٤ . أسباب النزول للواحدي، ومجمع البيان للطبرسي، سورة الحجرات.
٥ . لسـان العـرب؛ والمعجـم الوسـيط؛ والتوقيـف علـى مهمـات التعريف، للمُنـاوي؛ التحريـر والتنويـر، لابن عاشور: الآية.
٦ . أنظـر المعجم الوسـيط٥٧٤، طان. ٤١٦، سـجل. ومفـردات القـرآن للراغب: سجل، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، ومجمع البيان في تفسـير القرآن للشيخ الطبرسـي: سـورة هـود، الآية:٨٢ ذكر الشيخ أقوالاً فيه.
٧ . أنظـر كلاً من الراغـب والحمصي في مفردات القرآن.
٨ . تفسـير الكشاف، للزمخشري؛ والتحرير والتنوير؛ وتفسـير زاد المسـير في علم التفسير، ابن الجوزي: الآية.
٩ . المعجـم الوسـيط: ١٥٧، حجر؛ إعراب القـرآن الكريـم وبيانه، محيـي الدين الدرويش؛ روح المعاني، للآلوسي: الآية.
١٠ . النمل: ٥٢.
١١ . يونس : ٧٨.
١٢ . النور : ٢٧.
١٣ . الحج : ٢٩.
١٤ . آل عمران : ٩٦.
١٥ . البقرة : ١٢٧.
١٦ . البقرة : ١٨٩.
١٧ . النور : ٣٦.
١٨ . الأحزاب : ٥٣.
١٩ . الحج :٢٦.
٢٠ . التحريم : ١١.
٢١ . يونس : ٧٨.
٢٢ . الذاريـات:٣٦؛ المعجم الوسـيط: ٧٨ ؛ مختار الصحـاح١: ٥٢ ؛ الإفصاح في فقه اللغة؛ مفردات القرآن الكريم للراغب الأصفهاني.
٢٣ . سورة الأحزاب : ٥٣.
٢٤ . سورة الأحزاب : ٣٣ ٣٤.
٢٥ . روح المعانـي: الآيتان. واكتفيت منه بما يخصّ التنزيل العزيز.
٢٦ . سورة الأحزاب : ٥٣.
٢٧ . الطلاق : ١.
٢٨ . روح المعانـي، بتلخيـص؛ والتحرير والتنوير.
٢٩ . الطلاق : ١.
٣٠ . الأحزاب : ٣٤.
٣١ . تفسـير التحرير والتنوير: من سـورة الأحزاب.

٣٢ . السيرة النبوية، لابن هشام٤ :٣١٧ شعر حسان في مرثيته الرسول صلى الله عليه وآله.

٣٣ . تفسير الرازي؛ والتحرير والتنوير: الآية.

٣٤ . السيرة النبوية، لابن هشام٢: ٤٩٨ ؛ الطبقات٨ : ١٦٦.

٣٥ . التحرير والتنوير: الآية.

٣٦ . السيرة النبوية، لابن هشام٤: ٢٩٣ـ ٢٩٤؛ تاريخ الطبري٢: ٢١١ – ٢١٥ في أحداث سنة١٠، وغيرهما من مراجع التاريخ.

٣٧ . وفاء الوفا٢: ٤٦٦ ، ٤٦٧ ؛ عن نزهة الناظرين: ١٤٨ ؛ بيوت الصحابة: ١٧٨ ؛ القاموس٢:٥٢١.

٣٨ . راجع وفاء الوفا.

٣٩ . حلية الأولياء٤: ١٥٣.

٤٠ . البداية والنهاية، لابن كثير٧ : ٣٧٥.

٤١ . أنظر فضائل الخمسة، لأحمد بن حنبل: فضائل علي بن أبي طالب، رقم: ٩٢٣.

٤٢ . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، باب فتح بابه الذي في المسجد: ١٤٦٧١ـ ١٤٦٧٨.

٤٣ . طبقات ابن سعد ٨ : ١٦٦.

٤٤ . كتاب فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد، للسيد محمد كاظم القزويني : ١٥٧.

٤٥ . الفروع من الكافي، للشيخ الكليني٤ : ٥٥٥ – ٥٥٦ ، ٨٨١٣٤ ، ٩٨١٣٥. باب المنبر والروضة ومقام النبي صلى الله عليه وآله.

٤٦ . وفاء الوفا ٢:٤٦٦.

٤٧ . أنظر مدينه شناسى: ٨١ عن الرحلة الحجازية، البتنوني: هو محمد لبيب، أديب ومؤرخ مصري، توفي في القاهرة عام ١٣٥٧هـ ، ١٩٣٨م : ٣٢٧. وتجد تفصيلاً في دائرة المعارف الحسينية. تاريخ المراقد، للشيخ محمد صادق الكرباسي.

٤٨ . تاريخ المدينة المنورة لابن شبة١: ٣٠٢ ٣٠٣.

٤٩ . الطبقات ٨ : ١٠٤.

٥٠ . الصواعق٢ : ٤٤٠.

٥١ . أمالي الطوسي :٤٧٨ .

٥٢ . أنظر مسند أحمد٥ : ٨١ ؛ مجمع الزوائد٩: ٣٧ ؛ مختصر تاريخ دمشق٢ : ٣٩٨ ؛ وأسد الغابة٥ :٢٥٤.

٥٣ . مسند أحمد٣: ١٠٣، ١١٥٩٤؛ مسند أنس بن مالك.

٥٤ . مستدرك الحاكم٣ : ١٣٠.

٥٥. سنن النسائي٤: ١٤٧؛ ٣: ٢٠٩.

٥٦ . الكافي٤ : ٥٥٥ – ٥٥٦.

٥٧ . الإرشاد، للشيخ المفيد١ : ١٨٤.

٥٨ . التهذيب، للشيخ الطوسي٦: ٢.

٥٩ . البداية والنهاية٥ : ٢٧٢.

٦٠ . السيرة النبوية٢ : ٤٩٨ ؛ الطبقات

الكبرى ذكر منازل أزواج النبي صلى الله عليه وآله.

٦١ . تفسير روح المعاني: الآية.

٦٢ . تفسير روح المعاني، للآلوسي ؛ تفسير الكشاف، للزمخشري ؛ تفسير المراغي؛ التحرير والتنوير: الآية.

٦٣ . البقرة:٧٢

٦٤ . أنظر مجمع البيان ؛ التحرير والتنوير؛ التاج الجامع للأصول، للشيخ منصور علي ناصف٤: ٢٣٩.

٦٥ . أنظر مجمع البيان، للطبرسي: الآية.

٦٦ . تفسير التحرير والتنوير: الآيات.

٦٧ . أنظر السيرة النبوية، لابن هشام٢ : ٤٩٨ ؛ ابن كثير في السيرة النبوية.

٦٨ . الأنبياء : ١٠٧.

٦٩ . أنظر ابن هشام في سيرته٢ : ٤٩٨ ؛ الطبري في تاريخه٣ : ٦٧٦ ، ثم دخلت سنة ثمان وثمانين، تاريخ الإسلام، تأليف الذهبي، ٦ : ٣١. وانظر الروايات في الطبقات الكبرى لابن سعد، ذكر منازل أزواج النبي صلى الله عليه وآله، التحرير والتنوير، لابن عاشور ؛ الطبقات الكبرى، لابن سعد١: ٤٩٩ ذكر بيوت رسول الله صلى الله عليه وآله وحجر أزواجه.

٧٠ . أنظر كتاب: كشف الستور عما أشكل من أحكام القبور، تأليف: محمود سعيد ممدوح: ٩٦.

٧١ . شرح النووي لصحيح مسلم ٣: ١٧.

قصيدة البردة (١)

مدح سيّدنا ونبيّنا محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله

ما إن مدحت محمَّداً بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمَّد

قال الشـــيخ محمدرضا النحوي رحمه الله، مخمســـاً قصيدة «البردة» المشهورة للبوصيري، وكان تخميســـها باقتراح بحرالعلوم الطباطبائي، وصدر تخميســـها بهذه المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

ألحمد لله الممدوح بكل لســان، الغني بظاهر محامده عن الايضاح والبيان، بديع الســماوات والأرض، باســط الفضل في الطــول والعرض، والصلاة والســلام على سيدنا ونبينا محمد المبعوث لحفظ النظام، المنعوت بما هو أهله مــن الإجلال والإعظام، وعلــى غرّ آله القماقمة الأكبريــن، وعلى أصحابه الخضارمة الأنجبين.

أمــا بعد، فيقول أفقر العبــاد إلى رحمة ربه الغني، محمد الملقب بالرضا ابن الشيخ أحمد النحوي، بصره الله بعيوب نفسه، وجعل يومه خيراً من أمسه:

إني لما وقفت على القصيدة البديعــة الغراء، والفريدة اليتيمة العصماء، للشــيخ العالم العامل، الأديب الكامل، شيخ الإســلام والمسلمين، إمام الملة والدين، الشــيخ أبي‌عبدالله محمد بن ســعيد الدلاصي المصري البوصيري، تغمده الله برحمته ورضوانه، وأفاض عليه شــآبيب عفوه وغفرانه، وقد سارت بهــا على تقادم عهدها الركبــان، وأذعن لها بالفضــل كل قاص ودان، وقد تداولتهــا الرواة، وتغنت بها الحداة، وتلقتها جميع الفضلاء والأدباء بالقبول، وهبت عليها من قدس الجلال نســمات القبول، والناس بين شارح لغامض أسرارها، وكاشف لنقاب أستارها، وبين من انبرى لمباراتها، وجرى على النسق لمجاراتها، وبين متعرض لها بالتخميس، وآخر جانح إليها بالتسديس، وبين من سبّع وثمّن ونقّح ما اشتملت عليه من المحاسن، وكل أفرغ في ذلك جهده، وما قصّر من بذل جميع ما عنده، وما ذاك إلا لما انطوت عليه من المحاســن الفائقة، واحتوت عليه من المعاني الرائقة، مضافاً إلى شــرف ممدوحها الذي جادت بما اشــتملت عليه من ذكره تراكيبها، وحسنت بما تضمنته من وصفه أساليبها،

فشرفت لذلك معانيها، ولطفت لما هنالك مبانيها:

فسارت مسير الشمس في كل بلدة وهبت هبوب الريح في البر والبحر

أحببت أن انتظم معهم في ذلك السلك، وأستوي معهم بحمد الله على ذلك الفلك، وأن لم أكن من فرسان هذا الميدان، ولا ممن ينبغي له أن يثني نحو هذه المضائق منه العنان، فقد تجمع الحلبة بين السكيت والمجلي، واللطيم والمصلّي، وقد يتزيّى بالهوى غير أهله، وتنزع نفس المرء به للسمو إلى غير محله، فجنحت في هذا إلى التسميط، راجياً من الله العصمة من الإفراط والتفريط.

ما إن مدحت محمداً بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد

وأسأل الله تعالى أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن يهديني بها الصراط المستقيم، وأرجو ممن وقف منها على ما زلت به القدم، أو طغى به حال جريانه القلم أن يقابل ذلك بالعفو والصفح، ويتنكب جادة الاعتساف بالإزراء والقدح، فإنّ الإنسان محل الخطأ والنسيان، .. وإنّ أولَ ناس أولُ الناس.

وكان الفراغ من ذلك في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من رجب سنة ١٢٠١هـ قال:

ما لي أراك حليفَ الوجد والألم * أودى بجسمك ما أودى من السقم

ذا مدمع بالدم المنهل منسجم * أمن تذكر جيران بذي سلم؟!

مزجتَ دمعاً جرى من مقلة بدم

أصبحت ذا حسرة في القلب دائمة ومهجة إثرهم في البيد هائمة

شجاك في الدوح تغريد لحائمة أم هبّت الريح من تلقاء كاظمة

وأومض البرق في الظلماء من إضم

نضا لك البين عضباً منه منصلتا فلست من قيده ما عشت منفلتا

إن كنت تنكر ما بالوجد عنك أتى فما لعينيك إن قلت أكففا همتا؟!

وما لقلبك إن قلت استفق يهم؟!

واهاً لصب يراه في الهوى سقم يُخفي هواه ودمع العين منه دم

فكيف يخفى ومنه القلب محتدم؟! أيحسب الصب أن الحب منكتم

ما بين منسجم منه ومضطرم؟!

تخفي الهوى وتبيتَ الليل في وجل حيران طرف بعد النجم مشتغل

تبكي بدمع على الاطلال منهمل لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل

ولا أرقتَ لذكر البان والعلم

نمت بسرك عين في الدجى سهدت وأدمع في مجارى خدك اطردت

وبينات الضنى في الجسم منك بدت فكيف تنكر حُبّاً بعد ما شهدت

به عليك عدول الدمع والسقم؟!

قد سار سرك في أهل الهوى علنا وأنت تخفي الذي أضناك منه عنا

وكم نفى عنك عذري الهوى وسنا وأثبت الوجد خطي عبرة وضنا

مثل البهار على خديك والعنم

فكم تنوح على الأطلال والدمن مجاوبـًا كل ورقـاء على فنن؟!

هل طيف ميّة ولى عنك بالوسن نعم سرى طيف من أهوى فأرقني

والحب يعترض اللذات بالألم

فدع ملامي فليس النفس مقصرة عن حبّ مـيٍّ ولا للصبر مؤثرة

لم يُبق لي الشوق للسلوان مقدرة يالائمي في الهوى العذري معذرة

منى إليك ولو أنصفتَ لم تلم

سلمتَ من دنف عندي ومن سهر ومن وشاة أداريهم ومن فِكَر
شتان ما بين حالينا لذي بصر عَدتك حالي لا سري بمستتر
عن الوشاة ولا دائي بمُنحسم
عذلتَ مَن صمَّ عند العذل مسمعه فخلِّ عنه فليس العذل ينفعه
قدقُدتنيللهدىلوكنتُأتبعه محضتَنيالنصحلكنلستأسمعه
إنّ المحب عن العذال في صمم
فكم طلائع إنذار وكم رسل بدت بفودي فما أقصرت من أملي
فكيف تطمع في رشدي بعذلك لي؟! إنياتّهمتُنصيحالشيبفيعذلي
والشيب أبعد في نصح عن التهم
أيقظتَ نفسي لأخراها فما يقظت وواعظ الموت وافاها فما وُعِظت
فدع زواجر لوم منك قد غلظت فإنّ أمّارتي بالسوء ما اتعظت
من جهلها بنذير الشيب والهرم
واهاً لها بالتصابي قضّت العمرا وما أصاخت لمولاها بما أمرا
ولا استعدت لزاد إذ نوت سفرا ولا أعدت من الفعل الجميل قِرى
ضيف أَلَمَّ برأسي غير محتشم
يُبشر المرء لو أصغى وينذره فيما يُرجيه في العقبى ويحذره
فساء عندي لسوء الفعل منظره لو كنت أعلم أني ما أوقره
كتمت سراً بدا لي منه بالكتم
فيا لنفس تمادت في عمايتها واستبدلت بضلال من هدايتها
فما احتيالي وقد ندت لغايتها؟! من لي برد جماح من غوايتها
كما يرد جماح الخيل باللجم؟!

نبت فضيعت الدنيا بنبوتها ومذكبت ضاعت الأخرى بكبوتها
فإن ترد ردّها عن غيِّ صبوتها فلا تَرم بالمعاصي كسر شهوتها
إن الطعام يُقوّي شهوة النهم
ولا تذرها على ما تشتهي هملا فرب شهوة نفس قرّبت أجلا
فالنفس طوع الفتى إن جار أو عدلا والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم
أسخطتَ ربك فيما كنت مقصيه من صالح وقبيح رحت مدنيه
فإن ترد أن يراك الله مرضيه فاصرف هواها وحاذر أن تواليه
إنّ الهوى ما تولى يُصم أو يَصم
لا تغترر بهداها فهي رائمة للغي طبعاً وللأسواء سائمة
فافطن لها وهي بالطاعات قائمة وراعها وهي في الاعمال سائمة
وإن هي استحلت المرعى فلا تسم
كم خاتلتك وما زالت مخاتلة؟! توليك قطعاً تراها فيه فاضلة
كم زينب عزة بالذل شاملة؟! كم حسنت لذة للمرء قاتلة
من حيث لم يدر أنّ السم في الدسم؟!
لا خير في طمع يفضي إلى طبع ومنظر حسن ذي مخبر شنع
فساو حاليك في يأس وفي طمع واخش الدسائس من جوع ومن شبع
فرب مخمصة شر من التخم
برتك نفس من الأدواء ما برئت ولا انبرت لشفاء قط مذ برئت
فانهض إلى برئها لو أنها برئت واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت
من المحارم والزم حمية الندم

رمتك منك عُداة أقصدتك فما أبقت بقلبك بعد اليوم غير ذما
فكن بطاعة من أنشاك معتصما وخالف النفس والشيطان واعصهما
وإن هما محضاك النصح فاتهم
فكم أبادا بكيد منهما أما ونكسا من أخي علم به علما
فلا تكن لهما في حالة سلما ولا تطع منهما خصماً ولا حكما
فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
فأعجب لأمر قوم غير ممتثل وعاذل عن هواه غير منعذل
كم قد نصحت وكم في القلب من دغل استغفر الله من قول بلا عمل
لقد نسبت به نسلاً لذي عقم
فيا لقلب تمادى في تقلبه يؤدب الناس ساه عن تأدبه
أوجبت أمراً ولم أعمل بموجبه أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به
وما استقمت فما قولي لك استقم
أفنيت أيام عمري الغض كاملة ولا أرى النفس عما ساء عادلة
لم أثن نفساً إلى الآثام مائلة ولا تزودت قبل الموت نافلة
ولم أصلّ سوى فرضي ولم أصم
فكم سهرت الدياجي في العكوف على ما ليس ينفع لا علماً ولا عملا؟!
أبيت ليلي بما لم يغن مشتغلا ظلمت سنة من أحيى الظلام إلى
إن اشتكت قدماه الضر من ورم
كم قد تعرضت الدنيا له فلوى عنها العنان وما ألوى لها ولوى؟!
وكم طوى كشحه من لذة وطوى وشد من سغب أحشائه وطوى؟!
تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم

تطلبته وحاشاه بلا طلب بـكل ما في كنوز الأرض من نشـب
فصد عما بها من زبرج كذب وراودتـه الجبـال الشـم مـن ذهـب
عن نفسه فأراها أيما شمم
جفته للزهد في الدنيا عشيرته فما عدت خيرة الرحمن خيرته
قد بصرته بما فيها بصيرته وأكـدت زهـده فيهـا ضرورتـه
إنّ الضرورة لا تعدو على العصم
كم صد عن زهرة في روضة وفنن علماً بتلك الرياض الخضر خضر دمن؟!
لم يدعه نحوها ضر وطول شجن وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من
لولاه لم تخرج الدنيا من العدم؟!
لوت بمنسبه الأنساب آل لؤي واستقصت المجد والعلياء آل قصي
وكم محا عن ضريح الحق شبهة غي محمد سيد الكونين والثَقَلي
من الفريقين من عرب ومن عجم؟!
كم في «نعم» قد أفيضت من يديه يد وكم تنزه في «لا» واحد أحد؟!
أتى بأمرين كل منهما رشد نبينـا الآمـر الناهـي فـلا أحد
أبر في قول «لا» منه ولا «نعم»
هو الشفيع لمن قلّت بضاعته في الصالحات ومن طالت إضاعته
فأعدده للهول إن هالت فظاعته هو الحبيب الذي ترجى شفاعته
لكل هول من الأهوال مقتحم[1]

دعا فجلّى العمى عن وجه مذهبه كما جلا البدر ليلاً جنح غيهبه

دعا ففاز ملبيه بمطلبه دعا إلى الله فالمستمسكون به

مستمسكون بحبل غير منفصم

كم من نبيّ مع المختار متفق في النعت مختلف في الفضل مفترق؟!

فيا نبياً بفضل فيه متسق فاق النبيين في خَلق وفي خُلق

ولم يدانوه في علم وفي كرم

به أضاء لموسى في الدجى قبس فالبحر منفلق والماء منبجس

والكل من نوره للنور مقتبس وكلهم من رسول الله ملتمس

غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

هو المثابة إن طافوا أو التزموا فالبعض ملتمس والبعض مستلم

فهم قيام بما يقضي ويحتكم وواقفون لديه عند حدهم

من نقطة العلم أو من شكله الحكم

أعلانه وفق ما تخفي سريرته وسيرة الله فيما شاء سيرته

فهو الصفيّ لباريه وخيرته وهو الذي تمَّ معناه وصورته

ثم اصطفاه حبيباً بارئ النسم

إن قال فالدرّ يزهو في معادنه أو جال فالليث يسطو في براثنه

مبرَّءاً في علاه عن موازنه منزّه عن شريك في محاسنه

فجوهر الحسن فيه غير منقسم

كم حار في كنه معنى ذاته أمم فالبعض فيه هدوا والبعض فيه عموا؟!

فدع مقالة من زلت به القدم دع ما ادعته النصارى في نبيهم

واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

فكم نوابغ آيات وكم صحف تروى له خلفاً في المجد عن سلف؟!

فانسج لأمداحه ما شئت من تحف وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف

وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

كفاه ما من مزيد الفضل خوَّله من للورى بالهدى والحق أرسله

فما مقال امرئ بالمدح بجّله فإنّ فضل رسول الله ليس له

حدّ فيعرب عنه ناطق بفم؟!

كم آية نكّست من جاحد علما قد جلّ عن قدرها قدراً وجلّ سُما؟!

كي لا تضل به لو ناسبت أمما لو ناسبت قدره آياتُه عظما

أحيى اسمه يدعى دارس الرمم

وافى بأعجب برهان وأغربه يَـردّ في صدقه دعــوى مكذبه

ومذ دعانا إلى إفصاح مذهبه لــم يمتحنا بما تعيى العقول به

حرصاً علينا فلم نرتب ولم نَهم

دنا فشط فأعيا كنهه البشرا فمــا أحــاط بمعناه امــرؤ ودرى

وكلما امتحنوا في ذاته نظرا أعيا الورى فهم معناه فلست ترى

للقرب والبعد فيه غير منفحم

داني التواضع سامي المجد ذو حيد فالنفس في صبب والمجد في صعد

فأعجب لمقترب للعين مبتعد كالشمس تظهر للعينين من بعد

صغيرة وتكل الطرف من أمم

قد هذب الله إعظاماً خليقته ولــم ينبــه لمعنــاه خليفتــه

فكيف يبلغ ذو جهد طريقته وكيف يدرك في الدنيا حقيقته

قوم نيام تسلوا عنه بالحلم؟![٢]

لها تتمة في العدد القادم.

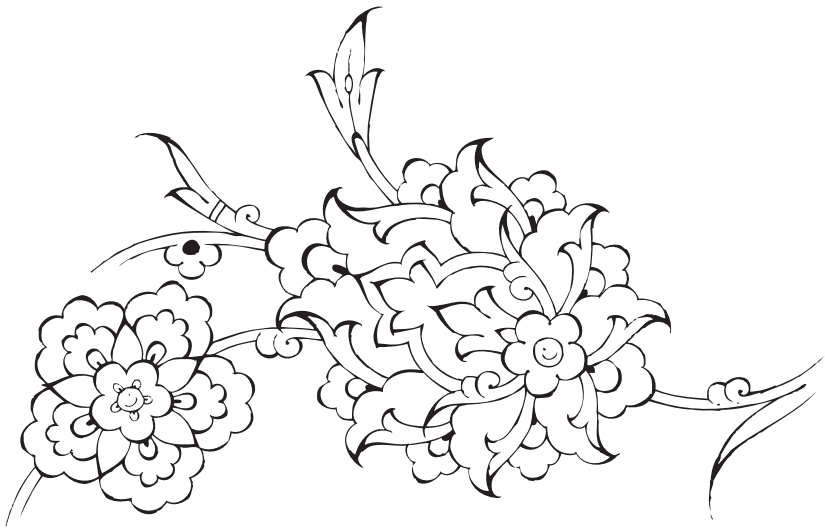

الهوامش:

١ . هــو الحبيب الذي ترجى شــفاعته * لكل هول من الأهوال مقتحم؛ كتب هذا الشــعر على بــاب بيت فاطمة الزهــراء عليها السلام في المســجد النبــوي الشريف.

٢ . أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين٩ : ٣٠٣ ـ ٣١٠ ؛ مجلة تراثنا ـ مؤسســة آل البيت عليهم السلام ٦٠ : ٣٢٦ ـ ٣٣١.

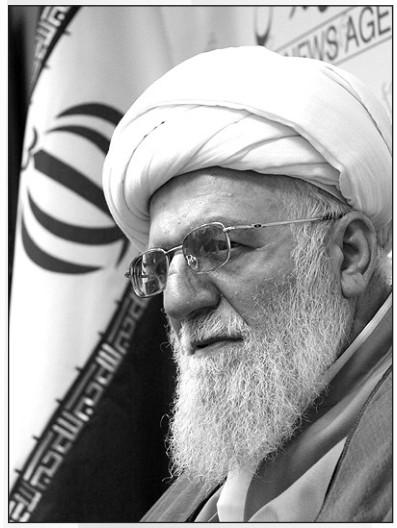

مقالة وحوار:
الحج جوّ نموذجي للتقريب والوحدة

آية الله الشيخ محمدعلي التسخيري

الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

إنّ (الوحدة الإسلامية) هي إحدى خصائص الأمة الإسلامية المهمة،

ولا يمكن أن نتصور أمة إسلامية متكاملة الشخصية دونما تصور لهذه الخصيصة، وبدونها تكون الأمة قد فقدت الكثير من خصائصها الأخرى؛ وربما تكون قد فقدت خاصية الإيمان الصادق بالله العظيم، وبطريقها الإسلامي الواحد.

ولا تعني الوحدة الإسلامية قولبة كل الأفكار، ووحدة كل الأنماط الفكرية والذوقية، وأمثال ذلك، فإنّ ذلك من المستحيل؛ وإنما تعني الاستجابة للبرنامج الإسلامي المخطط، وتكوين أمة تقيم التوازن بين خطين اساسيين:

أحدهما: هذا الاختلاف الطبيعي بين الأذواق والامكانات والمستويات العلمية، وزوايا النظر، والثقافات والأدلة، وكيفية الاستنباط، والقناعات التحقيقية، وأمثال ذلك، من الأسباب الطبيعية التي تنتج الاختلاف، وقد بحثها علماؤنا الأجلاء منذ القرون العديدة.

وثانيهما: لزوم الموقف الموحد في مجالات عديدة أهمها:

أ ـ الأصول الإسلامية، الأولى التي تقع موقع البديهيات الإسلامية، فيجب أن تشكل المساحات الفكرية المشتركة.

ب ـ الأخلاقية العامة التي تشكل الخصيصة المشتركة الأخرى، بل يتعدى الأمر هذه المساحة إلى حيث يشغل كل الخصائص العامة للأمة الإسلامية؛ فيجب أن يعمل كل المسلمين على التحلي بهذه الخصائص، أو على أن تتحلى أمتهم بها.

ج ـ تطبيق الشريعة الإسلامية على كل جوانب الحياة، ويمكن أن يعد هذا من البديهيات الفقهية للإسلام، باعتباره أطروحة حياتية جاء الأنبياء جميعاً ليعدوا البشرية

لتقبلها وتطبيقها.

د ـ الموقف السياسي الموحد من القضايا العالمية، وخصوصاً في قبال أعداء القضية كلها، وهم المشركون والمنافقون والمستكبرون، والعمل على الدفاع عن بيضة الإسلام.

هذه ـ إجمالاً ـ هي المجالات التي يجب أن تتوحد فيها الأمة.

فإذا تم هذا عدنا إلى ما قلناه من أنّ الأمة الإسلامية يجب أن تحقق هذا التوازن بين الخطين، فتضمن من جهة تدفق الأفكار الجادة، ونشاط الاجتهادات المفيدة، في نفس الوقت الذي تضمن فيه الموقف الموحد في المجالات الآنفة.

وهناك برنامج إسلامي واسع لتحقيق هذا التعادل، ولا نستطيع أن نتناول كل أطرافه هنا، فهو واسع الأبعاد.

والحقيقة أنّ من يلحظ الأمور التالية يدرك عمق التخطيط الإسلامي لتحقيق الوحدة الإسلامية وهي:

أولاً: إنّ الوحدة التي يسعى لها الإسلام تقوم على أساس العقيدة والعاطفة معاً، والتي يتم التعبير عنها بوحدة القلوب.

ومجمل العقيدة الإسلامية في أصولها، وبرنامج الشد العاطفي الإسلامي يتكفلان بما لا مزيد عليه بتحقيق ذلك بأروع صورة.

ثانياً: إنّ النظام الإسلامي يوقف المسلمين جميعاً دونما أي تمييز أمامه على حد سواء، ويشعرهم بلزوم تحمل مسؤولياتهم المشتركة تجاهه دونما أي تقصير، وإلا وجه اللوم للجميع على حد سواء.

ثالثاً: حذف الإسلام كل مقاييس التفاضل، وأبقى على المقاييس المعنوية فقط، وهي: (التقوى، والعلم، والجهاد، والعمل) لا غير؛ ووفر بذلك أروع أرضية للوحدة.

رابعاً: هناك مساحات فعلية تشعر

المسلمين بوحدتهم، من قبيل ما تقرره الشريعة من ملكية عامة لأفراد الأمة في (الأراضي المفتوحة بالقوة).

خامساً: ويقف نظام العبادات في طليعة النظم التي تؤدي إلى تعميق العقلانية، والتوازن، والتقريب، والوحدة الإسلامية، حيث يقف المسلمون في كل بقاع الأرض في وقت واحد ـ عرفاً ـ متجهين إلى مكان واحد، ومرددين ذكراً واحداً، ومؤدين لعمل واحد، وملتزمين بشروط واحدة.

وحين تدخل الأمة الإسلامية كلها في عملية تربوية كبرى في كل سنة شهراً واحداً وذلك بملء إرادتها، فهي تتدرب على استرجاع إنسانيتها، وتعميق جذورها في النفوس.

الحج عملية تربوية رائعة

وهكذا نصل إلى الحج كعملية تربوية رائعة، يجتمع فيها ممثلو الإنسانية المسلمة، من كل حدب وصوب، ليتدربوا فيها على أمور كثيرة جداً، وليحققوا منافع كبرى لهم في حياتهم المعنوية والمادية، فتنغرس في نفوسهم معاني الأمة الواحدة العابدة الطائفة حول التوحيد، والرافضة للنظم الوضعية والأخلاق الصنمية، والملتزمة بحدود الله وحرماته، والنازعة لكل العناصر المفرقة مادياً بين البشر، والمتبرئة من المشركين، والمحاسبة نفسها وحكامها على ما اكتسبوا، وغير ذلك من الفوائد الجمة.

ولكي يضمن الإسلام للحج أن يؤدي دوره الوحدوي العظيم في حياة الأمة، فقد قرن به أموراً، وخصه بخصائص كلها تعمل بتناسق على تحقيق أهدافه.

فهناك الظروف المكانية حيث بيت التوحيد الذي خصه الله بخصائصه يوم خلق الأرض، والذي

بناه أبو التوحيد إبراهيم عليه السلام والذي يحمل في كل جنباته بصمات الأنبياء، وفي طليعتها بصمات الرسالة الإسلامية وقادتها العظام.

وهناك الظروف الزمانية حيث الشهر الحرام، وحيث الأيام العشر التي يهبها الله للبشرية، لكي تستكمل استعدادها لقبول الرسالة الإلهية، ويتبع هذه الظروف.

وهناك العيد، يوم العودة الإنسانية إلى ربها، والعودة الإلهية بالرحمة للعبيد.

وهناك المناسك الرائعة المعنى، وكل منها يرمز إلى عطاء كبير، ومضمون سخي، كالإحرام، والطواف، والوقوف، والنحر، والحلق، والرمي، وغيرها من المناسك الجمة التعبير.

وهناك الأذكار والأدعية التي تتناغم مع تلك المناسك غاية التناغم، وتحقق الهدف المنشود.

ولكي تتم الشريعة الإسلامية الجو المنشود للتأثير، طرحت فكرة القدسية والأمان، لهذا المكان وهذه الفترة، فأكملت بذلك العطاء.

وهاتان الصفتان تملكان مضامين اجتماعية كبرى نلخصها بما يلي:

أولاً: الإشعار بأنّ البيت الحرام وهذه البقعة المقدسة التي تحيط به، هي مدار حركة الأرض، وأنّ على البشرية إذا أرادت لنفسها الأمان من الأهواء، والآلهة الوهمية، والضياع في متاهات الضلال، أن تطوف حول هذا البيت، وتعمل بالشريعة التي تبشر بها، وتتأصل في وجودها معاني التوحيد التي يرمز إليها، فالأمان الحقيقي هو أمان هذا البيت، والأمان الحقيقي هو الأمان الذي ينبع من الاعتقاد بالله العظيم، والالتجاء إليه تعالى، وهو القادر المطلق، والأمان المطلق للخائفين، والرحيم الودود بعباده،

وحينئذ فلا خوف من المستقبل، ولا حزن على الماضي.

إنه أمان اللجوء إلى نظام الله، والتخلص من ضلال النظم الوضعية.

وإنه أمان اللجوء إلى رضا الله، كمقياس موحد للبشرية، والتخلص من المقاييس المادية الممزقة.

وإنه أمان التلاحم بين القلوب المخلصة التي تعمل لتحقيق خصائص الأمة الإسلامية.

وإنه أمان الأجيال الإنسانية المتتابعة على خط واحد، تترسم سبيل الأنبياء، وتنفذ أوامر الله تعالى كالملائكة المطيفين بعرش الله.

وإنه أمان الحاملين لعلم الله، ولواء الإسلام الحنيف.

كل هذه المعاني يبعثها في النفوس هذا الحكم الإلهي المهم.

يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«وفرض عليكم حج بيته الحرام، الذي جعله قبلة للأنام، يردونه ورود الأنعام، ويألهون إليه ولوه الحمام، وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزته، واختار من خلقه سماعاً أجابوا إليه دعوته، وصدقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عند موعد مغفرته، جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً، وللعائذين حرماً، فرض حقه، وأوجب حجه، وكتب عليكم وفادته».[1]

ونحن نلاحظ في هذا النص الشريف التأكيد على:

أ ـ الارتباط العاطفي للأنام بهذا البيت الحرام، تواضعاً لعظمة الله.

ب ـ الاختيار والتوفيق الإلهي لمجموعة من كل منطقة ليمثلوا كلّ الأرض في هذه الدورة التدريبية

السماوية الرائعة.

ج ـ إنّ هؤلاء يشعرون بأنهم بهذا يجيبون دعوة الله، ويصدقون بكلمة الله، ويمشون على خط أنبيائه؛ (خصوصاً بعد تصور حج الأنبياء جميعاً لهذا البيت).

ويتشبهون بملائكة الله الطائفين حول العرش (من حيث تنفيذ أوامر الله، وجذب الكون كله لطاعة الله)، ويستغلون هذا الموسم لإنماء التكامل العبودي في وجودهم، والحصول على المغفرة الإلهية المنشودة.

ثانياً: الإشعار بضرورة أن يكون للناس مركز يقول فيه كل مسلم كلمته بكل حرية، ويتبادل المؤمنون فيه الأفكار، دونما سلطة من جبار أو حاكم مهما كان لونه ومنزلته، فيتحول الحج من خلال ذلك إلى مؤتمر عالمي، يتجمع فيه ممثلو الأمم، ويتدارسون أحوالهم، وما يحيط بمجتمعاتهم من مخاطر ومشاكل، وما ينبغي أن يطرحوه من حلول، ويتعرفون على الوسائل التي ينفذ فيها كل فرد مسلم واجبه تجاه الآخرين، ويلاحظون الدسائس والمخططات الاستكبارية المعادية لمسيرتهم التوحيدية الخالصة، وينددون بها، ويتعرفون على أساليب الوقوف الموحد بوجهها.

وربما استطعنا أن نستفيد هذه المعاني من التقارن الآتي في الآية الكريمة: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً**﴾ وهذه حقيقة أشار إليها الكثير ممن درسوا هذه الشعيرة الإسلامية المهمة، حتى سمي الحج بالمؤتمر الحرّ السنوي العام للمسلمين.

هذا، وقد كان الحرم كما رأينا موضعاً مقدساً يقول فيه الناس آراءهم بكل حرية، حتى في الجاهلية، الأمر الذي كان يستفيد

منه الرسول صلى الله عليه وآله ليعلن دعوته المباركة بكل حرية تماماً كما استفاد من انتساب البيت لإبراهيم عليه السلام لإحياء نداء إبراهيم التوحيدي، ونفي شبهات اليهود والنصارى.

ثالثاً: الإشعار بالتلاحم بين القدسية والأمان، في ظل الحكم الإلهي الأصيل.. وإنه إذا كان الحرم لله ـ ولذا صار محلاً للأمن والقدس ـ فإنّ كل الوجود لله، وإنّ إشعاعات هذه الحقيقة لتمتد إلى كل الوجود، ولذا فلا مجال لأي طغيان، أو تخويف، أو إرعاب المؤمنين بالله، فإذا لم تتحقق هذه الحقيقة في كل الأرض، فإنّ على المؤمنين أن يعملوا على توسعة هذه الدائرة المقدسة الآمنة، لتصل إلى مرحلتها الشاملة.

رابعاً: كما قد تكون هاتان الخصيصتان (القدسية والأمان) سراً من أسرار انجذاب القلوب إلى هذه البقعة الطاهرة، والتنعم بعطائها الكبير، وهو ما لاحظناه في النص السابق عن الإمام علي عليه السلام حينما قال: «ويألهون إليه ولوه الحمام». إنّ القلوب ترد هذه الأماكن الطاهرة بكل عشق وولوه، وتتطهر في أجوائها المضمخة بالطهر الإلهي النقي، وترجع إلى حياتها الاجتماعية، بعيدة عن أوضار المادة، سليمة طاهرة، تتلقى العطاء الإلهي بكل صفاء، وتنشر الرحمة الود والعطف في أرجاء المجتمع، موفرة الجوّ العاطفي المطلوب في المجتمع الإسلامي.

هذا بالاضافة إلى أنّ الجوّ العاطفي الملتهب حباً يدع القلوب أكثر استعداداً وإقبالاً على العبادة، واستماع الوحي، والتعلق بالمضامين التي ترمز إليها عملية الحج، وما هي في الواقع إلا تربية عبادية سياسية، على إقامة المجتمع المسلم لله.

خامساً: ثم إنّ هذا الأمان المعطى للإنسان، والحيوان، والأعشاب، والأرض، في هذه البقعة المقدسة، ليعبر عن تلاحم طبيعي رائع بين عناصر الكون، لتحقيق هدف الإنسان الكبير.

وقد جاءت روايات تؤكد التوافق الطبيعي بين الإنسان والطبيعة في عملية الحج، بل في كل المسيرة الحياتية.

وقد جاءت الرواية عن الرسول صلى الله عليه وآله إنه عندما رجع من غزوة تبوك وأشرف على المدينة قال: «هذه طابة وهذا جبل أحد يحبنا ونحبه». [٢]

وقد روى المرحوم الكليني بإسناده عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أحرم موسى من رملة مصر قال: ومر بصفائح الروحاء محرماً يقود ناقة بخطام من ليف عليه عباءتان قطوانيتان، يلبي وتجيبه الجبال».

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما من مهل يهل بالتلبية إلا أهل من عن يمينه من شيء إلى مقطع التراب، ومن عن يساره إلى مقطع التراب، وقال له الملكان أبشر يا عبدالله وما يبشرالله عبداً إلا بالجنة». [٣]

إنّ هذه المعاني لتترك أثرها في نظرة الإنسان إلى الكون والحياة، وتذكره بأنّ الكون معه إن سار في خط الأنبياء، وراح يحقق مقتضيات الخلافة الإلهية في الأرض، ويبني المجتمع العابد المسلم.

وهكذا نجد أنّ الحج يشكل الجوّ النموذجي الذي يتم فيه تقارب الأفكار الممهد، لتحقيق الوحدة في المواقف العملية، والتوازن، والوسطية، والعقلانية المطلوبة؛ كل ذلك في إطار رائع من العبودية الخالصة، والتقدس العرفاني الجميل.

أسباب تشتت الأمة الإسلامية

لقد أمر الله المسلمين بالوحدة، ونبذ الفرقة؛ حيث قال:

﴿وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَميعاً وَ لا تَفَرَّقُوا﴾

ومن هـذا المنطلق أصبحت وحدة الأمة الإسـلامية أمراً ضرورياً، وبها تقوّي الأمة، وتسـتعيد مجدها، وتبلغ عظمتها، ويحصل المسلمون بها على الصلاح والفلاح.

وتقيض الوحدة وبركاتها هناك الفرقة والشـتات اللتان تضعفان الأمة، وتجلبان لها الفشل والذل.

وكأنّ أعداء الإسلام بعد أن يئسوا من مواجهة المسلمين؛ عمدوا إلى بث الفرقة والخلاف بين أبناء الأمة، سـعياً منهم للوصول إلى مآربهم ومطامعهم، من خلال الشعار التقليدي للمستعمرين: «فَرِّق تَسُد».

وما أشـبه اليـوم بالبارحة؛ فقد عمد أعداء الأمة الإسـلامية لبثّ الفرقة بين أتباع المذاهب الإسـلامية؛ بل وتفنّنوا في ذلك حتى أصبح الأمر أكثر تعقيداً؛ فعلى العلماء وأتباع المذاهب الإسلامية والحكومات والدول الإسـلامية، أن تعي هذه الفتنة، وتكون على أهبة الاستعداد لمواجهة هذه المؤامرة الكبرى التي خطط لها أعداء الإسلام.

وقد أجري هذا الحـوار مع الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسـلامية سماحة آية الله الشـيخ محمدعلي التسخيري؛ حول ذلك الموضوع:

بالرغم من أن القرآن الكريم أمر المسلمين بالوحدة؛ وأكدتها الأحاديث الشريفة والعقل؛ لكنّنا لم نر تحققها على أرض الواقع بين أبناء الأمّة الإسلامية ؛ لماذا؟

آية الله التسخيري: بسم الله الرحمن الرحيم، كما تفضلتم وبالرغم من أن القرآن الكريم أمر المسلمين بالإلتزام بالوحدة، وأكد ضرورتها من خلال تبيين أدلة محكمة؛ لكننا نعيش في وضع وهن وهش. وأحاطت بنا الفتن والخلافات؛ وراح البعض يقسم الأمة على أساس اللغة؛ فيما ذهب الآخرون لتصنيفها على أساس المذهب؛ ولجأ الآخرون للظروف الجغرافية وهكذا دواليك... حتى تمزقت الأمة!...

لكن أعتقد أن أهمّ أسباب تمزيق الأمة الإسلامية هي الأسباب الخارجية؛ أي أعداء الإسلام والمسلمين. فعلى مدى التاريخ حاول الأعداء؛ تمزيق هذه الأمة وتشتيتها؛ ومنذ الصدر الأول للإسلام، ومنذ ازدياد توغل الغرب في البلاد الإسلامية، وجدناه يضاعف من جهوده لمنع تحقيق أي نوع من أنواع الوحدة بين المسلمين.

وأعتقد أن عوامل أخرى مثل عمالة بعض الحكام، وأصحاب المصالح المادية، الذين يحاولون الحصول عليها كانت وراء ذلك، حتى أن بعض زعماء المذاهب راح يفكر بمصالحه أكثر من مصالح الأمة الإسلامية.

كما أن المجموعات التكفيرية والمتطرفة التي تعتبر نفسها الحقيقة المطلقة، وترمي الآخرين بالكفر والضلال؛ ساعدت على تبديد وتشتيت شمل الأمة.

بناءاً على ماذكرتموه؛ إذاً يجب إزالة العوامل الرئيسة الثلاثة التي أدت إلى تمزيق وتفريق الأمة؛ وهنا نتساءل ما هي الخطوات الجادة لإزالة هذه العوامل؟

آية الله التسخيري: نحن نعتقد؛ لتخليص هذه الأمة وللوصول للوحدة، يجب إزالة هذه العوامل؛ يجب تقليل نفوذ وتوغل الأجانب والحكام المفسدين في البلاد الإسلامية كما يجب السيطرة على الأمور المثيرة للفتن.

ولمثل هذا العمل يجب رفع مستوى وعي المسلمين، ونشر ثقافة الإيمان بالمعنويات والغيبيات.

الإستكبار والاستعمار، والمتاجرون بالدين، وأصحاب المصالح، والسلطويون، عارضوا الإسلام منذ الصدر الأول، وحاولوا كثيراً في بثّ الفرقة بين أبناء الأمة الإسلامية.
وفي القرون الماضية الأخيرة، استخدمت الدول الإستكبارية الأساليب نفسها، ولكن بطرق أكثر فنية ـ علماً أننا لا نتوقع من أعداء الإسلام غير ذلك ـ لكن بعض حكام الدول الإسلامية ـ ومع كل الأسف ـ يتظاهرون بإنتمائهم للإسلام؛ لكن في باطن أنظمتهم لا يعتقدون بذلك، بل ولا يسمحون بتحقيق الوحدة التي يطرحها القرآن؛ على صعيد آخر تجسد المجموعات التكفيرية الضلع الثالث لهذا المثلث المشؤوم؛ كيف تنظرون إلى ذلك من الناحية التاريخية؟

آيةالله التسخيري: عندما ظهر الإسلام؛ جاء بتوسيع العقلانية؛

وكلما توسعت العقلانية نرى المجتمع يسير باتجاه الوحدة.

ففي بداية تشـــكيل المذاهب ورغم وجود الاختلافات النظرية بين أئمة المذاهب أنفسهم، إلاّ أنّهم كانوا يحترمون الطرف الآخر باعتباره مســـلماً، ويحتفظون بعلاقاتهم العقلانية. فكان الإختلاف في الإجتهاد، وكانت المحبة والأخـــوة موجودتين أيضاً، ولم يكفّـــر أيّ طرف الطرف الآخر؛ لكن بعد عدة قرون؛ وجدنا القضية المذهبية انقلبت إلى قضية طائفيـــة، وأصبح أتباع كل مذهب يتصورون بأنهم هم أصحاب الحق؛ والحقيقة لديهم فقط؛ وأنّ الآخرين خارجون عن الأمة وليسوا منها!...

هل أن نقل مرحلة الاختلاف من الخطأ والصواب إلى مرحلة الكفر والإيمان، يعني بداية مرحلة التفريق بين أبناء الأمة الإسلامية؟

آيةالله التسخيري: بالتأكيد؛ فالمتعصبون وأصحاب المصالح بدأوا من هذه النقطة. فعندما بدأت خطوة التكفير والتفسيق؛ صعّد السفهاء من

أتباع حركة التكفير والتفسيق ضد أبناء الأمة، وسالت الدماء والدموع؛ وللحد من هذه الظاهرة علينا سوق أتباع المذاهب للتعقل، ونقل الاختلاف من مرحلة الكفر والإيمان إلى مرحلة الخطأ والصواب.

هناك من يقول أن زعماء الفرق وأتباعهم انتقلوا من مرحلة المعنوية والعقلانية إلى الأنانية، هل هذا صحيح؟

آيةالله التسخيري: في الحقيقة كان الأمر كذلك؛ فكلما ابتعدوا عن القراءة الصحيحة للإسلام؛ اقتربوا من هوى النفس والمصالح المادية؛ وابتلوا بالطائفية، والفتن المذهبية، والتكفير، وما إلى ذلك؛ حتى بلغ بهم الأمر؛ لينزلوا ذات يوم إلى الشارع، ويذبحوا الشيعة ويريقوا دماءهم؛ وفي اليوم التالي يفعلون نفس الأمر بالسنة، وينسبوه للشيعة، وقد تكررت الحالة عدة مرات!...

مع كون أن من يقوم بهذه المجازر ليس من الشيعة، ولا من أهل السنة؛ فهل هو التدخل الأجنبي؟ كما قال السيد خالد مشعل مؤخراً: إن الإقتتال الداخلي الفلسطيني كان نتيجة للتدخل الأمريكي ـ الإسرائيلي!

آيةالله التسخيري: نعم؛ فإنّ الكثير من الأخطاء مصدرها الجهل والعصبية، والمصالح القصيرة الأمد، وإثارات الأعداء؛ وما نراه من إثارة الفتن المضرة بوحدة المسلمين ـ كما يقول قائد الثورة الإسلامية ـ هي من افتعال أعداء الأمة الإسلامية، لأنهم يرون مصالحهم في تشتيت المسلمين.

أعتقــد أنّ الأعداء هم العامل الرئيس في ذلك؛ خاصة بعد فشــل خططهــم الهجومية في المنطقة وإيران، وأفغانســتان، والعراق، وأخيراً في لبنان؛ الأمــر الذي اضطرهم للجوء إلى النفاق والتزوير؛ أي عندما لم يحققوا أهدافهم بالقوة؛ لجأوا إلى المكر والحيلة.

لقد تمكن الاســتكبار من افتعال أجواء صعبة في العالم الإسلامي؛ فمن جهة يروّج الاســتكبار بين أهل الســنة أن عدوّهم الرئيس هم الشــيعة؛ وفي نفس الوقت يحاول إقناع الشيعة بأن مشكلتهم الرئيس مع أهل الســنة؛ كمــا يحاول إقناع العالم الإســلامي أن عدوه الرئيس هي إيران ـ ومع بالغ الأســف ـ فإن بعض العوام وحتى بعض زعماء الدول و الفرق الإسلامية وقعوا في هذه الفتن.

في مثل هذه الأجواء ماهي الأجندة والنماذج التي يعتمدها أعداء الإسلام للتفرقة بين أبناء الأمة الإسلامية؟

آية الله التسخيري: إحدى أهم هذه الأجندة هي النزاعات السياسية التي افتعلوها في البلدان الإســلامية؛ ويحاولون إسباغ الطابع المذهبي عليها ويقولون إنّ النزاعات السياســية باعتبارهــا نزاعات مذهبية!.. وبالرغم من أن الشــيعة والســنة لم تكن لهم أي مشــكلة في العراق ولبنان وأفغانستان وإيران؛ إلاّ أنهم يحاولون تسمية النزاعات السياسية فيها بأنها نزاعات مذهبية.

والطريقة الأخرى هي تخويف الحــكام والحكومات الضعيفة وغير الشعبية من الحكومة الإيرانية القائمة على الدين والشعب، ويحاولون

إبعادهـــم عن إيران، ويحاولـــون وضع حدّ للنفـــوذ المعنوي لإيران في باقي البلدان الإســـلامية؛ وبالتالي تقديم الصـــراع الرئيس في العالم و الذي يدور بين الاســـتكبار العالمي والصحوة الإسلامية؛ بأنه صراع بين الفرق والمذاهب الإسلامية، ويكرسوا بآلياتهم النزاعات في العالم الإسلامي، كي يضعف أكثر فأكثر.

وبالتالي يريدون إقناع الشيعي بأنّ السني عدوّه؛ وإقناع السني بأنّ الفرقـــة الفلانية عدوه؛ فيما يحاولون إقنـــاع الجميع بأن إيران عدوهم الرئيس؛ وبذلك يختلقون أعداء وهميين للفرق والمذاهب الإســـلامية لتتناحر فيما بينها.

برأيكم أي الفرق تخدم مصالح الأعداء في الوقت الراهن؟

آية الله التســـخيري: المتطرفون من الشـــيعة والسنة وكل المذاهب والفـــرق التي ابتعدت عن النهج المحمدي الأصيل. هناك فرق تســـاعد على توســـيع رقعـــة النزاعات وتخون الأهداف الإســـلامية. فمن بين الفرق السنية؛ الســـلفيون التكفيريون يعتبرون أنفسهم هم أصحاب الحـــق، ويكفرون باقـــي المذاهب، حتى أنّ مؤخـــراً تناقلت الأخبار نبأ استباحة دم باقي الفرق الإسلامية من قبل هؤلاء التكفيريين.

ولو امعنتم النظر؛ لوجـــدتم أنّ العمليات الانتحارية والتفجيرات الإرهابية تأتي نتيجة هذه الأفكار الحمقاء.

ومع الأسف هناك بعض الشيعة لا يحترمون مقدسات الطرف الآخر؛ ولا يعلمون أنّ عملهم هذا يبعث على القيام بفعل مشابه ضد مقدساتهم.

في حين أنّ القرآن الكريم يقول: (وَلا تَسُبُّوا الَّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّوا اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ...) أي كي لا يستهين المشرك بالله عزّوجلّ. ومثل هذه الأعمال لا يرضاها ولا ترضاها الأحاديث الشريفة.

برأيكم ما هو واجب عقلاء القوم من الشيعة والسنة حيال المغالين والتكفيريين؟

آية الله التسخيري: أعتقد على عقلاء كل مذهب أن يرشدوا سفهاء مذهبهم ويراقبوا أعمالهم ويواظبوا على نصحهم؛ كي لا ينحرفوا؛ وإذا ما انحرفوا يرجعونهم إلى الطريق الصواب ويوبخونهم إذا اقتضى الأمر. وهذا عمل إذا تمّ تطبيقه، فإنه يمهد للتقريب بين المذاهب، وتوحيد الأمة، و يمنع الفرقة والتشتت.

أنتم الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية؛ ما هو المطلوب لأجل التقريب بين المذاهب الإسلامية؛ وماهي العلاقة بين التقريب والوحدة؟

آية الله التسخيري: الاختلاف في الفكر والاجتهاد يعتبر أمراً طبيعياً والتقريب يعني العثور على الأرضية المشتركة بين الأفكار؛ وتنمية هذه الأرضية تساعد على حل الخلافات وقبول عذر الطرف الآخر وتتحمله في كثير من الأحيان.

نحن في مواقفنا العملية نعتقد بالوحدة. وعلى كل الفرق والمذاهب الإسلامية أن تتخذ مواقف مشتركة حيال التحديات العالمية؛ كما أنها

بركة الوحدة يمكن أن تجد الأرضية المناسبة لتطبيق أحكام القرآن والسنة النبوية الشريفة.

نعود إلى الحديث عن إزالة موانع الوحدة؛ هناك من يرى في السيطرة على الغلاة والمتطرفين من كل مذهب، ودعوتهم للتأمل والتعقل الاسلامي، وإشاعة المشاعر المعنوية بين المسلمين، هل كل ذلك يساهم في توحيد الأمة الإسلامية؟

آية الله التسخيري: نعم، على العلماء أن يُفهموا الآخرين إننا أمة واحدة. على الجميع أن يعتقدوا بذلك. ويجب الإعلان للجميع بأن ـ من آمن بالأصول الإسلامية ـ فهو من الأمة.

ومن حسن الحظ أن أيّا من المذاهب الإسلامية لا ينكر الأصول؛ إنهم أبناء هذه الأمة الإسلامية؛ وعلى عقلاء القوم أن يقنعوا الآخرين

ـ بأن من آمن بالتوحيد والنبوة والمعاد ـ فهو مسلم ودمه وماله مصان ولا يجوز التعرض له.

نحن لدينا الكثير من القواسم المشتركة؛ لدينا ٩٠٪ مشتركات في الشريعة والعقيدة؛ و١٠٪ الباقية اجتهادية، وهذا طبيعي جداً ومقبول عقلياً. ولا يصح أن نترك المشتركات التي تصل إلى ٩٠٪ لنركز على الخلافات التي لا تزيد عن ١٠٪ فقط.

هناك من يرى أن العدو لجأ إلى شتى أنواع المكر والحيلة والتزوير؛ والتخويف والتهويل حتى أنه تمكن من إغفال الكثير من البسطاء والمغالين والتكفيريين، ليركّز على الاختلافات البسيطة؛ ـ هذا ما سبب التشرذم بين أبناء الأمة الإسلامية ـ فما هو رأيكم؟

آية الله التسخيري: هو كذلك، فيما يخص الشؤون المختلف عليها، ويحاول العدو استغلالها؛ علينا أن نتحمل الطرف الآخر.

في الحقيقة يجب أن نتحمل أعذار الآخرين، ونسمح لهم بقبول ما يستحسنوه؛ وأن نحذر من إهانة الطرف الآخر كي لا نسمع أي إهانة؛ وفي البداية هذا واجب العلماء، وعليهم أن يشيعوا هذه الحالة ثم ينتقلوا إلى الأساليب المقبولة من أبناء الأمة. وعلى كل مسلم أن يحترم أخاه مهما كان مذهبه؛ يجب أن تكون نظرتنا نظرة أخوية.

إذاً يمكن القول، إنّ تحقيق الوحدة الإسلامية رهن بمكافحة مثيري الفتن؛ وتلاؤم قلوب علماء المذاهب؛ والتصدي للمغالين

والتكفيريين والمتطرفين من كل مذهب؛ لأن علماء المذاهب لهم دور هام في هذا المجال، لأنه يحد من الفرقة، ويصد المتطرفين، ويوحد الهمم للتصدي لمؤامرة الأعداء؛ فما هو الطريق لموائمة قلوب علماء المذاهب؟

آية الله التسخيري: هذا هو منطق القرآن الكريم. أعداؤنا رغم كل خلافاتهم هم متحدون ضدنا فإذاً لم لا نتوحد؟ سنغرق في الفتن والفساد، ومع بالغ الأسف، مازال بعض علماء المسلمين يجهلون هذه الأمور.

وأعتقد قبل كل شيء، يجب أن نوضح أهمية وضرورة الأمر لعلماء المسلمين، كي يعوا ويعتقدوا أن حركة التقريب تنفعهم في الدنيا والآخرة.

في اجتماعاتكم مع علماء المذاهب الإسلامية، كيف وجدتم ردود فعلهم أمام الدعوة للحوار والتفاهم؟

آية الله التسخيري: غالبيتهم يرحبون بذلك؛ بالرغم من أن بعض العلماء السلفيين و التكفيريين لا يهتمون بذلك؛ وعندما تتحدث إليهم تجد أنهم لا منطق لهم؛ وأعتقد أنّ حركة التقريب أصبحت اليوم ناشطة على مستوى العالم والمذاهب الإسلامية؛ وغالبية العلماء يعتبرونها الطريق الوحيد لإنقاذ المسلمين.

وقد عقدت عدة مؤتمرات في الأردن وسوريا والجزائر والمغرب والبحرين وأندونيسيا ومصر و... في هذا المجال؛ بالإضافة إلى أنّ منظمة

الآيسسكو جعلت التقريب هدفاً لها، والمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية ـ الذي يضم كل علماء المذاهب الإسلامية ـ يصرّ على التقريب، وقد حظي بإستقبال جيد حتى الآن.

والخلل الموجود حالياً هو ـ مع الأسف ـ أنّ الوضع العام للمجتمعات الإسلامية متأثر ببعض المؤامرات والثقافات الأجنبية، والتوترات الموجودة فيها هي نتيجة تلك المؤامرات والثقافات الدخيلة.

ماهي الخطوة والآلية المثلى التي يمكن المسلمون عبرها التعبير عن آرائهم وأعمالهم بعيداً عن القيود اللغوية والقومية والجغرافية؟

آية الله التسخيري: الأئمة المعصومون عليهم السلام كانوا يهتمون بالعالم الإسلامي بأسره؛ وهذا ما يتفق عليه الجميع.

لقد كانوا يهتمون بوحدة ومصلحة الأمة الإسلامية بأسرها. وعلى الذين يدعون السير على خطاهم ويعتبرون أنفسهم من محبي أهل البيت:؛ أن يتأسوا بهم.

صعد أعداء الأمة الإسلامية في السنين الأخيرة من مؤامراتهم وسبل إشاعة الفرقة بين الأمة الإسلامية؛ فهل من الصحيح أن نصعد نحن من مواجهتنا لمؤامرات العدو الهجومية، ونزيد من دفاعنا، ونتقدم ببرامج وخطى مدروسة ودقيقة على الصعيدين، ليجتمع علماء الإسلام لتتواءم أفكارهم، وآراؤهم أولاً؛ وليتصدوا لكل الحركات التي تصدر من السفهاء، وتشنج المواقف ثانياً؟

آية الله التســخيري: هذا صحيح؛ علينا أن نراجع ونصحح مناهج أعمالنا كل يوم، ونزيد من نشــاطاتنا في التصدي لمن يبث الفرقة بين الشيعة و السنة، ونبتعد عنهم.

فالإمــام الخميني ـ رضوان الله تعالى عليه ـ كان يقول: أولئك الذين يفرقون بين السنة والشيعة؛ لاهم من السنة ولاهم من الشيعة.

وعلى الحكومة أن تتصــدى للغلاة؛ لأن كل من يقوم بخطوة مثيرة، أو يكون أنانيا، فإنه يرتكب جريمة كبرى ضدّ الأمة الإسلامية؛ والذين يرتكبون مثل هذه الأعمال عليهم أن يعلموا أنهم يتحملون عبء دماء أبناء مذهبهم أيضاً.

وليس من العقل والإيمان أن نقوم بعمل؛ أو ننطق بكلام أو خطوة تســبب الفرقة وإضعاف الأمة الإســلامية؛ وبالتالــي يكون مردودها علينا.

بل علينا أن نعتبر أنفســنا أحد أعضاء الأمة الإســلامية؛ ونسعى لإعــلاء كلمتها واقتدارهــا، ونعتز ونتباهى بمفاخرهــا ومفاخر العالم الإسلامي ونقدم ما بوسعنا لها.

الهوامش:

١ . نهج البلاغة :٤٥.

٢ . سفينة البحار١ : ١٢.

٣ . وسائل الشيعة٩ : ٣.

شخصيات من الحرمين الشريفين (٣١)

ابن أمّ مكتوم

محمد سليمان

ما زلنا في حديث عن مدرسة الصحبة المباركة، وعن بعض من وفقوا لها، ونالوا حظاً وفيراً من آدابها وقيمها وأحكامها وثمراتها اليانعة في الدنيا والآخرة، وظلوا متمسكين بها أيما تمسك حتى ارتحلوا إلى بارئهم...

فها هو عبدالله بن أمِّ مكتوم واحد من رموزها، لم يمنعه كونه ضريراً عن التأثر بتلك الصحبة والاستفادة منها، وأداء ما عليه من التزامات نحوها.

اختلف في اسمه؛ فكان أهل المدينة المنورة يقولون: عبدالله بن قيس بن زائدة بن الأصم بن هرم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي القرشي العامري، المعروف بابن أم مكتوم؛ فيما أهل العراق، سمّوه عمراً، واسمه عَمْرو، وهو الأكثر كما في أسد الغابة، وهو الذي اعتمده في الإصابة، أو هو عبدالله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي وهو ابن خال أمِّ المؤمنين خديجة عليها السلام.

وأمه: هي عاتكة بنت عبدالله بن عنكثة بن عامر بن مخزوم بن يقظة المخزومية. ولدته أمّه ضرير البصر. يقول ابن عاشور: وكنيّت أمَّ مكتوم؛ لأن ابنها عبدالله ولد أعمى، والأعمى يكنى عنه بمكتوم. ونسب إلى أمه؛ لأنها أشرف بيتاً من بيت أبيه، لأنّ بني مخزوم من أهل بيوتات قريش فوق بني عامر بن لؤي. وهذا كما نسب عَمْرو بن المنذر ملكُ الحِيرة إلى أمه هند بنت الحارث بن عمرو بن حُجر آكِل المُرار زيادة في تشريفه بوراثة الملك من قبل أبيه وأمه. ووقع في «الكشاف»: أنّ أمّ مكتوم هي أمّ أبيه. وقال الطيبي: إنه وهَم.

وما ذكره الزمخشري هو التالي: ابن أمّ مكتوم، وأمّ مكتوم أمّ أبيه، واسمه عبدالله بن شريح بن مالك ابن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي.[1]

إسلامه وهجرته:

أسلم بمكة قديماً، هاجر إلى المدينة المنورة بعد مصعب بن عمير، قبل أن يهاجر الرسول صلى الله عليه وآله إليها وقبل

بدر قال البراء: أوّل من قدم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ مُصعب بن عمير وابن أمّ مكتوم، فجعلا يُقْرِئان النّاس القرآن. وكذا عن أبي إسحاق. وهناك قولٌ إنه هاجر بعد وقعة بدر، كما جاء في حلية الأولياء: قدم المدينة بعد بدر بيسير، فنزل الصفة مع أهلها، فأنزله النبي ﷺ دار الغذاء وهي دار مخرمة بن نوفل.

ويبدو أنّ هذا كان اشتباهاً، فقد وردت الأخبار أنّ رسول الله ﷺ استخلف ابن أمّ مكتوم على المدينة في غزوة بدر. وأيضاً حديث أبي إسحاق عن البراء قال: أول من قدم علينا مصعب بن عمير، ثم أتانا بعده عمرو بن أم مكتوم، فقالوا له: ما فعل من وراءك؟ قال: هم أولاء على أثري.[٢]

شيءٌ عن أهل الصفة:

كان ابن أمِّ مكتوم واحداً من أهل الصفة، فقد «كان الراتبون بالصفة نحو أربعمائة رجل منهم أبو هريرة وابن أمّ مكتوم وصهيب وسلمان وخباب وبلال والمؤمنون به (عليه السلام) منهم من قام بالجهاد، ومنهم من قام بالزراعة، ومنهم من قام بتقييد العلم، ومنهم قام بالقراءة، ومنهم من ركن للعبادة». وقد جعل رسول الله ﷺ جمعاً من الصحابة كاتباً للوحي، وكلما نزلت سورة أو آية أمر الكاتب فيكتبها، وكذلك أمر الصحابة بكتابة السنة، ورغبهم وشوقهم إلى ذلك، فكانوا يجلسون حوله ﷺ ويكتبون الأحاديث، حتى أنّ جمعاً من أصحاب الصفة قاموا بذلك وليس لهم شغل وعمل سواه.[٣]

استخلافه:

اتفقوا في استخلافه من قبل رسول الله ﷺ على المدينة المنورة في

غزواته، واختلفوا في عددها:

فابن عاشور قال: وقد استخلفه على المدينة في خروجه إلى الغزوات ثلاث عشرة مرة.[٤]

الشيخ الطبرسي: واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين.[٥]

فيما قال ابن عبد البر: روى جماعة من أهل العلم بالنسب والسير أنّ النبيﷺ استخلف ابن أمّ مكتوم ثلاث عشرة مرة في الأبواء وبواط وذي العشيرة، وغزوته في طلب كرز بن جابر، وغزوة السويق، وغطفان، وفي غزوة أحد، وحمراء الأسد، ونجران، وذات الرقاع، وفي خروجه من حجة الوداع، وفي خروجه إلى بدر، ثم استخلف أبا لبابة لما رده من الطريق. وذكر قتادة أنّ النبيﷺ استخلفه في المدينة على الصلاة في غزوتين من غزواته.

وأما الواقدي فقال: حدثني عبيدالله بن نوح، عن محمد بن سهل بن أبي حثمة، قال: استخلف رسول اللهﷺ ابن أمّ مكتوم على المدينة، فكان يجمع بهم ويخطب إلى جنب المنبر يجعله على يساره.

ففي معركة بدر الكبرى: خرج رسول اللهﷺ من المدينة في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه، قال ابن هشام: خرج يوم الاثنين لثمان ليال خلون من شهر رمضان، واستعمل عمرو بن أمّ مكتوم ويقال: اسمه عبدالله بن أم مكتوم أخا بني عامر بن لؤي على الصلاة بالناس، ثم ردَّ أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة.[٦] وفي خبر أنهﷺ لثلاث خلون من شهر رمضان ووقع القتال يوم الجمعة السابع عشر منه، واستخلف ابن أمّ مكتوم الضرير على المدينة مدة غيابهﷺ وقد دامت هذه المدة تسعة عشر يوماً.

في غزوة قرقرة الكدر، ناحية

معدن بني سليم مما يلي حارة العراق إلى مكة و هي على بعد ثمانية أيام من المدينة: استخلفه، و سارﷺ للنصف من المحرم يريد سليم و غطفان ـ قبيلتين من قيس عيلان ـ فانجفلوا، و غنم من أموالهم، و رجع و لم يلق كيداً.[٧]

في غزوة بفران معدن بني سليم بناحية الفرع من الحجاز، استخلفه وقت غيابهﷺ عن المدينة عشرة أيام من جمادى الآخرة، فتفرقوا و لم يلق كيداً.[٨]

استخلف ابن أمّ مكتوم في غزوة أحد، و قاتل المشركين في سفح.

استخلفه في غزوة الخندق، و هو يقاتل الأحزاب دون الخندق من داخل المدينة في شهر شوال أو ذي القعدة.

في غزوة حمراء الأسد، وهي على بعد عشرة أميال من المدينة، استخلفه على المدينة لما سارﷺ في طلب أبي سفيان، حين بلغه أنه يريد الكر على المدينة، ففاته أبوسفيان و من معه فأقام فيها ثلاثة أيام، ثم عاد إلى المدينة.

استخلفه على المدينة في غزوة بني النضير بناحية الغرس، وكانت منازل بني النضير من اليهود ببئر غرس بقبا و ما والاها، و قبا قرية على ميلين من المدينة، و أصله اسم بئر هناك عرفت القرية به، حصرهم خمسة عشر يوماً، ثم أجلاهم عنها.[٩]

استخلفه في غزوة دومة الجندل، حين سار إلى أكيدر بن عبدالملك النصراني ـ وكان يعترض سفر المدينة و تجارتهم ـ فهرب وتفرق أهلها، فلم يجد بها أحداً، فأقام أيام وعاد إلى المدينة وهي أول غزواته إلى الروم. كانت دومة الجندل حصناً مبنياً بالجندل في متسع من الأرض خمسة فراسخ، و هي على سبع مراحل من دمشق، بينها وبين مدينة الرسولﷺ

خمس عشرة ليلة.[١٠]

استخلفه خمس ليال على المدينة في غزوة ذي قــرد وهي على ليلتين مــن المدينــة، وموقــع ذي قرد من طريق خيــبر، وكان عيينة بن حصن الفــزاري أغــار علــى لقاحه وهو بالغابة وهي على بريد من المدينة أو أكثر. فخرج صلى الله عليه وآله يوم الأربعاء لثلاث أو لأربع خلون من شهر ربيع الأول، فاستنقذ بعضها وعاد إلى المدينة.

اســتخلفه على المدينة في غزوة الحديبية، حين خرج الرسول صلى الله عليه وآله يوم الاثنــين هلال ذي الحجــة للعمرة، فصده المشــركون عــن دخول مكة، فأقام بالحديبية على تسعة أميال من مكة، ثم وقع الصلح بين الرســول وقريــش على أن يعتمر في الســنة القادمة.[١١]

مؤذن النبي صلى الله عليه وآله :

عرف كل من الصحابيين الجليلين بلال بن رباح وابن أمّ مكتوم بأنهما مؤذنــا رســول الله صلى الله عليه وآله لصدقهمــا ولجمال صوتهما ونبرتهما القوية... فإن أذن بلال للصلاة، أقام لها ابن أمّ مكتوم، وإن أذن ابن أمّ مكتوم، أقام بلال للصــلاة، وهكذا كانا يتبادلان هــذه الوظيفة المباركــة، وهي منزلة عظيمة وفّقــا لها أيما توفيق، وما زال المسلمون يذكرونهما بذلك.

ونسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: إنّ بلالاً ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى ينادي ابــن أمّ مكتوم... ولأنه كان أعمى فــلا ينادي حتى يقال له: أصبحت، أصبحت.

وقد ذكر في الفقه أنّ مما يستحب في المؤذن أن يكون مبصراً؛ ليتمكن من معرفة الأوقات، لكنهم مع هذا أجــازوا أذان الأعمى، وأنه يعتدُ به؛ لمــا ورد في أذان ابن أمّ مكتوم وكان أعمى.

فقــد ورد في الفقيــه: وكان

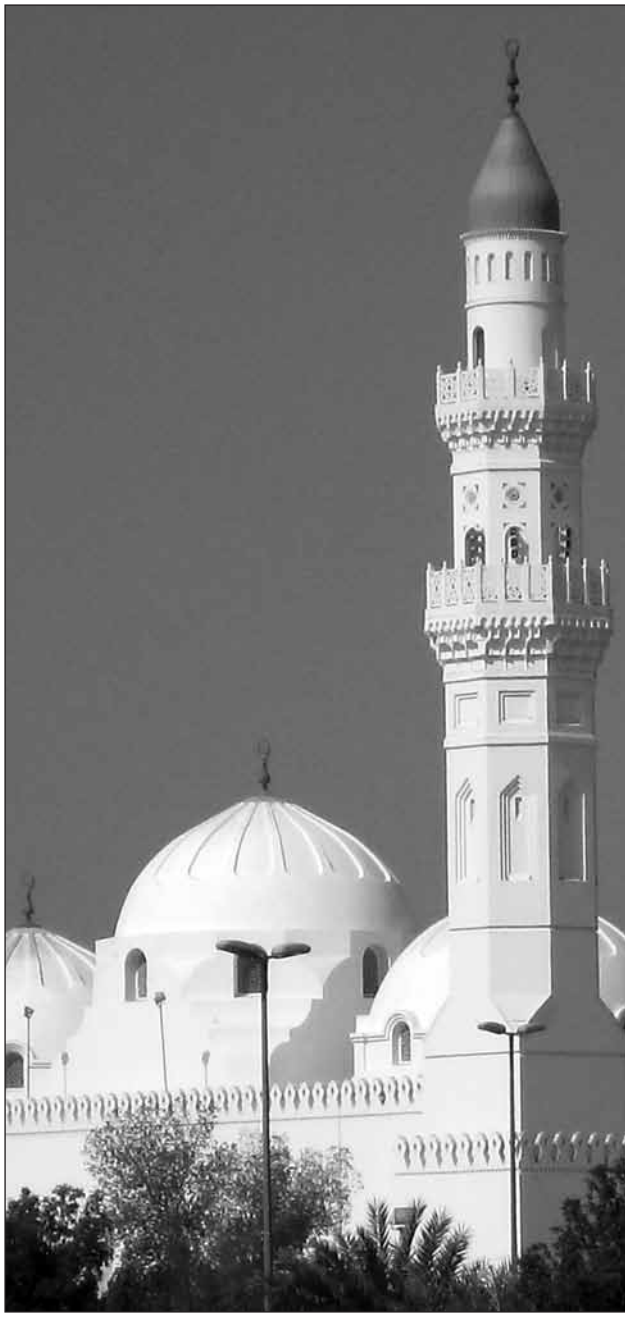

لرسول الله ﷺ مؤذنان، أحدهما بلال والآخر ابن أمّ مكتوم، وكان ابن أمّ مكتوم أعمى، وكان يؤذن قبل الصبح. وفي رواية ثانية عنه ﷺ: «إنّ ابن أمّ مكتوم يؤذن بالليل، فإذا سمعتم أذانه، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان بلال». فغيّرت العامة هذا الحديث عن جهته، وقالوا: إنه عليه السلام قال: «إنّ بلالاً يؤذن بليل، فإذا سمعتم أذانه، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أمِّ مكتوم».[١٢]

ما أعظمها من منازل!

وقد ورد العديد في منزلة المؤذنين وفضيلتهم وأجورهم وما ينتظرهم من ثواب جزيل، منها:

ما رواه بلال في كلام طويل له ينقل فيه ما سمعه من رسول الله ﷺ من فضائل في المؤذنين، وما يترتب لهم من أجور عظيمة، وغفران للذنوب... ومما جاء: سمعت

رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «المؤذنون أمناء المؤمنين على صلواتهم وصومهم ولحومهم ودمائهم، لا يسألون الله عزّوجلّ إلا أعطاهم، ولا يشفعون في شيء إلا شفعوا...».

وعن الصادق عليه السلام: «أنهم الأمناء».[١٣]

ذلك هو أداؤهم، وتلك إذن هي منزلتهم، فما أجلَّه من عمل صالح، وما أعظمها من منزلة رفيعة! وقد حظي بها ابن أمّ مكتوم وإخوانه المؤذنون من: ﴿**الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب**﴾.[١٤]

مما رواه:

قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ما ارتفعت الشمس، وناس عند الحجرات، فقال: «يا أهل الحجرات سعرت النار، وجاءت الفتن كقطع الليل، لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».[١٥]

آيات قرآنية:

مقطع قرآني مؤلف من عشر آيات، من الآية: ١ حتى الآية ١٠ من سورة عبس:

﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَآءَهُ ٱلأَعۡمَىٰ * وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ * أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ * وَهُوَ يَخۡشَىٰ * فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ**﴾.

في اللغة:

عَبَسَ: لغةً من عَبَسَ فلانٌ يعبس عَبساً وعُبُوساً: جمع، جلدَ ما بين عينيه وجلد جبهته وتجهَّم. وعبس اليومُ: اشتدَّ فهو عابسٌ وعبَّاسٌ وعَبُوسٌ.[١٦] وقد جاءت ثلاث مرات في الآيات:

المدثر: ﴿**ثمَّ عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر**﴾.[١٧] في الوليد بن المغيرة، عبس: قطّب وجهه.

الإنسان: ﴿**إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً**﴾.[١٨] تكلح فيه الوجوه لهوله.

ومرة في سورة عبس. وقرىء عبس بالتشديد للمبالغة.

تولّى: تولّى الشيءُ: أدبر، ويقال تولّى عنه: أعرض وتركه... أعرض بوجهه.

تَصَدَّى: تتصدّى وتتعرّض له وتقبل عليه.

تلهّى: تتلهّى وتتشاغل عنه، بالحديث مع غيره.

وقد سميت السورة بسورة السفرة (الآية:١٥) وسورة الأعمى لذكرهما فيها، لكنها اشتهرت بهذا الفعل ﴿**عبس**﴾ ولعل ذلك - والله أعلم - لما يحمله من شيء ذي أهمية خصوصاً وقد عطف عليه الفعل تولّى وألحقه بعد آيات بفعل ﴿**تَلَهَّىٰ**﴾،﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ... فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ**﴾.

وعن بداية السورة بهذين الفعلين: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ**﴾ يقول ابن عاشور: افتتاح هذه السورة بفعلين متحملين لضمير لا معاد له، في الكلام تشويق لما سيورد بعدهما، والفعلان يشعران بأن المحكي حادث عظيم، فأما الضمائر فيبين إبهامها قولُه: ﴿**فأنت له تصدى**﴾. وأما الحادث فيتبين من ذكر الأعمى ومَن استغنى. وهذا الحادث سبب نزول هذه الآيات من أولها إلى قوله: ﴿**بَرَرَةٍ**﴾.[١٩]

يتولى هذا المقطع من هذه السورة معالجة حادث معين، وقع في مكة المكرمة، راح التنزيل العزيز يبين طرفيه: أحدهما ﴿**ٱلْأَعْمَىٰ**﴾ والآخر ﴿**مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ**﴾ والطرف الرئيس في هذا الحادث هو من بينت دوره هذه الأفعال: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ... تَصَدَّىٰ... تَلَهَّىٰ**﴾ دون ذكر صريح يبيّن هويته.

﴿مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾

وهم كبار قريش ووجوهها: عتبة بن ربيعة، وأبوجهل بن

هشام، والعباس بن عبدالمطلب، وأبيّ وأمية ابنا خلف، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة. كلهم أو بعضهم، أو غيرهم على اختلاف في الأخبار، ويأتينا بعضها.

﴿الأَعْمَى﴾

فإن اختلفوا فيمن ﴿عَبَسَ﴾ وفي ﴿مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ فقد أجمع أهل التفسير على أنّ الأعمى هو ابن أمِّ مكتوم ليس غيره، وبالتالي فهو سبب نزول هذا المقطع.

فالقرآن الكريم لم يذكره باسمه عبدالله بن أمّ مكتوم، وإنما ذكره بصفته الظاهرة فيه، وهي العمى، والتي صارت لقباً له عرف به في أوساط ساحته، ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ فلعل هذا ـ والله أعلم ـ ترقيقاً للقلوب واستعطافها عليه؛ وأنه أجدر أن يرأف به وأن يُرحم، يقول ابن عاشور: عبر عن ابن أمّ مكتوم بـ: ﴿الأعمى﴾... ليكون العتاب ملحوظاً فيه أنه لما كان صاحب ضَرارة فهو أجدر بالعناية به، لأنّ مثله يكون سريعاً إلى انكسار خاطره. أو أنه ذكره بهذا اللقب ـ لقب العمى ـ ؛ ليبين عذر عبدالله بن أمّ مكتوم لما قدم على النبيﷺ وهو يتحدث مع رؤساء قريش، فكأنه يقول: إنّ عبدالله بن أمّ مكتوم قطع هذا الحديث؛ لكونه أعمى لا يرى. أو لأنّ الكفار الذين كانﷺ يدعوهم للإسلام كانوا مبصرين؛ ليبين تعالى أنّ العمى هو عمى القلوب، فهذا رجل أعمى في بصره، ولكنه مبصر ببصيرته، وأولئك مبصرون بأبصارهم، ولكنهم أعمون بقلوبهم، فيكون في ذلك عبرة للناس إلى يوم القيامة؛ كما قال الله سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

ويقول السيد العلامة: وفي

التعبير عن الجائـي بالأعمى مزيد توبيخ لما أنّ المحتاج الساعي في حاجته إذا كان أعمـى فاقداً للبصر وكانت حاجته في دينه دعته إلى السعي فيها خشـية الله كان من الحري أن يرحم ويخص بمزيـد الإقبال والتعطف، لا أن ينقبض ويعرض عنه.[٢٠]

وبالتالي فليس في ذلك ذمٌّ له أو إنقاص منـه، أو يدخل تحت عنوان التنابز بالألقـاب... وقد جاءت هذه الصفة في الآية: ٦١ من سورة النور: ﴿**ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم...**﴾ لرفع الإثم عنهم.

وفي الآية الأخرى: ١٧ من سـورة الفتح: ﴿**ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج...**﴾ حـرج: إثم مؤاخذة في التخلف عن الجهاد.

فقـد ذكـرت الآيتـان صنفين وسمتهما بصفتيهما الظاهرتين فيهما وهما: ﴿**الأعمى.. والأعرج**﴾.

ويقول الشـيخ الشـنقيطي في قوله تعالى: ﴿**أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى**﴾: عبر الله تعالى عن هذا الصحابي الجليل الـذي هو عبـدالله بـن أمّ مكتوم بلقـب يكرهه الناس مـع أنه قال: ﴿**وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ**﴾. والجواب هو ما نبه عليه بعـض العلماء من أنّ السـر في التعبير عنه بلفظ الأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لو كان يرى ما هو مشتغل به مع صناديد الكفار لما قطع كلامه.[٢١]

مَن العابس؟

ونظراً لما حـكاه هذا المقطع من حادث كبير وقع لمؤمن ضرير صالح، ولما حملته الآيات من أمور كالعبوس والتولّي والتلهّي، فقد ترك سـجالاً بين علماء ومفسري العامة والخاصة،

فبعد أن أجمع أهل التفسير على أن الأعمى هو ابن أمّ مكتوم ليس غيره، وبالتالي فهو سبب نزول هذا المقطع، لكنهم اختلفوا فيمن ﴿**عبس وتولّى... وتلهّى**﴾.

ولئن اتفق مفسرو العامة في أمهات كتبهم وفي غيرها على أنَّ من عبس وتولى... هو رسول الله صلى الله عليه وآله ولم أجد فيما تيسر لي منهم مخالفاً. ولهم رواياتهم والتي منها:

عن ابن عباس قوله: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلّى أنْ جاءَهُ الأعْمَى**﴾ قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يناجي عُتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبدالمطلب، وكان يتصدّى لهم كثيراً، ويَعرض عليهم أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى، يقال له عبدالله بن أمّ مكتوم، يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبدالله يستقرئ النبيّ صلى الله عليه وسلم آية من القرآن، وقال: يا رسول الله، عَلِّمني مما علَّمك الله، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعَبَس في وجهه وتوّلى، وكرِه كلامه، وأقبل على الآخرين فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذ ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره، ثم خَفَق برأسه، ثم أنزل الله: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلّى أنْ جاءَهُ الأعْمَى وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكّى أوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى**﴾، فلما نزل فيه أكرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلَّمه، وقال له: «ما حاجَتُك، هَلْ تُرِيدُ مِنْ شَيْءٍ؟» وإذا ذهب من عنده قال له: «هَلْ لَكَ حاجَةٌ فِي شَيْءٍ؟» وذلك لما أنزل الله: ﴿**أمّا مَنِ اسْتَغْنَى فأنْتَ لَهُ تَصَدّى وَما عَلَيْكَ ألاّ يَزَّكّى**﴾.

وأنَّ ابن أمّ مكتوم أقبل والنبيّ صلى الله عليه وآله مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قوي طمعه في إسلامهم وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم من قومهم، فجاء ابن أمّ

مكتوم وهو أعمى فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكثر النداء، ولايدري أنه مشتغل بغيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء: إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد؛ فعبس وأعرض عنه، فنزلت الآية. قال الثوري: فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا رأى ابن أمّ مكتوم يبسط له رداءه ويقول: (مرحباً بمن عاتبني فيه ربي). ويقول: (هل من حاجة)؟ فيكرمه حتى يستحي ابن مكتوم من كثرة إكرامه له.[٢٢]

ولئن اتفقوا كما ذكرنا، فقد اختلف مفسرو وعلماء الخاصة وهم الإمامية بين مَن قال بنزولها فيه ﷺ وبين من قد يُفهم من كلامه ترجح لذلك، مع تأكيدهم على أنّ هذا لا يخدش أو يقدح في خلقه وعصمته ﷺ وأنه ليس إلا عتاباً من قبل السماء، ومن قبله ﷺ لا يعدو كونه إلا تركاً للأولى؛ وبعد أن يذكر الشيخ الطبرسي أنّ الله عاتب رسوله ﷺ على ذلك، يذكر أنه روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا رأى عبدالله بن أمّ مكتوم، قال: مرحباً، مرحباً لا والله لا يعاتبني الله فيك أبداً، وكان يصنع به من اللطف حتى كان يكفّ عن النبي ﷺ مما يفعل به».[٢٣]

وبين من رفض بقوة ذلك؛ لأنه مخالف لخلقه ﷺ. وبعد أن ذهب هذا الفريق من الإمامية إلى أنه ليس رسول الله ﷺ هو المقصود في مقطع ﴿**عبس وتولى**...﴾ وإنما المعني بها:

* إما غيره، وهو قول المرتضى علم الهدى: أما ظاهر الآية فغير دال على توجهها إلى النبي ﷺ ولا فيها ما يدل على أنه خطاب له، بل هي خبر محض لم يصرح بالمخبر عنه.

وفيها ما يدل عند التأمل على أنّ المعني بها غير النبيﷺ لأنه وصفه بالعبوس، وليس هذا من صفات النبيﷺ في قرآن ولا خبر مع الأعداء المنابذين، فضلاً عن المؤمنين المسترشدين. ثم وصفه بأنه يتصدى للأغنياء ويتلهى عن الفقراء، وهذا مما لا يوصف به نبينا عليه السلام من يعرفه، فليس هذا مشبهاً مع أخلاقه الواسعة، وتحننه على قومه وتعطفه، وكيف يقول له وما عليك ألاّ يزّكّى وهو صلى الله عليه وآله مبعوث للدعاء والتنبيه، وكيف لا يكون ذلك عليه. وكان هذا القول اغراء بترك الحرص على إيمان قومه.

ثم يواصل السيد كلامه قائلاً: وقد قيل إنّ هذه السورة نزلت في رجل من أصحاب رسول اللهﷺ كان منه هذا الفعل المنعوت فيها، ونحن وإن شككنا في عين من نزلت فيه، فلا ينبغي أن نشك إلى أنها لم يعن بها النبي، وأيّ تنفير أبلغ من العبوس في وجوه المؤمنين، والتلهي عنهم، والاقبال على الأغنياء الكافرين، والتصدي لهم، وقد نزه الله تعالى النبيﷺ عما هو دون هذا في التنفير بكثير.[٢٤]

ثم إنّ الوصف بأنه يتصدى للأغنياء ويتلهى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة، ويؤيد هذا القول قوله سبحانه في وصفهﷺ: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾.[٢٥] وقوله: ﴿**ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾.[٢٦] فالظاهر أنّ قوله: ﴿**عبس وتولى**﴾ المراد به غيره.

السيد العلاّمة: وقد عظّم الله خلقهﷺ إذ قال ـ وهو قبل نزول هذه السورة ـ : ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ والآية واقعة في سورة «ن» التي اتفقت الروايات المبينة لترتيب نزول السور على أنها نزلت بعد سورة إقرأ باسم ربك، فكيف يعقل

أن يعظم الله خلقه في أول بعثته ويطلق القول في ذلك، ثم يعود فيعاتبه على بعض ما ظهر من أعماله الخلقية، ويذمه بمثل التصدي للأغنياء، وإن كفروا، والتلهي عن الفقراء، وإن آمنوا واسترشدوا.

وقال تعالى أيضاً:

﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**﴾.[٢٧] فأمره بخفض الجناح للمؤمنين والسورة من السور المكية والآية في سياق قوله: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ النازل في أوائل الدعوة.

وكذا قوله: ﴿**لا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين**﴾.[٢٨] وفي سياق الآية قوله: ﴿**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**﴾.[٢٩] النازل في أول الدعوة العلنية، فكيف يتصور منه صلى الله عليه وآله العبوس والإعراض عن المؤمنين، وقد أمر باحترام إيمانهم وخفض الجناح، وأن لا يمدّ عينيه إلى دنيا أهل الدنيا.

على أنّ قبح ترجيح غنى الغني ـ وليس ملاكاً لشيء من الفضل ـ على كمال الفقير وصلاحه بالعبوس والإعراض عن الفقير والإقبال على الغني لغناه، قبح عقلي مناف لكريم الخلق الإنساني، لا يحتاج في لزوم التجنب عنه إلى نهي لفظي.[٣٠]

* وإما هو من بني أمية، كما عليه الرواية التالية، التي ذكرها الشيخ الطبرسي في تفسيره عن الصادق عليه السلام أنها نزلت في رجل من بني أمية، كان عند النبي صلى الله عليه وآله فجاء ابن أمّ مكتوم، فلما رآه تقذر منه، وجمع نفسه، وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه.

* أو هو عثمان؛ كما صرحت به رواية علي بن إبراهيم القمي: قال: نزلت في عثمان وابن أمّ مكتوم، وكان ابن أمّ مكتوم مؤذناً

لرسول الله ﷺ وكان أعمى، فجاء إلى رسول الله ﷺ وعنده أصحابه وعثمان عنده، فقدمه رسول الله ﷺ على عثمان، فعبس عثمان وجهه وتولى عنه، فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ أي يكون طاهراً زكياً، أو يذّكر، قال: يذكره رسول الله ﷺ فتنفعه الذكرى. ثم خاطب عثمان فقال: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ قال: أنت إذا جاءك غني تتصدى له وترفعه وما عليك ألاّ يزّكّى، أي لا تبالي زكياً كان أو غير زكيّ إذا كان غنياً، وأما من جاءك يسعى، يعنى ابن أمّ مكتوم، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾. أي تلهو ولا تلتفت إليه.[٣١]

وأكتفي بما أتفقت عليه وأثبتته مصادرُ الفريقين من أنّ ابن أمِّ مكتوم هو الأعمى، الذي تدور حوله هذه الآيات بكل ما تحمله، وليس غيره، أما ما اختلفت فيه، وكثرت فيه الأقوال وتشعبت، والمتمثل بمَن العابس، فليست هذه المقالة مخصصة له، وقد أوجزت الكلام فيه أو أشرت لما عليه أقوالهم، وقد كتب فيه الكثير في مصادر التفسير وفي غيرها. فمن أراد زيادةً فعليه بها.

﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً * دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.[٣٢]

نزلت الآية في كعب بن مالك من بني سلمة، ومرارة بن ربيع من بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية من بني واقف، تخلَّفوا عن رسول الله يوم تبوك، وعذر الله أولي الضرر وهو عبدالله بن أمّ مكتوم، رواه أبوحمزة الثمالي في تفسيره. وقال

زيد بن ثابت: «كنت عند النبي حين نزلت عليه ﴿**لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله**﴾ ولم يذكر أُولي الضرر فقال ابن أمّ مكتوم: فكيف وأنا أعمى لا أبصر فتغشى النبي الوحي ثم سري عنه فقال: اكتب: ﴿**لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر**﴾ فكتبتها».

وفي البخاري عن البراء قال: لما نزلت: ﴿**لا يستوى القاعدون من المؤمنين**﴾.

دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابن أمّ مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله عزّوجلّ: ﴿**غير أولى الضرر**﴾.

عن ابن عباس قال: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر عن بدر، والخارجون إلى بدر، لما نزلت غزوة بدر قال عبدالله بن جحش وابن أمّ مكتوم: إنا أعميان يا رسول الله فهل لنا رخصة؟ فنزلت: ﴿**لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر... وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة**﴾ فهؤلاء القاعدون غير أولي الضرر ﴿**وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه**﴾.

آية بل آيتان قرآنيتان راحتا تعالجان موضوعاً خاصاً لأناس مؤمنين؛ ملئت قلوبهم حبّاً لمرافقة إخوانهم، وهم يعدون العدة للجهاد، وما منعهم عن ذلك إلا أنهم ابتلوا بما يمنعهم ويعيقهم عن الجهاد في سبيل الله، إنهم أولوا الضرر، هكذا سمّاهم القرآن الكريم، حين استدرك وهو يتحدث عن «قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد بالأموال والأنفس ـ غير أولي الضرر الذين يقعدهم العجز عن الجهاد بالنفس، أو يقعدهم الفقر والعجز عن الجهاد بالنفس والمال ـ عدم الاستواء بين هؤلاء القاعدين

والآخرين الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم..».

وواحد منهم عبدالله بن أمّ مكتوم، الذي جاء فقال: يا رسول الله، إني أحب الجهاد في سبيل الله، ولكن بي من الزمانة ما قد ترى، قد ذهب بصري، وفي رواية هو وعبدالله بن جحش أتيا رسول الله قبيل غزوة بدر وقالا: إنا أعميان يا رسول الله،... فنزل قوله تعالى: ﴿...غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ...﴾» فصار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد؛ من العمى والعرج والمرض، وبيّن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. وهو يتحدث عن فضيلة المجاهدين على القاعدين مستثنياً من هؤلاء أقواماً، وهم أصحاب الأعذار، فعن أنس: أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من واد، إلاّ وهم معكم فيه» قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم حبسهم العذر» وعن النبي ﷺ أنه قال: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد، إلاّ وهم معكم فيه»، قالوا: وكيف يكونون معنا فيه يا رسول الله؟ قال: «نعم، حبسهم العذر» وفي هذا المعنى قال الشاعر:

يا راحِلِيْنَ إلى البيتِ العَتيقِ لَقَدْ
سِرْتُمْ جُسوماً وسِرْنا نحن أرْواحا
إنَّا أقمْنا على عُذْرٍ وعَنْ قَدَرٍ
ومَنْ أقامَ على عُذْرٍ فَقَدْ راحا».[٣٣]

منزلته :

حظي هذا الصحابي الجليل بمنزلة رائعة، ومكانة عالية عند رسول الله ﷺ فإضافةً إلى ما نسب إلى رسول الله ﷺ من مواقف وأقوال بحقه والتي منها: كان النبي ﷺ إذا رأى ابن أمّ مكتوم يبسط له رداءه ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي».

ويقول: «هل من حاجة»؟

وذكرنا ما قاله الشيخ الطبرسي في تفسيره: روي أيضا عن الصادق عليه السلام أنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا رأى عبدالله بن أمّ مكتوم قال: مرحباً مرحباً، [والله] لا يعاتبني الله فيك أبداً، وكان يصنع به من اللطف، حتى كان يكف عن النبي صلى الله عليه وآله مما يفعل [به]». فزيادةً على هذا؛ لعله كان لا يفارق رسول الله صلى الله عليه وآله طويلاً، والذي يبدو من بعض الروايات أنه كان يتردد على النبي صلى الله عليه وآله وهو في بيوته أو حجره:

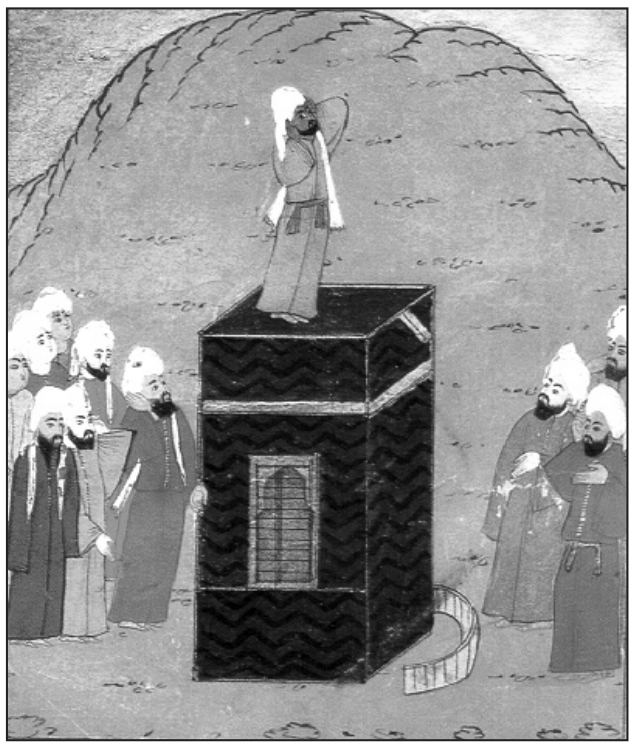

فعن محمد بن يعقوب، عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن أبي عبدالله قال: استأذن ابن أمّ مكتوم على النبي صلى الله عليه وآله وعنده عائشة وحفصة فقال لهما: قوما فادخلا البيت، فقالتا: إنه أعمى فقال: إن لم يركما فإنكما تريانه.

وعن أمّ سلمة قالت: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وعنده ميمونة، فأقبل ابن أمّ مكتوم وذلك بعد أن أمر بالحجاب، فقال: احتجبا، فقلنا:

يارسول الله، أليس أعمى لا يبصرنا؟ قال: أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟ [٣٤]

وقد جاءا به تأييداً لما استفاداه من الآية: ﴿**وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن...**﴾ [٣٥] أنّ حكم النساء حكم الرجال في وجوب غضّ الطرف وحفظ الفرج، أو نهي النساء عن النظر إلى الأجانب.

قال المحقق البهبودي في زبدة البيان: قد اشتبه المراد من آية الحجاب على بعض كالمؤلف رضوان الله عليه، فتوهم أنّ المراد بآية الحجاب في هذا الحديث آية النور المبحوث عنها وليس كذلك، بل المراد آية الأحزاب٥٣: ﴿**وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن**﴾ ففرض أن لا يتكلموا إلاّ وبينهم وبينهن حجاب من ستر، وهذا الحكم من مختصات أمهات المؤمنين. وقوله ﷺ: «احتجبا» يعني ادخلا وراء الستر، فقالا: إنه أعمى، يعنون أنّ عماه كالغشاء والستر بينه وبينهن، فقال ﷺ: هذا ستر يستركن من عينه ولا يستره عن عيونكن، وقد كان الواجب حجاب يستر على الجانبين.[٣٦]

أقول:

وكلامه هذا يصحّ لو أنّ المحقق استفاد مسألة الحجاب، ولكنه استفاد من الآية كما من تأييد الحديث حرمة النظر إلى الأجنبي، ووجوب غضّ البصر. وقد احتج بهذا الحديث عدد ممن تيسّر لي من المفسرين من الفريقين وفي تفسيرهم لهذه الآية:٣١ النور.

فليس هناك توهم من المحقق الأردبيلي ومن قبله الشيخ السيوري في كنز العرفان.

وهذا القرطبي، بعد أن يذكر التالي:

وبدأ بالغضِّ قبل الفرج؛ لأنّ البصر رائد للقلب، كما أنّ الحمى رائد الموت، وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

أَلم تر أنّ العين للقلب رائد
ماتألف العينان فالقلب آلف

وفي الخبر: «النظر سهم من سهام إبليس مسموم، فمن غضّ بصره أورثه الله الحلاوة في قلبه».

ينقل الحديث عن الترمذي:

عن نبهان مولى أم سلمة، أنّ النبيﷺ قال لها ولميمونة، وقد دخل عليها ابن أمّ مكتوم: «احتجبا» فقالتا: إنه أعمى؛ قال: أفعمياوان أنتما ألستما تُبصرانه؟

ثمَّ قال: فإن قيل: هذا الحديث لا يصحّ عند أهل النقل؛ لأنّ راويه عن أمّ سلمة نبهان مولاها، وهو ممن لا يحتج بحديثه. وعلى تقدير صحته فإنّ ذلك منه عليه السلام تغليظ على أزواجه لحرمتهن، كما غلظ عليهن أمر الحجاب؛ كما أشار إليه أبوداود وغيره من الأئمة.

ويبقى معنى الحديث الصحيح الثابت وهو: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر فاطمة بنت قيس أن تعتدّ في بيت أمّ شَريك؛ ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي اعتدي عند ابن أمّ مَكْتُوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك» قلنا: قد استدلّ بعض العلماء بهذا الحديث على أنّ المرأة يجوز لها أن تطلع من الرجل على ما لا يجوز للرجل أن يطلع من المرأة كالرأس ومعلّق القُرْط؛ وأما العورة فلا. فعلى هذا يكون مخصصاً لعموم قوله تعالى: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ**﴾، وتكون «من» للتبعيض كما هي في الآية قبلها.

قال ابن العربي: وإنما أمرها بالانتقال من بيت أمّ شَريك إلى بيت ابن أمّ مكتوم؛ لأنّ ذلك أوْلى بها من بقائها في بيت أمّ شريك؛

إذ كانت أمّ شـريك مؤثـرة بكثرة الداخل إليها، فيكثر الرائي لها، وفي بيت ابن أمّ مكتـوم لا يراها أحد؛ فكان إمسـاك بصرها عنه أقرب من ذلـك وأوْلى، فرخص لهـا في ذلك، والله أعلم.[٣٧]

ولهـم ردٌّ آخـر لهـذا الحديث، وخلاصـة ما جاء في ردّهـم له، أنه حديث ضعيف؛ لشـذوذه، ومخالفته للأحاديـث الصحيحـة، وهـذا الحديـث وإن حسّـنه الترمذي أو صححه، فالقاعدة التي قررها علماء الأصول وعلماء مصطلح الحديث ـ والكلام لهم ـ أنـه إذا كان صحيح السـند وخالف ما هـو أصح منه، فإنه يعتبر شـاذاً ضعيفاً لا يعمل به؛ لأنّ من شـرط الحديـث الصحيح ألا يكون شـاذاً، فحديث نبهان هذا شـاذ على فرض صحتـه، وله علة أخرى توجب ضعفه وهي: أنّ نبهان المذكـور لم يوثقه مـن يعتمد عليه وهو قليـل الرواية، فلا يعتمد عليه في مثل هذا الحديث، وحتى إن حمله بعضهـم على أنه خـاص بأمهات المؤمنين دون غيرهـن، فهو لا وجه له ـ كما يقولون ـ لأن التخصيص يحتاج إلى دليـل عليه، وليس لديهم دليل على التخصيص.

وهـذا الفريـق أفتى بجـواز أن تكشـف المرأة عن وجهها في حالة وجود رجـل كفيف أجنبي عنها، بل لا حرج على المرأة في السـفور عند الرجل الكفيف؛ لما ثبت في صحيح مسـلم عن فاطمة بنـت قيس أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لها لما طلقـت: اعتدي عند ابن أمّ مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك فلا يـراك، وفي الصحيحين من حديث سهل بن سـعد أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما جعل الاستئذان من أجل النظر».

وظهر من رواية مثلها في صحيح

مسلم، كتاب الطلاق: أنّ ابن أمِّ مكتوم كان ابن عمّها، وهذا نصّها: أنّ فاطمة بنت قيس لما طلقت، أمرها الرسول أن تعتدّ في بيت ابن عمّها ابن أمِّ مكتوم؛ لكونه أعمى ضرير البصر، وإذا وضعت خمارها لا يراها.

والغضّ: صرف المرء بصره عن التحديق وتثبيت النظر. ويكون من الحياء كما قال عنترة:

وأغض طرفي حين تبدو جارتي
حتى يواري جارتي مأواها.[٣٨]

هذا وأنّ في غضِّ البصر، كما يؤكد عليه العلماء، طهارةً للقلوب، وحفظاً للنفوس من أن تتلوث، وسلامةً للدين والدنيا، وزيادةً في الأجر والثواب.

شهيد أهل الجنة الأعمى!

لم يهدأ له بال بعد وفاة رسول الله ﷺ وكأنه يستعجل اللحاق به، فلم يركن للبقاء في المدينة، وراح يشارك في الغزوات حتى كانت معركة القادسية، سنة ١٤هـ في عهد الخليفة الثاني عمربن الخطاب، وبقيادة سعد بن أبي وقاص، وكان عدد المسلمين فيها أزيد من سبعة آلاف، فيما كان عدد العدو أربعين ألفاً، وقيل: ستين ألفاً ومعهم سبعون فيلاً، وعن المدائني أنهم اقتتلوا ثلاثة أيام في آخر شوال سنة خمس عشرة، فقتل رستم قائد جيشهم وانهزموا في تلك الواقعة، التي عرفت بشراستها وقوتها.

فما كان من ابن أمّ مكتوم إلاّ أن يسرع متكئاً على ذراع أحد إخوانه من المسلمين، ليقف فوق مكان عال منادياً بأعلى صوته:

ادفعوا إليَ اللواء... إني أعمى لا أستطيع الفرار... وأقيموني بين الصفين.

ويحاول المسلمون أن يثنوه عن عزمه، وقال أنس بن مالك:

رأيت يوم القادسية عبدالله ابن أمّ مكتوم الأعمى، وعليه درع يجرُّ أطرافها، وبيده راية سوداء؛ فقيل له: أَليس قد أنزل الله عذرك؟! قال: بلى! ولكني أُكثر سواد المسلمين بنفسي. وروي عنه أنه قال: فكيف بسوادي في سبيل الله! وراح يصيح ويطالب باللواء، وفعلاً دفع إليه لواء المسلمين، فحمله وظلّ يقاتل مسترشداً ومستضيئاً بنور بصيرته، حتى سقط على أرض المعركة فيمن سقط من الشهداء وهم كثر.

فاستشهد رضوان الله عليه في هذه المعركة على قول، وعلى آخر للواقدي: شهد القادسية، ثم رجع إلى المدينة، فمات بها، ولم نسمع له بذكر بعد عمر.

وعن ابن أمّ مكتوم أنه قال: إنّ جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وعنده ابن أمّ مكتوم، فقال: متى ذهب بصرك؟ قال: وأنا غلام، فقال: قال الله تعالى: إذا أخذت كريمة عبدي لم أجد له جزاء إلا الجنة، وها هي الجنة، وها هو ابن أمّ مكتوم قد حصل على ما يدخله الجنة، إنها الشهادة التي طالما تمناها، وما منعه عنها زمناً إلاّ ضرارته، فهنيئاً لك يا ابن أمّ مكتوم. هنيئاً لك صحبتك لرسول الله صلى الله عليه وآله وهنيئاً لك بشارة جبريل بأنّ لك الجنة!

وختمت حياته بخير، فسلام عليه في الخالدين: ﴿...**الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**﴾.[٣٩]

الهوامش:

١ . أنظر أسدالغابة في معرفة الصحابة؛ والإصابة؛ وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور؛ وتفسير الكشاف للزمخشري: سورة عبس؛ والتاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله تأليف الشيخ منصور علي ناصف؛ من علماء الأزهر؛ وتفسير لطائف الإشارات، القشيري.

٢ . حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني٢: ٤ رقم ٨٨. كتاب الأوائل، لأبن أبي عاصم:٤٣، تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: سورة عبس.

٣. أنظر مكاتيب الرسول، الأحمدي الميانجي ١:٣٩٩. وما نقله عن التراتيب الإدارية ١:٤٤٧.

٤ . تفسير التحرير والتنوير، سورة عبس.

٥ . مجمع البيان: سورة عبس.

٦ . السيرة النبوية، لابن هشام، معركة بدر الكبرى٢ : ٦١٢.

٧ . معجم البلدان، مادة: قرقرة.

٨ . معجم البلدان، مادة: بفران.

٩ . معجم البلدان: مادة: غرس و قبا.

١٠ . معجم البلدان، مادة: (دومة).

١١ . أنظر التنبيه والإشراف، للمسعودي؛ ومعالم المدرستين، للسيد مرتضى العسكري١ : ٢٠٦، إستخلافات الرسول صلى الله عليه وآله.

١٢ . أنظر كتاب الأم، للإمام الشاطبي٦ : ٢١٧؛ جامع المقاصد، للمحقق الثاني٢ : ١٧٦. الأذان والإقامة. من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق١ :٢٠٩، الحديث ٩٠٥، ٩٠٦.

١٣ . أنظر من لا يحضره الفقيه١ :٢٠٤ـ٢٠٩، الحديث٩٠٦.

١٤ . الرعد : ٢٩.

١٥ . حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني٢ : ٤ رقم ٨٨.

١٦ . المعجم الوسيط:٥٨٠، عبس،١٠٥٧ ؛ وتفسير مفردات القرآن، للدكتور الحمصي.

١٧ . المدثر : ٢٢.

١٨ . الانسان : ١٠.

١٩ . عبس: ١٦؛ التحرير والتنوير.

٢٠ . الميزان في تفسير القرآن، الآية.

٢١ . دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: سورة عبس وأيضاً في تفسيره أضواء البيان في تفسير القرآن، ذكر التالي تحت (تنبيه) : مما اتفق عليه المحدثون جواز ذكر مثل هذه الأوصاف إذا كانت للتعريف لا للتنقيص، فقالوا: الأعمى والأعور والأعرج. وفي الحرف قالوا: الخراز، والخرقى، ونحو ذلك، وهذا ما فيه مصلحة لترجمة الرجال في السند. ومثله: ليس تنابزاً بالألقاب في هذا الفن. والله تعالى أعلم. ومثله: إذا كان

للتعريف في غرض سليم دون تنقص كما قدمنا.

٢٢ . أنظر التفسير الكبير، للإمام الطبراني (ت٣٦٠ هـ) ؛ والكشاف للزمخشري؛ تفسير الطبري؛ والدر المنثور٨: ٤١٦؛ أسباب النزول، للواحدي: ٤٧١ الباب ٤٤٦؛ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي؛ وتفسير ابن كثير.

٢٣ . أنظر جامع الجوامع؛ ومجمع البيان، للشيخ الطبرسي؛ والأمثل، للشيخ مكارم الشيرازي؛ من وحي القرآن، للسيد فضل الله.

٢٤ . تنزيه الأنبياء: تنزيه سيدنا محمدﷺ عن المعاتبة في أمر الأعمى.

٢٥ . القلم : ٤.

٢٦ . آل عمران : ١٥٩.

٢٧ . الشعراء : ٢١٤ ـ ٢١٥.

٢٨ . الحجر : ٨٨.

٢٩ . الحجر : ٩٤.

٣٠ . تفسير الميزان: سورة عبس.

٣١ . أنظر تنزيه الأنبياء، للشريف المرتضى؛ والميزان، للطباطبائي؛ وتفسير القمي٢ :٤٣٠؛ ونورالثقلين٥ : ٥٠٨؛ والبرهان٤: ٤٢٧؛ وكنز الدقائق١٤: ١٣٢ كل ذلك عنه.

٣٢ . النساء : ٩٥ ـ ٩٦.

٣٣ . أنظر مجمع البيان، للشيخ الطبرسي؛ وتفسير ابن كثير وغيرهما من التفاسير؛ وأسباب النزول، للواحدي؛ وأيضاً في ظلال القرآن، لسيد قطب؛ وتفسير القرآن الكريم، لابن كثير: الآية، بتصرف.

٣٤ . وسائل الشيعة ـ كتاب النكاح ـ الباب ١٢٩ من أبواب مقدمات النكاح، باب تحريم رؤية المرأة الرجل الأجنبي وإن كان أعمى، الحديث١ و٤ ؛ وكنز العرفان، للسيوري٢: ٢٢٢ وفي هامشها: أخرجه أبوداود والترمذي وصححه، والنسائي والبيهقي في سننه عن أم سلمة كما في الدر المنثور٥ : ٤٢. و تبعه في هذا الهامش الأردبيلي صاحب زبدة البيان في أحكام القرآن:٥٤٣.

٣٥ . النور : ٣١.

٣٦ . زبدة البيان: هامش الصفحة: ٥٤٣ ؛ المكتبة المرتضوية لإحياء التراث، تهران ناصر خسرو.

٣٧ . الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، سورة النور:٣١.

٣٨ . تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: النور:٣١.

٣٩ . النساء: ٦٩.

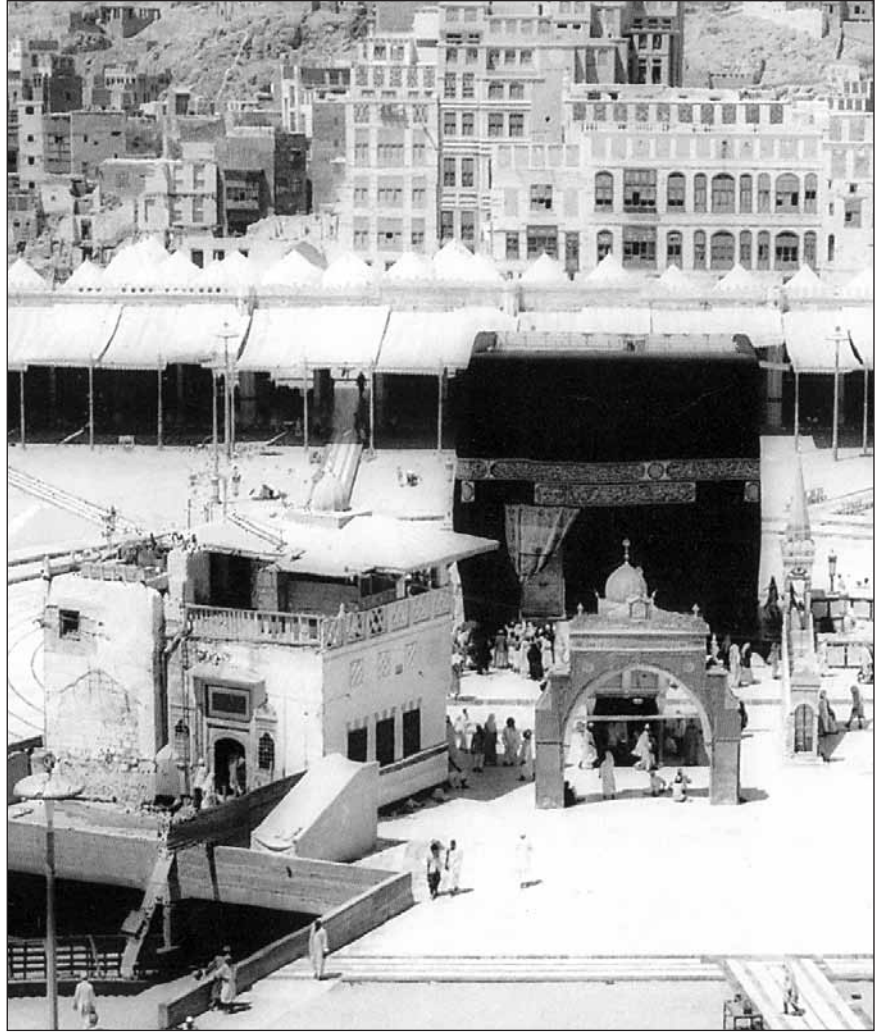

فضائل الحرمين الشريفين في تراث أهل البيت عليهم السلام

محمدعلي المقدادي

تمهيد:

احتلّ الحرمان الشريفان فضيلة وقداسة وتكريماً وتعظيماً، مساحة واسعة في التراث الإسلامي، وعند جميع الفرق والمذاهب الإسلامية، وبالذات فيما وصل

إلينا من أحاديث أهل البيت عليهم السلام، والتي تتميّز بأنها الأفضل والأصحّ؛ لأنها تصدر عن الثقل الثاني بعد التنزيل العزيز، اللذين هما مصدرا العقيدة والتشريع، وفقاً لما جاء به الحديث النبويّ، المعروف بحديث الثقلين، الذي رواه أصحاب الصحاح والمسانيد عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بألفاظ عديدة لكنها متقاربة، منها:

«يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله؛ وعترتي أهل بيتي».[1]

«إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما».[2]

وكيف لا تتوفر للحرمين تلك المساحة اللائقة، وهما يشكلان وجودين مباركين في حياة المسلمين في دينهم ودنياهم؛ لما يتمتعان به من خصائص نفتقدها في غيرهما، ولما أسند إليهما من دور في بناء الإنسان المسلم روحيّاً وأخلاقيّاً واجتماعيّاً.. ولما سنّ لهما وخاصة للحرم المكي بمواقيته المتعدّدة من شرائع ومناسك وآداب، بين ما يجب على المسلم أداؤه، وما ينبغي ويستحب له ذلك، حين تواجده فيهما في فريضة أو مستحب يؤديه، وأيضاً لفريضة الحج، وهي السبب الأهم، حين أذّن لها نبيّ الله إبراهيم عليه السلام، بأمر من الله سبحانه وتعالى، فأحيا به هذه البلاد يوم أن بثّ فيها الخير والعطاء، وغدا الناس يأتونها من كل مكان في عالمنا قديماً وحديثاً، ومنذ ذلك الوقت الذي شرع فيه منسك الحج المبارك، وصار يؤديه أنبياء وصالحون.. وما زال وسيبقى هذا المنسك يتوجه نحوه المسلمون والمؤمنون لأدائه، حتى

يـأذن الله تعالى بنهاية الدار الابتلاء والتكاليـف، فينتقل الجميع إلى دار الجزاء والأجر والثواب.

فقداسة الحرمين الشريفين «مكة المكرمـة و المدينة المنـورة» وما لهما من وظائف جليلـة، أمر أجمع عليه أهـل التوحيـد، مما جعلهمـا محلّ اهتمـام أحاديـث كثـيرة ومواقف جليلة لأهل البيت عليهم السلام، وهم الأدرى بفضائل هذين الحرمين، وما لهما من دور كبير ومبارك في حياة المسـلمين في البنـاء الإيماني لهـم، أو الروحي والأخلاقي، فضلاً عما تتركه مناسك الحج واجتماعه السنويّ الحاشد من آثـار في ثقافتهم، وتوحيد صفوفهم، وما يتمخض من منافع جليلة.. وقد شـكلت تلك الأحاديث والأقوال والمواقف تراثاً كبيراً، صار مورد عناية ودراسة من قبل المسلمين، وبالذات أتباع مدرسـة أهل البيت عليهم السلام، على المستوى الفقهي والروحي والخلقي..، ونحن هنا نقتبس ما يتيسـر لنا منه، وبما يتعلـق بفضائل هذين الحرمين المباركين مكة والمدينة، وننشـره إن شاء الله تعالى على شكل حلقات في هذه المجلة.

* * *

الأول: الأماكـن المقدسـة في مكة المكرمة

١ـ الكعبة الشريفة

عدّة من أصحابنـا عن أحمد بن محمّد عن الحسـين بن سـعيد عن فضالـة بن أيّوب عن أبـي المغراء عن أبـي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لا يـزال الدّين قائماً ما قامت الكعبة».[٣]

... عـن معاوية بـن عمار، عن الحسـن بن عبدالله، عـن أبيه، عن جـده الحسـن بـن علي بـن أبي طالب عليه السلام، قال: «جاء نفر من اليهود إلى رسـول الله صلى الله عليه وآله ... قال: لأي شيء

سميت الكعبة؟ قال النبي صلى الله عليه وآله: سميت الكعبة كعبة، لأنها وسط الدنيا».[٤]

قال أبوعبدالله الصادق عليه السلام: «... وهذا بيت استعبدالله به خلقه، ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وجعله محل أنبيائه، وقبلة للمصلّين إليه...».[٥]

روي عن بكير بن أعين عن أخيه زرارة قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام جعلني الله فداك أسئلك في الحجّ منذ أربعين عاماً فتفتيني فقال: «يا زرارة بيت يحجّ قبل آدم عليه السلام بألفي عام تريد أن تفتى [تفنى] مسائله في أربعين عاماً».[٦]

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لله عزّوجلّ في بلاده خمس حرم، حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله، وحرمة آل رسول الله عليهم السلام، وحرمة كتاب الله عزّوجلّ، وحرمة كعبة الله، وحرمة المؤمن».[٧]

عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن

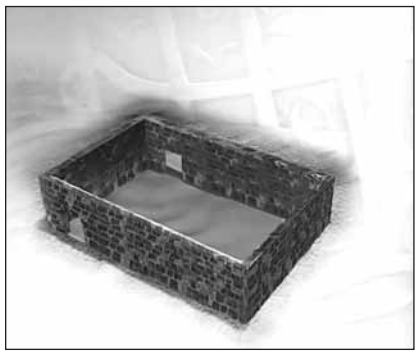

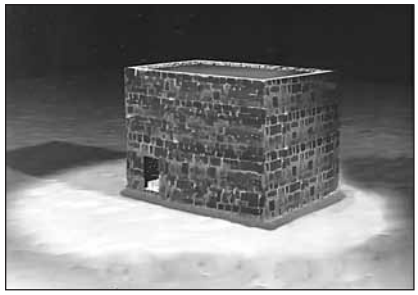

ابـــن أبي عمير عن ابـــن أذينة عن الفضيـــل عن أبي جعفـــر عليه السلام قال: «نظـــر إلى النّـــاس يطوفـــون حول الكعبة فقال: هكـــذا كانوا يطوفون في الجاهليّة إنّما أمروا أن يطوفوا بها ثمّ ينفروا إلينا فيعلمونا ولايتهم و مودّتهم و يعرضـــوا علينا نصرتهم ثمّ قرأ هـــذه الآية: ﴿**فاجعل أفئدة من النّاس تهوى إليهم**﴾».[٨]

عن الحســـن بن محبوب عن أبي الصّبـــاح الكنانيّ قـــال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: «أيّهما أفضل الإيمان أو الإســـلام؟ فإنّ من قبلنا يقولون إنّ الإســـلام أفضل من الإيمان؟ فقال: ألإيمان أرفـــع من الإســـلام؛ قلت: فأوجدني ذلك قـــال: ما تقول فيمن أحدث في المســـجد الحرام متعمّداً؟ قال قلت: يضرب ضرباً شديداً. قال: أصبت؛ قال: فما تقول فيمن أحدث في الكعبة متعمّداً؟ قلت: يقتل؛ قال: أصبت ألا ترى أنّ الكعبة أفضل من المســـجد وأنّ الكعبة تشرك المسجد والمســـجد لا يشرك الكعبة وكذلك الإيمان يشـــرك الإســـلام والإسلام لايشرك الإيمان».[٩]

محمّد بن عقيل عن الحســـن بن الحســـين عن عليّ بن عيســـى عن عليّ بن الحســـن عن محمّد بن يزيد الرّفاعـــيّ رفعـــه أنّ أمير المؤمنين عليه السلام سئل عن الوقوف بالجبل لم لم يكن في الحرم؟ فقال: «لأنّ الكعبة بيته والحرم بابـــه فلمّا قصـــدوه وافدين وقفهم بالباب يتضرّعون. قيل له: فالمشـــعر الحرام لم صار في الحرم؟ قال: لأنه لمّا أذن لهـــم بالدّخول وقفهم بالحجاب الثّاني فلمّـــا طال تضرّعهم بها أذن لهـــم لتقريب قربانهـــم فلمّا قضوا تفثهم تطهّروا بها من الذّنوب الّتي كانت حجابـــاً بينهم و بينه أذن لهم بالزيارة علـــى الطّهارة. قيل له: فلم حرّم الصّيام أيّام التّشريق؟ قال: لأنّ القـــوم زوّار الله وهم في ضيافته ولا

يجمل بمضيف أن يصوّم أضيافه. قيل له: فالتّعلّق بأستار الكعبة لأيّ معنى هو؟ قال: مثل رجل له عند آخر جناية و ذنب فهو يتعلّق بثوبه يتضرّع إليه ويخضع له أن يتجافى عن ذنبه».[١٠]

محمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد عن عليّ بن النّعمان عن سعيد الأعرج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ قريشاً لمّا هدموا الكعبة وجدوا في قواعده حجراً فيه كتاب لم يحسنوا قراءته حتّى دعوا رجلاً فقرأه فإذا فيه أنا الله ذو بكّة حرّمتها يوم خلقت السّماوات والأرض ووضعتها بين هذين الجبلين وحففتها بسبعة أملاك حفّاً».[١١]

عليّ بن إبراهيم عن أبيه ومحمّد بن إسماعيل عن الفضل بن شاذان جميعاً عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمّار قال: أتي أبوعبد الله عليه السلام في المسجد فقيل له: إنّ سبعاً من سباع الطّير على الكعبة ليس يمرّ به شيء من حمام الحرم إلاّ ضربه؛ فقال: «انصبوا له واقتلوه فإنه قد ألحد».[١٢]

عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد بن خالد عن محمّد بن عليّ عن عبد الله بن جبلة عن عبدالملك بن عتبة قال: سألت أباعبد الله عليه السلام عمّا يصل إلينا من ثياب الكعبة هل يصلح لنا أن نلبس شيئاً منها؟ قال: «يصلح للصّبيان والمصاحف والمخدّة تبتغي بذلك البركة إن شاء الله».[١٣]

وروى أصحابنا:«أنّ أول شيء خلق الله من الأرض موضع الكعبة، ثم دحيت الأرض من تحتها».[١٤]

ويجوز أن يقال: المسيح روح الله، لأن الأرواح كلها ملك لله؛ وإنما خص المسيح بالذكر تشريفاً له بهذا الذكر، كما خصّ الكعبة بأنها بيت الله، وإن كانت الأرض كلها لله تعالى.[١٥]

وسميت أمّ القرى، لأنه روي: «أنّ الله تعالى دحا الأرض من تحت

الكعبة».[١٦]

وقوله تعالى: ﴿**والبيت المعمور**﴾ قيل: هو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة، تعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة. وروي ذلك عن علي عليه السلام وابن عباس ومجاهد.[١٧]

قال علي عليه السلام: «يدخل [البيت المعمور] كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون فيه».[١٨]

محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن علي بن النعمان، عن سعيد بن عبدالله الأعرج، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ قريشاً في الجاهلية هدموا البيت، فلما أرادوا بناءه حيل بينهم وبينه، وألقي في روعهم الرعب حتى قال قائل منهم: ليأتى كل رجل منكم بأطيب ماله ولاتأتوا بما اكتسبتموه من قطيعة رحم أو حرام ففعلوا، فخلى بينهم وبين بنائه، فبنوه حتى انتهوا إلى موضع الحجر الأسود، فتشاجروا فيه أيهم يضع الحجر الأسود في موضعه، حتى كاد أن يكون بينهم شرّ. فحكموا أول من يدخل باب المسجد، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله فلما أتاهم أمر بثوب فبسط ثم وضع الحجر في وسطه، ثم أخذت القبايل بجوانب الثوب فرفعوه ثم تناوله صلى الله عليه وآله فوضعه في موضعه فخصه الله به».[١٩]

عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد ومحمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، جميعاً عن ابن محبوب، عن علي بن رئاب، عن حمران بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: «...الإسلام لايشرك الإيمان، والإيمان يشرك الإسلام، وهما في القول والفعل يجتمعان، كما صارت الكعبة في المسجد، والمسجد ليس في الكعبة، وكذلك الإيمان يشرك الإسلام والإسلام لايشرك الإيمان، وقد قال الله عزّوجلّ: ﴿**قالت الأعراب آمنّا قل**

لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الايمان فى قلوبكم فقول الله عزوجل أصدق القول...».[٢٠]

في كتاب الخصال عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لن يعمل ابن آدم عملاً أعظم عندالله تبارك وتعالى من رجل قتل نبياً أو إماماً أو هدم الكعبة التي جعلها الله تعالى قبلة لعباده، أو أفرغ ماءه في امراة حراماً».[٢١]

وبإسناده إلى عبدالله بن سنان قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام لم سميت الكعبة بكة؟ فقال عليه السلام: «لبكاء الناس حولها وفيها».[٢٢]

الحسين بن سعيد، عن فضالة بن أيوب وصفوان بن يحيى، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا أردت دخول الكعبة فاغتسل قبل أن يدخلها ولاتدخلها بحذاء وتقول إذا دخلت: «أللهم إنك قلت: **ومن دخله كان آمناً** فآمني من عذابك عذاب النار...».[٢٣]

في الكافي محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن أحمد بن هلال، عن عيسى بن عبدالله الهاشمي، عن أبيه، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان موضع الكعبة ربوة من الأرض بيضاء تضيء كضوء الشمس والقمر حتى قتل ابنا آدم أحدهما صاحبه اسودت...».[٢٤]

عن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام **جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للنّاس** قال: «جعلها الله لدينهم ومعايشهم...».[٢٥]

وروي عن الصادق عليه السلام: أنه سئل لم سميت الكعبة كعبة؟ قال: «لأنها مربعة، فقيل له: ولم صارت مربعة؟ قال: لأنها بحذاء البيت المعمور وهو مربع؛ فقيل له: ولم صارت البيت المعمور مربعاً؟ قال: لأنها بحذاء العرش وهو مربع؛ فقيل له: ولم صار العرش مربعاً؟ قال: لأن الكلمات التي بني عليها أربع، وهى سبحان

الله والحمدلله ولا إله إلا الله والله أكبر».[٢٦]

عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن حمّاد بن عيسى، عن حريز، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «النّظر إلى الكعبة عبادة و النّظر إلى الوالدين عبادة و النّظر إلى الإمام عبادة و قال: من نظر إلى الكعبة كتبت له حسنة و محيت عنه عشر سيّئات».[٢٧]

عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد عن عليّ بن الحكم عن داود بن النّعمان عن أبي أيّوب الخزّاز عن محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «لا ينبغي لأحد أن يأخذ من تربة ما حول الكعبة و إن أخذ من ذلك شيئاً ردّه».[٢٨]

أحمد بن مهران عمّن حدّثه عن محمّد بن سنان عن حذيفة بن منصور قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّ عمّي كنس الكعبة و أخذ من ترابها فنحن نتداوى به؟ فقال: «ردّه إليها».[٢٩]

عن جعفر، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: «النظر إلى الكعبة حباً لها يهدم الخطايا هدماً».[٣٠]

قال أبوعبدالله عليه السلام: «من أتى الكعبة فعرف من حقنا وحرمتنا ما عرف من حقها وحرمتها، لم يخرج من مكة إلاّ وقد غفر له ذنوبه، وكفاه الله ما أهمّه من أمر دنياه وآخرته».[٣١]

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «حرّم الله المسجد لعلة الكعبة، وحرّم الحرم لعلة المسجد، ووجب الإحرام لعلة الحرم».[٣٢]

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «تفجرت العيون من تحت الكعبة».[٣٣]

وخرج أبوعبدالله عليه السلام من الكعبة وهو يقول: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أللهم لا تجهد بلاءنا، ولاتشمت بنا أعداءنا، فإنك أنت الضار النافع»؛ ثم هبط من الدرجة، فصلى إلى جانبها مما يلي

الحجر الأسود ركعتين، ليس بينه وبين الكعبة من أحد. ثم خرج إلى منزله.[٣٤]

عن مسعدة بن زياد قال: وحدثني جعفر عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «تاركوا الحبشة ما تاركوكم؛ فوالذي نفسي بيده لايستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين».[٣٥]

عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عما يروون أنّ الله خلق آدم على صورته، فقال: «هي صورة، محدثة، مخلوقة واصطفاها الله واختارها على سائر الصور المختلفة، فأضافها إلى نفسه، كما أضاف الكعبة إلى نفسه، والروح إلى نفسه، فقال: ﴿**بيتي**﴾، ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾.[٣٦]

محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن علي ابن رئاب، عن حمران بن أعين، قال: سمعت أباجعفر عليه السلام يقول: «إنّ الله فضل الإيمان على الإسلام بدرجة كما فضل الكعبة على المسجد الحرام».[٣٧]

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان موضع الكعبة ربوة من الأرض بيضاء تضيئ كضوء الشمس والقمر حتى قتل ابنا آدم أحدهما صاحبه فاسودت، فلما نزل آدم رفع الله له الأرض كلها، حتى رآها، ثم قال: هذه لك كلها؛ قال: يا رب ما هذه الأرض البيضاء المنيرة؟ قال: هي أرضي وقد جعلت عليك أن تطوف بها كل يوم سبعمائة طواف».[٣٨]

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ الله تبارك وتعالى جعل الكعبة قبلة لأهل المسجد، وجعل المسجد قبلة لأهل الحرم، وجعل الحرم قبلة لأهل الدنيا».[٣٩]

عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمّار عن أبي

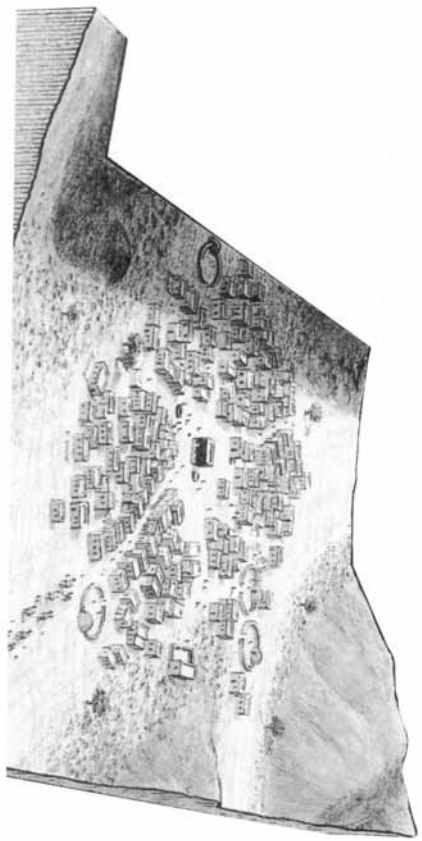

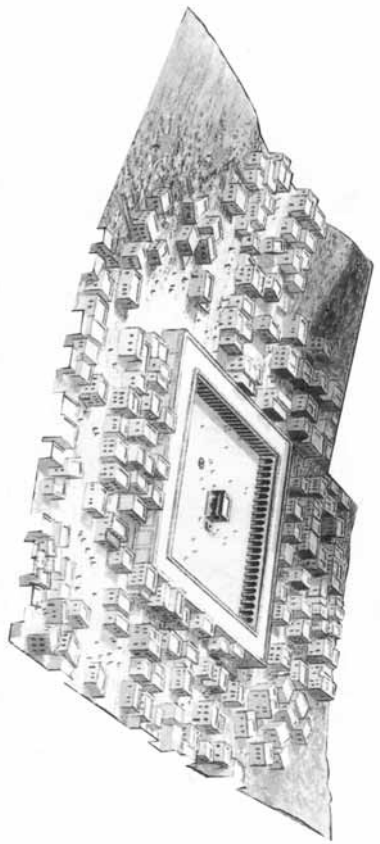

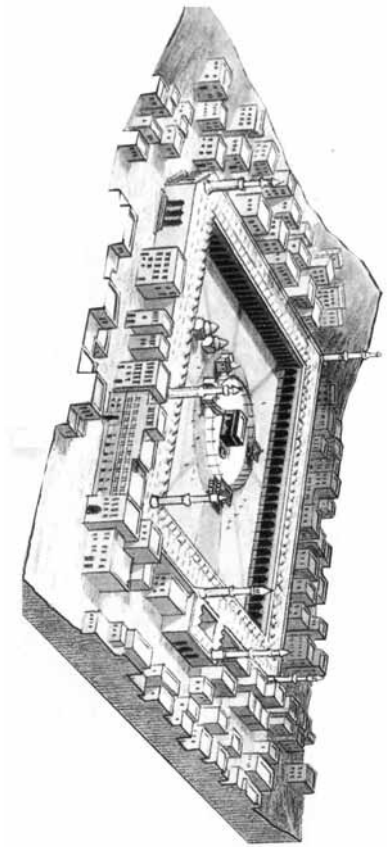

عبد الله عليه السلام قال: «إنّ لله تبارك وتعالى حول الكعبة عشرين و مائة رحمة، منها ستّون للطّائفين، وأربعون للمصلّين، وعشرون للنّاظرين».[٤٠]

أمالي الطوسي قدس سره عن الرضا عليه السلام قال: «دخل رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة والأصنام حول الكعبة، وكانت ثلاث مائة وستين صنماً، فجعل يطعنها بمخصرة في يده ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً وما يبدئ الباطل وما يعيد؛ فجعلت تنكب لوجوهها».[٤١]

عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «آمن برسول الله صلى الله عليه وآله إلا أربعة، عكرمة بن أبي جهل، وعبدالله بن أبي سرح، وأبي مقيس، وأبي صبابة (ابن خسامة خ د) والقنيتين سارة وفرسا وقال رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك يوم الفتح: أقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين (معلقين خ د) بأستار الكعبة».[٤٢]

كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول: «... وإذا صلى الرجل في المسجد الحرام كان أفضل خشوعه أن ينظر إلى الكعبة، وإذا صلى في غير المسجد الحرام كان أفضل خشوعه أن ينظر إلى موضع سجوده وإذا كان مقابل الكعبة لم يجزله أن يحتبي وهو ناظر إليها».[٤٣]

عن عبدالله بن ميمون القداح، عن جعفر بن محمد عليهما السلام، عن أبيه عليه السلام: «أنه رأى علي بن الحسين عليه السلام يصلي في الكعبة ركعتين».[٤٤]

أبوعلي الأشعري، عن بعض أصحابنا، عن ابن فضال، عن مروان، عن عبدالملك قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن رجل اشترى من كسوة الكعبة شيئاً فقضى ببعضه حاجته وبقي بعضه في يده هل يصلح بيعه؟ قال: «يبيع ما أراد ويهب ما لم يرد، ويستنفع به ويطلب بركته، قلت: أيكفن به الميت؟ قال: لا».[٤٥]

جماعة، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن فضالة بن أيوب، عن العلاء، عن محمد بن مسلم، عن أحدهما عليهما السلام قال: «لا تصلي المكتوبة في الكعبة». وروي في حديث آخر: «يصلي في أربع جوانبها إذا اضطر إلى ذلك».[٤٦]

عن محمد بن عبدالله الصيقل قال: خرج علينا أبو الحسن يعني الرضا عليه السلام في يوم خمسة وعشرين من ذي القعدة فقال: «صوموا فإني أصبحت صائما، قلنا: جعلنا فداك أي يوم هو؟ فقال: يوم نشرت فيه الرحمة، ودحيت فيه الأرض، ونصبت فيه الكعبة، وهبط فيه آدم عليه السلام».[٤٧]

علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن بعض أصحابنا، عن أبي الصباح الكناني، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من أحدث في الكعبة حدثا قتل».[٤٨]

أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن فضالة بن أيوب، عن معاوية بن عمار قال: «رأيت العبد الصالح عليه السلام دخل الكعبة فصلى ركعتين على الرخامة الحمراء، ثم قام فاستقبل الحائط بين الركن اليماني والغربي، فوقع يده عليه ولزق به و دعا، ثم تحول إلى الركن اليماني فلصق به ودعا، ثم أتى الركن الغربي ثم خرج».[٤٩]

أبي رحمه الله، قال: حدثنا علي بن سليمان الرازي، قال: حدثنا محمد بن خالد الخزاز، عن العلاء ، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «... ولا ينبغي لأحد أن يرفع بناءه فوق الكعبة».[٥٠]

وروي عن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام أنه قال: سألت أبي سيد العابدين عليه السلام فقلت له: يا أبة أخبرني... فقال: «... ومعنى قوله عزّوجل: ﴿**ففرّوا إلى الله**﴾ يعني حجوا إلى بيت الله، يا بني إنّ الكعبة بيت الله، فمن حجّ بيت الله فقد قصد

إلى الله، والمساجد بيوت الله، فمن سعى إليها فقد سعى إلى الله وقصد إليه، والمصلي ما دام في صلاته، فهو واقف بين يدي الله عزوجل...».[٥١]

وسأل المفضل بن عمر أبا عبد الله عليه السلام «... ومن كان في المسجد الحرام صلى إلى الكعبة إلى أي جوانبها شاء، ومصلي في الكعبة صلى إلى أي جوانبها شاء، وأفضل ذلك أن يقف بين العمودين على البلاطة الحمراء، ويستقبل الركن الذي فيه الحجر الأسود...».[٥٢]

وروي: «أنّ في تسع وعشرين من ذي القعدة أنزل الله عزّوجل الكعبة، وهي أول رحمة نزلت، فمن صام ذلك اليوم كان كفارة سبعين سنة».[٥٣]

قال أمير المؤمنين عليه السلام : «... ومن نظر إلى الكعبة عارفاً بحقها غفر الله له ذنوبه وكفى ما أهمه».[٥٤]

قال أبو جعفر عليه السلام: «لما أراد الله عز وجل أن يخلق الأرض أمر الرياح الأربع فضربن متن الماء حتى صار موجاً، ثم أزبد فصار زبداً واحداً، فجمعه في موضع البيت، ثم جعله جبلاً من زبد، ثم دحا الأرض من تحته، وهو قول الله عزّوجل: ﴿**إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للّذى ببكّة مباركاً**﴾ فأول بقعة خلقت من الأرض الكعبة، ثم مدت الأرض منها».[٥٥]

الحسين بن سعيد، عن الحسن بن علي بن فضال، عن يونس بن يعقوب، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام حضرت الصلاة المكتوبة وأنا في الكعبة أفأصلي فيها؟ قال: صلّ».[٥٦]

روى الصدوق، عن أبيه، عن سعد بن عبدالله، عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحسن الطويل، عن عبدالله بن المغيرة، عن ذريح بن يزيد المحاربي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ الله عزّوجلّ أغرق الأرض كلها يوم نوح إلاّ البيت، فيومئذ سمي

العتيق؛ لأنه أعتق يومئذ من الغرق، فقلت له: أصعد إلى السماء؟ فقال: لا، لم يصل إليه الماء، و رفع عنه».[٥٧]

قال الصادق عليه السلام: «أساس البيت من الأرض السابعة السفلى إلى الأرض السابعة العليا».[٥٨]

أبان بن عثمان، عمن أخبره عن أبي جعفر عليه السلام: قلت له: لم سمي البيت العتيق؟ قال: «هو بيت حر عتيق من الناس، لم يملكه أحد».[٥٩]

أبوحمزة الثمالي: قلت لأبي جعفر عليه السلام في المسجد الحرام: لأي شيء سماه الله العتيق؟ فقال: «إنه ليس من بيت وضعه الله على وجه الأرض إلاّ له رب وسكان يسكنونه، غير هذا البيت، فإنه لاربّ له إلاّ الله عزّوجلّ، وهو الحرّ».[٦٠]

الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله عزّوجلّ أغرق الأرض كلها يوم نوح إلاّ البيت، فيومئذ سمي العتيق؛ لأنه أعتق يومئذ من الغرق».[٦١]

عنه عليه السلام ـ حين سئل: لم سمي البيت العتيق؟ ـ : «لأنّ الله تعالى عتقه من الطوفان».[٦٢]

الإمام علي عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للّذى ببكّة مباركاً**﴾: «كانت البيوت قبلة، ولكن كان أول بيت وضع لعبادة الله».[٦٣]

خالد بن عرعرة: سأل رجل علياً عليه السلام عن: ﴿**أوّل بيت وضع للنّاس للّذى ببكّة مباركاً**﴾ أهو أول بيت بني في الأرض؟ قال: «لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة والهدى ومقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً».[٦٤]

الإمام الباقر عليه السلام: ﴿**إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للّذى ببكّة مباركاً**﴾ «فأول بقعة خلقت من الأرض الكعبة، ثم مدت الأرض منها».[٦٥]

زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام: «ما خلق الله عزّوجلّ بقعة في الأرض أحب إليه منها ـ ثم أومأ بيده نحو الكعبة ـ ولا أكرم على الله عزّوجلّ

منها، لها حرم الله الأشهر الحرم في كتابه يوم خلق السماوات والأرض، ثلاثة متوالية للحج: شوال وذو القعدة وذو الحجة، وشهر مفرد للعمرة (وهو) رجب».[٦٦]

الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله عزّوجلّ اختار من كل شيء شيئاً، (و) اختار من الأرض موضع الكعبة».[٦٧]

عنه عن آبائه عليهم السلام ـ في وصف الكعبة ـ : «البيت حجة الله في أرضه على خلقه».[٦٨]

يونس: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إذا دخلت الكعبة كيف أصنع؟ قال: «خذ بحلقتي الباب إذا دخلت، ثم امض حتى تأتي العمودين، فصل على الرخامة الحمراء، ثم إذا خرجت من البيت فنزلت من الدرجة فصل عن يمينك ركعتين».[٦٩]

الإمام الباقر عليه السلام: «أما بدء هذا البيت فإنّ الله تبارك وتعالى قال للملائكة: ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ فردت الملائكة على الله عزّوجلّ فقالت: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾؟![٧٠] فأعرض عنها، فرأت أنّ ذلك من سخطه فلاذت بعرشه، فأمر الله ملكاً من الملائكة أن يجعل له بيتاً في السماء السادسة يسمى الضراح،[٧١] بإزاء عرشه، فصيره لأهل السماء، يطوف به سبعون ألف ملك في كل يوم لايعودون، ويستغفرون. فلما أن هبط آدم إلى السماء الدنيا أمره بمرمة هذا البيت ـ وهو بإزاء ذلك ـ فصيره لآدم وذريته كما صير ذلك لأهل السماء».[٧٢]

عن أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام: «أمر الله الملائكة أن تبني في الأرض بيتاً ليطوف به من أصاب ذنباً من ولد آدم عليه السلام كما طافت الملائكة بعرشه؛ فيرضى عنهم كما رضي عن الملائكة، فبنوا مكان البيت بيتاً

رفع زمان الطوفان، فهو في السماء الرابعة، يلجه كل يوم سبعون ألف ملك لايعودون إليه أبداً، وعلى أساسه وضع إبراهيم عليه السلام البيت...».[٧٣]

أبوخديجة عن الإمام الصادق عليه السلام: قلت له: لم سمي البيت العتيق؟ قال: «إنّ الله عزّوجلّ أنزل الحجر الأسود لآدم من الجنة، وكان البيت درة بيضاء، فرفعه الله إلى السماء وبقي أسه، فهو بحيال هذا البيت يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لايرجعون إليه أبداً، فأمر الله إبراهيم وإسماعيل ببنيان البيت على القواعد».[٧٤]

عوالي اللآلي: وفي الحديث: «أنّ إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء البيت، جاء جبرئيل فأمره أن يؤذن في الناس بالحج، فقال إبراهيم: يا رب وما عسى أن يبلغ صوتي؟ فقال تعالى: أذّن وعليّ البلاغ، فعلا إبراهيم المقام فارتفع حتى صار كأعلى طود يكون من الجبال، وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً، ونادى: أيها الناس، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا، فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء: لبيك اللهم لبيك».[٧٥]

عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن إسماعيل، عن محمد بن الفضيل، عن أبي الصباح الكناني، عن أبي عبدالله عليه السلام إنه سئل عن استلام الكعبة؟ فقال: «من دبرها».[٧٦]

عن صفوان عن الجاهد عن ذريح قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام في الكعبة وهو ساجد وهو يقول:

«لا يرد غضبك إلاّ حلمك، ولا يجير من عذابك إلاّ رحمتك، ولا نجاء منك إلاّ بالتضرع إليك، فهب لي يا إلهي فرجاً بالقدرة التي بها تحيي أموات العباد، وبها تنشر ميت البلاد، ولا تهلكني يا إلهي غماً

حتى تستجيب لي دعائي، وتعرفني الإجابة، أللهم ارزقني العافية إلى منتهى أجلي، ولا تشمت بي عدوي ولا تمكنه من عنقي، من ذا الذي يرفعني إن وضعتني، ومن ذا الذي يضعني إن رفعتني، وإن أهلكتني فمن ذا الذي يعرض لك في عبدك، أو يسألك عن أمرك، فقد علمت يا إلهي أنه ليس في حكمك ظلم، ولا في نقمتك عجلة، وإنما يعجل من يخاف الفوت، ويحتاج إلى الظلم الضعيف، وقد تعاليت يا إلهي عن ذلك، إلهي فلا تعجلني للبلاء غرضاً، ولا لنقمتك نصباً، ومهلني ونفسي، وأقلني عثرتي، ولا ترد يدي في نحري، ولا تتبعني ببلاء على اثر بلاء، فقد ترى ضعفي وتضرعي إليك، ووحشتي من الناس، وأنسي بك، أعوذ بك اليوم فأعذني، وأستجير بك فأجرني، وأستعين بك على الضراء فأعني، واستنصرك فانصرني، وأتوكل عليك فاكفني، وأؤمن بك فآمني، وأستهديك فاهدني، وأسترحمك فارحمني، وأستغفرك مما تعلم فاغفر لي، وأسترزقك من فضلك الواسع فارزقني، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».[٧٧]

عن إبراهيم بن أبي محمود قال: رأيت أبا الحسن عليه السلام ودّع البيت، فلما أراد أن يخرج من باب المسجد خرّ ساجداً، ثم قام فاستقبل الكعبة فقال: «أللهم إني أنقلب على أن لا إله إلاّ أنت».[٧٨]

الهوامش:

١ . بحار الأنوار٢٩ : ٣٤٠ ؛ مسند الرضا عليه السلام، داود بن سليمان الغازي: ٢٠٣ ؛ كمال الدين، الشيخ الصدوق:٢٣٨.

٢ . أنظر التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله للشيخ منصور علي ناصف، من علماء الأزهر الشريف١: ٤٧ ؛ كتاب الإسلام والإيمان. و٣: ٣٤٨ كتاب الفضائل، وغيره من المصادر.

٣ . الكافي٤ : ٢٧١.

٤ . من لايحضره الفقيه ٢ : ١٩٠؛ الأمالي، الصدوق : ٢٥٤.

٥ . الكافي ٤ : ١٩٧.

٦ . من لايحضره الفقيه ٢ : ٥١٩ ؛ وسائل الشيعة ١١: ١٢.

٧ . الكافي ٨ : ١٠٧.

٨ . المصدر السابق ١: ٣٩٢.

٩ . المصدر السابق ٢: ٢٦.

١٠ . المصدر السابق ٤: ٢٢٤.

١١ . المصدر السابق ٤: ٢٢٥.

١٢ . المصدر السابق ٤: ٢٢٧.

١٣ . المصدر السابق ٤: ٢٢٩.

١٤ . التبيان، الشيخ الطوسي٢: ٥٣٤.

١٥ . المصدر السابق ٥ :٤٠٠.

١٦ . المصدر السابق ٩ :١٤٠.

١٧ . المصدر السابق ٩ :٤٠٢.

١٨ . المصدر السابق.

١٩ . الكافي ٤: ٢١٧.

٢٠ . المصدر السابق٢: ٢٦.

٢١ . الخصال، الشيخ الصدوق:١٢٠.

٢٢ . بحار الأنوار٩٦ : ٧٨.

٢٣ . تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي٥: ٢٧٦.

٢٤ . الكافي٤: ١٨٩.

٢٥ . وسائل الشيعة، الحر العاملي١١: ٦٠.

٢٦ . بحار الأنوار، العلامة المجلسي٩٦: ٥٧.

٢٧ . الكافي ٤ :٢٤٠.

٢٨ . المصدر السابق٤ :٢٢٩.

٢٩ . المصدر السابق.

٣٠ . المحاسن، أحمد بن محمد بن خالد البرقي١: ٦٩ ؛ وسائل الشيعة١٣: ٢٦٥.

٣١ . المحاسن، أحمد بن محمد بن خالد البرقي١: ٦٩.

٣٢ . المصدر السابق٢: ٣٣٠.

٣٣ . المصدر السابق٢: ٥٧٠.

٣٤ . قرب الإسناد، الحميري القمي : ٤.

٣٥ . المصدر السابق :٨٢ . قال ابن الأثير في نهايته٢ : ٤٢٣ : السويقة تصغير الساق، وهي مؤنثة، فلذلك ظهرت التاء في تصغيرها، وأنما صغر الساق لأنّ الغالب على سوق الحبشة الدقة والحموشة.

٣٦ . الكافي١ : ١٣٤.
٣٧ . المصدر السابق ٢ : ٥٢.
٣٨ . المصدر السابق ٤ : ١٨٩.
٣٩ . علل الشرائع، الشيخ الصدوق٢: ٤١٥.
٤٠ . الكافي٤ :٢٤٠.
٤١ . بحار الأنوار٢١: ١١٦.
٤٢ . الأصول الستة عشر ـ عدة محدثين ـ :٣٥.
٤٣ . المصدر السابق: ١٢٣ـ ١٢٤.
٤٤ . قرب الإسناد، الحميري القمي: ٢٣.
٤٥ . الكافي، الشيخ الكليني٣: ١٤٨.
٤٦ . المصدر السابق٣: ٣٩١.
٤٧ . المصدر السابق٤: ١٤٩ـ١٥٠.
٤٨ . المصدر السابق٧: ٢٦٥.
٤٩ . المصدر السابق٤: ٥٢٩.
٥٠ . علل الشرائع، الشيخ الصدوق٢: ٤٤٦.
٥١ . من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق١: ١٩٨ـ ١٩٩.
٥٢ . المصدر السابق١: ٢٧٢ـ ٢٧٤.
٥٣ . المصدر السابق٢: ٩٠.
٥٤ . المصدر السابق٢: ٢٠٣ـ ٢٠٤.
٥٥ . المصدر السابق٢: ٢٤١.
٥٦ . الاستبصار، الشيخ الطوسي١: ٢٩٨.
٥٧ . علل الشرايع٢ :٣٩٩، باب العلة التي من أجلها سمي البيت العتيق، ح ٥.
٥٨ . الوسائل٤ :٣٣٩، الباب ١٨ من أبواب القبلة، ح ٣؛ والفقيه٢ :٢٤٢.
٥٩ . الحج والعمرة في الكتاب والسنة، محمدي الري شهري:٧٤، نقلاً عن: الكافي٤: ٦/١٨٩؛ المحاسن٢: ١١٨٥/٦٦؛ علل الشرائع:٣/٣٩٩ ؛ الفقيه٢: ٢١١٣/١٩١.
٦٠ . المصدر السابق.
٦١ . المصدر السابق.
٦٢ . المصدر السابق؛ إحقاق الحق١٢: ٢٩٠ نقلاً عن نورالأبصار والفصول المهمة.
٦٣ . كنزالعمال،المتقي الهندي٢: ٣٧٨، ح٤٢٩٧ ؛ تفسير الميزان، السيد الطباطبائي٣: ٣٥٦.
٦٤ . المستدرك، الحاكم النيسابوري٢: ٢٩٣.
٦٥ . من لايحضره الفقيه، الشيخ الصدوق٢: ٢٤١ ؛ تفسير الميزان٣: ٣٥٦.
٦٦ . تفسير نور الثقلين٢: ٢١٥.
٦٧ . الفقيه٢: ٢٣٠٦/٢٤٣.
٦٨ . تفسير العياشي١: ٢٢/٣٩.
٦٩ . الكافي، الشيخ الكليني٤ : ٥٣٠.
٧٠ . البقرة:٣٠.
٧١ . الضراح: بيت في السماء مقابل الكعبة في الأرض، قيل: هو البيت المعمور (تاج العروس٤: ١٣٤).
٧٢ . الكافي٤ :١٨٧.
٧٣ . بحار الأنوار ٩٦ : ٤٧ ؛ دعائم

الإسلام٢٩٢:١.

٧٤. بحار الأنوار ٥٥ : ٥٧ ؛ علل الشرائع:١/٣٩٨؛ الفقيه٢: ٢٣٠٢/٢٤٢.

٧٥. عوالي اللئالي، ابن أبي جمهور الأحسايي٤ : ٣٦ ؛ مستدرك الوسائل٨ :١١ـ١٢ ؛ جامع أحاديث الشيعة ١٠ : ٢٣٥.

٧٦. المصدر السابق.

٧٧. تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي٥: ٢٧٦ـ٢٧٧ ؛ جواهر الكلام٢٠ : ٦٣ـ٦٢.

٧٨. تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي٥ :٢٨١.

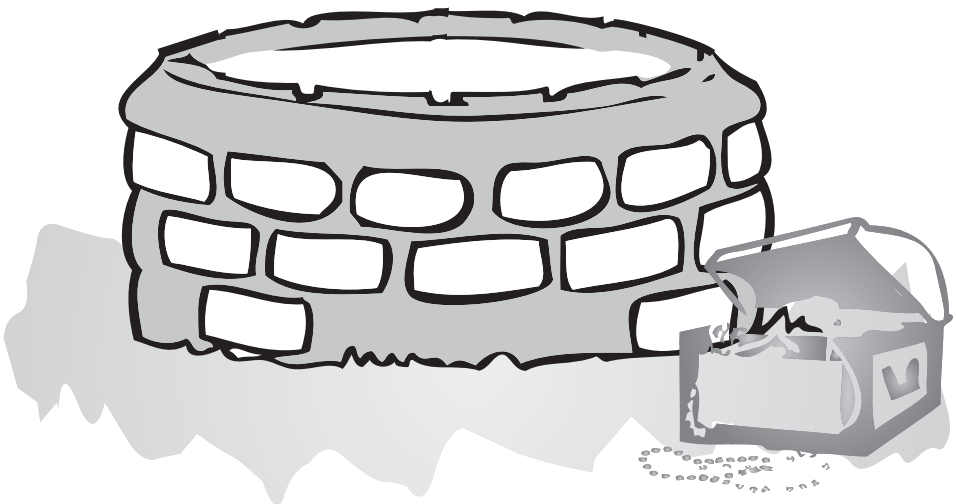

الأخسف بئر الكعبة وخزنتها
دراسة في أدواره التاريخية

الدكتور عمار عبودي نصار - كلية الآداب/ جامعة الكوفة

مقدمة:

تــرك البناء الذي بناه إبراهيم عليه السلام ـ بواد غير ذي زرع وأســكن فيه ذرّيته، وأذَّن في الناس؛ لكي يأتوا إليه حجاجاً، وعلى كل ضامر، ومن كل فج عميق

ـ انطباعـاً ظـل يتعاظـم في عقول الناس منذ ذلك العصر السـحيق، وإلى يومنـا الحاضر ، ولا سـيما أنّ الحج لهذا البيت عدّ الركن الخامس لأركان الإسلام، الدين الخاتم للأديان السماوية.

كلّ ذلك قد حدث في وقت شاء الله أن يعيد إلى الوجود بيته وكعبته، الذي اندرسـت معالمـه منذ طوفان نوح، ليكون إحياؤه على يدي خليله إبراهيم وابنـه البكر إسماعيل عليهما السلام، وهذه المشـيئة التي تجسـدت بهذا العمل الذي قام به هـذان النبيّان، قد أكسـبه صبغة تختلـف عن التي اصطبغـت بهـا الأبنية المقدسـة الأُخرى عند باقي الملل من البشـر، إذ شـكل كل معلم وشـاخص من هـذا البنـاء دلالة ورمزيـة تختلف بمضمونها وجزئياتها عن باقي معالم البيت الأخرى من الحجر الأسود إلى حجر إسماعيل (الحطيم) إلى الأركان الأربعة إلى الشاذروان، والمقام الذي وقـف عليه إبراهيـم واتخذ مصلى إلى بئر زمـزم والبئر التي في جوف الكعبة (الأخسـف) الذي هو محل البحث؛ كل هـذه المعالم التي وضع لمسـاتها إبراهيـم عليه السلام قـد كانت محل اهتمـام الشـعراء والمؤرخين والإخباريـين والرواة، الذين فاحت رواياتهم وأحاديثهم على كل واحد من هذه المعالم..

لأجل مـا تقدم، فقـد لاحظت من خلال اطلاعـي المتواضع على البحوث و الدراسـات، التي كتبت عن معالم البيت تلـك، لم أجد ممن ركـز في البحث على بئر الكعبة أو جبّ الكعبة، وكما اصطلحوا على تسـميته بالأخسـف أو الأخشف؛ إذ وجـدت أنّ هـذه البئر قد مرت عليهـا أدوار تاريخية متعددة جعلتها رمزاً من رموز البيت العتيق، ومحطّ أنظـار كلّ من تعاقب عليها، وذلك

للمهمة والغرض الذي من أجله قد حفر في جوف الكعبة.

دفعتني وفرة النصوص، التي حفلت بها المصادر المتقدمة في الحديث عن هذا الجبّ، إلى الخوض في بحثه من خلال تسليط الضوء على الأدوار التاريخية المتعاقبة له خلال القرون، التي سبقت الإسلام والتي تلته إلى أن عفيت آثاره، وسويت جنباته بأرضية الكعبة، بعد أن انتفى الغرض الذي من أجله قد حفر؛ ليكون خزينة ووعاء للهدايا والهبات، التي يقدمها الناس لهذا البيت.

ابتدأت بحثي هذا بالوجه اللغوي لتسمية هذه البئر بالأخسف أو الأخشف، ثمَّ أردفت ذلك بالوقوف على الإشارات التي تفرقت هنا وهناك في جنبات المصادر، التي تطرقت بالحديث عن هذه البئر، ولا سيما تلك التي تحدثت عن حفر إبراهيم لها ومقدار العمق الذي انتهى إليه، ثمَّ التضاؤل الذي حصل في عمقها نتيجة التراكم والهدم، الذي انتاب جدرانها نتيجة تقادم الزمن وتعاقب العصور.

أردفت كلامي آنف الذكر بالتطرق إلى الموروث الشفاهي، الذي وصل إلينا عن الحوادث الغابرة، التي مرت على بئر الكعبة قبل الإسلام، والهدايا التي رميت فيها، والأيادي التي امتدت لسرقتها، وموقف كل من جرهم، وخزاعة، وقريش، (القبائل التي تولّت رعاية الحرم) من الكنوز والأموال الموجودة فيها.

أعقبت ذلك بما كان من أثر السيول وحالات البناء المتكررة للبيت الحرام على البئر والتصرف بالأموال الموجودة فيها، وما كان من حادثة بناء قريش الكعبة أيام شباب الرسول ﷺ ومشاركته في هذا

البناء، ثمَّ ما كان من المواقف، التي اتخذها ﷺ بعد فتحه لمكة، ومحاولته التصرف بالأموال التي كانت في هذه البئر.

ثمَّ عطفت بعد ذلك بعرض الأحداث، التي رافقت هذا البيت المعظم من الجاهلية والإسلام، من خلال ما جرى في العصر الراشدي من حوادث، ورغبة بعض خلفائه في التصرف بالأموال الموجودة في هذه البئر، أو خزانة الكعبة وإنفاقها في أمور المسلمين، وموقف أعيان الصحابة وكبارهم من هذا المستجد، الذي لم يألفوه في السابق.

ثمَّ الحديث عن المجريات التي حدثت في العصر الأموي، من ضرب الكعبة بالمنجنيق، وحرقها، وتهديمها أيام ابن الزبير، وبنائها مرة أخرى، وما طرأ من المحدثات في تلك الحوادث المتسارعة، والتي لم تحدث أيام الجاهلية من تدنيس حرمة بيت الله والتعدي عليه بهذا الشكل.

أردفت ذلك الأمر بالتعريج على الحوادث، التي جرت في العصر العباسي من التعدي على هذا المال، وأخذه حتى كانت حادثة الطالبي بمكة هي لحظة التوقف لهذا البحث، إذ انتهى فيه وجود البئر كضرورة لخزن مال الكعبة بعد أن أفرغت في الثورة التي حصلت أيام المأمون.

أعتمد البحث على مصادر متنوعة، كان لكتب التواريخ المحلية المتخصصة في تاريخ مكة القدح المعلى في إرداف البحث بنصوص قيمة، قلما تجدها في مصادر غيرها، يقف في طليعة تلك الكتب كتاب أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، لأبي الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي (ت٢٤٤هـ)، حيث قدم للبحث فائدة مثلى، وذلك لإحتوائه على نصوص مهمة ومتنوعة حول تاريخ مكة، والقبائل التي تعاقبت

على رعاية بيت الله الحرام، والحوادث التي رافقت كل منها.

ثم يأتي الدور لكتب التواريخ العامة، فقد كان لها هي الأخرى الدور البارز في إرفاد البحث بنصوص فريدة، طورت من حركية البحث، ودعمت الفرضيات التي بني عليها، حيث كان كتاب تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) في طليعة تلك الكتب، ثم تجيء كتب السيرة النبوية على صاحبها أشرف سلام وتحية، ولاسيما السيرة التي كتبها محمد بن إسحاق (ت١٥١هـ) وهذبها عبدالملك بن هشام (٢١٤هـ)، وغيرها من الكتب الأخرى، أمثال كتب الحديث والمعارف العامة، والتي أثبتناها في أواخر البحث.

تلك هي ملامح البحث ومحدداته، وأهم المصادر التي اعتمد عليها، نسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وهدية نقدمها إلى أعتاب بيته الحرام، عسى أن تنفعنا في يوم لاينفع فيه مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

الأخسف: لغة واصطلاحاً:

الأخسف ومصدرها (خسف وتخسف، أو تعني الدنو والانحطاط، وبئر خسيف وتعني عين غائرة، وبئر محفورة في صخر لاينقطع ماؤها لكثرته، وهي جمع خسف وأخسفة)، ويعطي الفراهيدي (ت١٨٢هـ) توضيحاً أشمل لمعنى النص المختلف على دلالاته إذ يقول: (الخسف سؤوخ الأرض بما عليها من الأشياء، وبئر خسيف مخسوفة، أي نقب جبلها عن عيلم الماء فلا تنزف أبداً).[١]

ويتوافق ابن فارس (ت٣٢١ هـ) مع ما ذكره سابقه من أن مصطلح (خسف) هو من الغموض والغور، وبئر خسيف إذا كسر جبلها فانهار

ولم ينشرخ ماؤها.[٢]

وفي مورد آخر أخسفت الأرض خسفاً وخسوفاً غارت بما عليها، وأخسفت العين عميت، ويقال حفر فأخسف، وجد بئره غائرة.[٣]

ولأجل ذلك أطلق الناس على البئر الموجودة في الكعبة بالأخسف، نتيجة لغوار مائها واندثارها، فضلاً عن أنّ هذه البئر لم تكن يوماً لغرض استنباط الماء والشرب منها، فلم تتحدث المصادر عن استعمالها للسقي مع وجود بئر زمزم القريب منها، بل كانت لحفظ الأموال والهدايا المقدمة للكعبة.

يتحدث الأزرقي (ت٢٤٤هـ) عن رواية أخرى وترجيح مغاير لذلك من أنّ تسمية الأخسف جاءت من انخساف هذه البئر بالسارق، الذي أراد تدنيس الكعبة وسرقة كنوزها ومالها، « فأرسل الله عزّوجلّ حجراً من البئر فحبسه، حتى راح الناس، فوجدوه، فأخرجوه، وأعادوا ما وجدوا في ثوبه في البئر، فسميت تلك البير الأخسف».[٤]

وردت تسمية الأخسف في المصادر القديمة منحصرة بالبئر، التي في جوف الكعبة على يمين الداخل إليها، ولكن هنالك تسميات عديدة أطلقت عليها عند العرب أمثال بئر الكعبة، أو جبّ الكعبة، والفرق بين الجبّ والبئر أنّ الأول هو أعمق من الثاني، فكل جبّ هو بئر، و ليس كل بئر هي جبّ.

القدم التاريخي لبئر الكعبة (الأخسف)

يتحدث الإخباريون العرب أنّ بئر الكعبة والمعروف بالأخسف، ترجع بقدمها إلى وقت رفع النبي إبراهيم عليه السلام لقواعد البيت العتيق، حيث تحدثت الروايات عن حفره عليه السلام هذه البئر؛ لتكون بمثابة خزينة لحفظ

ما يهدى للكعبة من حلي أو ذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك.[٥]

وذهبت بعض الأقوال إلى أنّ بئر الكعبة هي الحطيم،[٦] ولكن هذا الرأي لا يعتدّ به، فالمشهور عند معظم علماء المسلمين في ذلك أنّ الحطيم هو المكان الذي بين باب الكعبة والحجر الأسود.[٧]

ولكن مع هذا التعارض والغرابة في ذهاب البعض إلى عدّ الحطيم هو بئر الكعبة، نستطيع أن نستصحب قرينة وجود بئر الكعبة على يمين الداخل إلى جوف الكعبة بحسب رواية الأزرقي،[٨] وبين التحديد المكاني للحطيم الذي يقع بحسب هذه القرينة خلف الجدار الملاصق للبئر على اعتبار أن مقام إبراهيم والحجر يقعان إلى يمين باب الكعبة، وكما هو ملاحظ للعيان في هذه الأزمنة.

ومن ثمَّ فإنّ وظيفة هذه البئر كانت بالدرجة الأساس لتكون خزينة للكعبة، إذ لم تتحدث المصادر المتقدمة عن رواية أخرى تخالف ذلك أو تعارضه، وهذا الأمر هو أقرب للواقع؛ لأنّ هذه البئر قد وجدت في جوف الكعبة قبل أن يكون لها حجبة يحجبون الناس من الدخول إليها، فضلاً عن ذلك، فلم يكن في تلك العصور السحيقة في القدم أبنية ومواضع لحفظ الأموال والهدايا، يدل على ذلك ما وصل إلى عاصمة الخلافة (المدينة المنورة) من أخماس الفتوحات وصدقات الأقاليم من الأموال والحلي، أنّها قد طرحت على باحة المسجد، وقال عند ذلك الخليفة عمر بن الخطاب بعد ما رأى كثرة الأموال المطروحة على الأرض «إنه قد قدم علينا مال كثير، فإن شئتم أن نعدّ لكم عداً، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً».[٩]

فعند ذلك لم يكن لدى المتولين

لأمور الكعبة أي موضع آخر غير هذه البئر التي حفرت لهذا الغرض، فضلاً عن أنّ وجودها في جوف الكعبة لم يكن لغرض شرب الماء منه مع وجود بئر زمزم بالقرب منها، ومقدار عمق هذه البئر الذي حدده الواصفون له بقرابة المتر والنصف (ثلاثة أذرع) وعرضه ما يدور فيه الرجل حول نفسه.[١٠]

مرت على هذه البئر أحداث وعصور متعددة، ونتيجة لوجودها في مكان مقدس، لم يفكر أيّ أحد بمدّ يده إليها، ووضعت فيها أنفس الأشياء وأثمنها من مقتنيات البشر ولوازمهم من الذين يحجون لهذا البيت، بل وحتى العهود والمواثيق والمكاتبات، إذ يتحدث المؤرخون عن عثور قريش عند نقضها للبيت وبنيانه قبيل الإسلام، أنّهم قد وجدوا في بئر الكعبة كتابين قد رُميا فيها من صفر مثل بيض النعام مكتوباً في أولها: «هذا بيت الله الحرام رزق الله أهله العبادة، لا يحله أول من أهله» والآخر: «براءة لبني فلان حي من العرب من حجة لله حجوها».[١١]

بقيت الكعبة وهذه البئر على حالها الذي بنيت فيه لدرجة أن لم يكن يظلل هذا البيت سقف، وحتى البنيان الذي بنيت به الكعبة لم يعطِ لهذا البيت منعة من الأطماع سوى القداسة والرهبة، التي كانت في نفوس الناس نحوه، ولم يدنسه أي صنم أو وثن، ولكن تقادم الزمن، وتبلبل عقول الناس، وانحرافهم عن الشرائع والسنن، التي جاء بها الأنبياء؛ لتسري عبادة الأصنام تدريجياً في أرض العرب المتبعة لحنيفية إبراهيم عليه السلام سريان النار في الهشيم، فقام زعيم مكة في وقته (عمرو بن لحي) بجلب صنم يدعى هبل إلى أرض العرب، وأدخله جوف الكعبة، ووضعه فوق بئر الأخسف،

وأمر الناس بعبادته، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده.[١٢]

إنّ وجود الأصنام في هذا البيت مع اعتقاد كل قبيلة بصنم تعبده، قد زاد من النذور والهدايا المقدمة إلى الكعبة، ولا سيما تلك التي وضعت في البئر الأخسف، حتى عند فتح الرسول صلى الله عليه وآله لمكة سنة ٨ هـ وتطهيره الكعبة من أرجاس الجاهلية وأوثانها، وجد في تلك البئر قرابة سبعين ألف أوقية من ذهب كان يهدى إلى البيت والأصنام التي في جوفه.[١٣]

بقيت هذه البئر على وضعها الأول أيام جرهم إلى أيام النبي صلى الله عليه وآله إذ تحدثت كتب السيرة عن بنيان قريش للبيت قبل البعثة بخمس سنين، وهذا البنيان قد أتى على هذه البئر وعفاها، وأعيدت من جديد.

ويتحدث الأزرقي عن وصف ذلك في رواية طويلة عن كيفية إعادة بناء البيت بعد هدمه، وإخراج الكنوز والأموال الموجودة في تلك البئر محل الشاهد منها:

«أخرجوا ما كان في البيت من حلية ومال وقرني الكبش [الذي فدي به إسماعيل] وجعلوه عند أبي طلحة عبدالله بن عبد العزى بن عثمان بن عبدالدار بن قصي، وأخرجوا هبل، وكان على الجبّ الذي فيه نصبه عمرو بن لحي هنالك، ونصب عند المقام حتى فرغوا من بناء البيت، فردوا ذلك المال في الجبّ، وعلقوا فيه الحلية وقرني الكبش، وردوا الجب في مكانه فيما يلي الشق الشامي، ونصبوا هبل على الجبّ، كما كان قبل ذلك، وجعلوا له سلماً يصعد عليه إلى بطنها...».[١٤]

السرقات والتعدي التي تعرضت لها بئر الكعبة وخزينتها:

كانت الأموال الجزيلة والهدايا

النفيسة، التي رميت في جبّ الكعبة، وعلقت على جدرانها الداخلية مدعاة لأن تشرئب لها أعين الطامعين والرعاع من الذين لا يتورعون عن فعل أي منكر مهما كانت درجة قبحه وشناعته، وهو ما دفع البعض للسطو على ذلك البئر وسلب محتوياته، حيث تتحدث المصادر من أنّ حرمة الكعبة قد انتهكت مرات عديدة، وذلك من خلال التعدي عليها وأكل مالها وسرقته، إذ تتحدث المصادر عن قيام مجموعة من اللصوص بمحاولة سرقة الهدايا والحلي التي أهداها الناس للكعبة، والتي وضعت في بئرها الأخسف، وذلك في أيام جرهم التي وصفها المؤرخون بأنّها قد وصلت من البغي والتعدي على حرمات بيت الله أن استحلوا حرمتها، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها، وظلموا من دخل مكة، ثمَّ لم يتناهوا حتى جعل الرجل منهم إذا لم يجد مكاناً يزني فيه يدخل الكعبة فيزني.[١٥]

ولشدة بغي هذه القبيلة أن وصل الأمر باستهتارها أن قام خمسة من رجالاتها بمحاولة سرقة المال الذي في جبّ الكعبة، لا سيما أنّ الكعبة في أيامهم لم يكن لها سقف، حيث يصف الأزرقي هذه الحادثة بالقول: «وكان للبيت خزانة بئر في بطنه، يلقى فيها الحلي والمتاع الذي يهدى له، وهو يومئذ لا سقف له، فتواعد له خمسة نفر من جرهم أن يسرقوا ما فيه، فقام على كل زاوية من البيت رجل منهم واقتحم الخامس، فجعل الله عزّوجلّ أعلاه أسفله، وسقط منكساً فهلك، وفرّ الأربعة الآخرون، فعند ذلك مسحت أو مسخت الأركان الأربعة».[١٦]

تكررت حادثة السرقة في تلك الحقبة التي سبقت الإسلام، إذ ينقل السهيلي (ت٥٨١ هـ) رواية عن

محاولة أخرى؛ لسرقة محتويات تلك البئر أيام جرهم، لدرجة أنّه دخل رجل تلك البئر، التي فيها كنزها، فسقط عليه حجر فحبسه فيها، حتى أخرج منها وانتزع المال منه.[١٧]

أعطى الأزرقي توضيحاً وتفصيلاً لهذه الحادثة، إذ أعتبر أنّ السارق لهذا الكنز هو الشخص الذي وضع لحراسته، وربما كانت حادثة أخرى، ولكن وقائعها تشبه سابقتها إذ قال: «وكانت الكعبة ليس لها سقف، فسرق منها على عهد جرهم مال مرة بعد مرة، وكانت جرهم ترتضي لذلك رجلاً يكون عليه يحرسه، فبينا رجل ممن ارتضوه عندها إذ سولت له نفسه فانتظر حتى إذا انتصف النهار، وقلصت الظلال، وقامت المجالس، وانقطعت الطرق، ومكة إذ ذاك شديدة الحر، بسط رداءه، ثمَّ نزل في البئر، فأخرج ما فيها، فجعله في ثوبه، فأرسل الله عزوجل حجراً من البئر فحبسه حتى راح الناس فوجدوه فأخرجوه، وأعادوا ما وجدوا في ثوبه في البئر، فسميت تلك البير الأخسف».[١٨]

تتحدث المصادر العربية القديمة ورواة أخبارها السابقة أنّ الله قد قيض ثعباناً ضخماً يحرس هذا الجب، بعد ما رأى عجز البشر عن الصمود على إغراء المال الموجود فيه حتى أنّهم قالوا عن هذا الثعبان أقوالاً عدة وصلت حدَّ المبالغة، لدرجة أن جعلوا عمرها أكثر من خمسمائة عام، فلا يدخله أحد إلاّ رفع رأسه وفتح فاه، فلا يراه أحد إلاّ ذعر منه، وكان ربما يشرف على جدار الكعبة، فأقام كذلك في زمن جرهم، وزمن خزاعة، وصدراً من عصر قريش.[١٩]

ولكن هذا العمر الطويل لهذا الثعبان لم نجده في مصنفات أخرى، بل اكتفت بالحديث عن وجود حية

تسكن بئر الكعبة تخيف الداخل إليها التي اختطفها طائر من على جدار الكعبة ورماها بالحجون خارج مكة.[٢٠]

بينما ذكرت مصادر أخرى أنّه جاء عقاب فاختطفه ثم طار به نحو أجياد الصغير.[٢١]

إنّ هذه الأفعي التي كانت على بئر الأخسف، قد أعطاها السهيلي بعداً وذلك من خلال إيراد رواية أكثر غرابة قد شكك فيها نفسه من جعل ذلك الثعبان الدابة التي تكلم الناس قبل يوم القيامة وذلك أنّ الطائر أو العقاب، الذي اختطف الحية قد طرحها في الحجون والتقمتها الأرض.[٢٢]

ولكن هذا الكلام تدحضه الأحوال الطبيعية لعمر الأفعي، والتي حددت وفق تحديدات ذلك العصر بعمر النسر بحسب تحديد الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في كتاب الحيوان، والدميري (ت٨٣٧هـ) في حياة الحيوان.

مع كل ما ذكر، فإنّ ذهاب هذه الأفعي المخيفة من على بئر الكعبة وجوفها، قد شجع قريشاً على الشروع بإعادة بناء الكعبة، بعد أن ذهب الحارس الفعلي للبئر، وأصبحت الأموال المودعة فيها عرضة للسرقة؛ لأنّ مكوث ذلك الثعبان في جوف البئر تلك الفترة الطويلة قد حال دون وصول يد السراق إليها، فضلاً عن أنّ الكعبة ليست بالمحصنة من الداخل مما تمنع الطامعين بالتعدي على أموالها، فقد كانت غير مسقفة، وقد حفّز هذا قريشاً على الشروع بهذا الأمر الذي أرادوا منه القربة إلى الله، حتى عدّ البعض منهم اختطاف الطير لثعبان البئر إشارة من السماء على قبول مسعاهم هذا، إذ كان وجود الثعبان يحيل بينهم وبين هذا المسعى.

بقي المال الذي في البئر على حاله، ووصلت لدى قريش قناعة من أنّ لهذا البيت ربّاً يحميه، ويقيض له من يحميه، وإنّ المال الموجود فيه، ليس لأحد أن يتصرف فيه أو يمتلكه؛ لأنه مال البيت، بل وحتى إنّ قريشاً حينما بنت الكعبة لم تتحدث المصادر عن توظيف ذلك المال في بنائها، بل قلصت من حجم البيت؛ لعدم كفاية النقود الحلال، التي استحصلوها من مالهم، الذي اشترطوا أن لا يكون من رباً، أو مهر بغي، أو مظلمة لأحد.[٢٣]

لأجل ذلك كان حجبة الكعبة من آل شيبة من بني عبد العزى ينصحون أبناءهم بعدم مدّ أيديهم إلى مال الكعبة، وأنّهم لن يزالوا بخير ما دامت أيديهم عفيفة عنه، وإن كان الرجل ليصيب منه الشيء فيضعه عند الناس، بل وحتى مجرد التفكير بالاقتراض والاستدانة منه؛ لأنّهم وجدوا من خلال الأجيال المتعاقبة منهم على حجابة البيت أنّ هذا المال ما خالط مالاً قطّ إلاّ محقه، ولم يرزأ أحد منه قط.. إلاّ بان النقص في ماله، وأدنى ما يصيب صاحبه أن يشدد عليه الموت.[٢٤]

يؤكد هذا النص الحوادث التاريخية، التي مرت على هذا البيت، والذين أرادوا سرقة هذا المال، حتى كانت أشهر سرقة تعرض لها مال الكعبة وكنزها قبل الإسلام بعشر سنين، وكان ممن اتهم بها الحارث بن عامر بن نوفل وأبو إهاب بن عزيز.، وأبولهب بن عبدالمطلب، حيث سرق الغزال الذي نصبه عبدالمطلب على باب الكعبة، وهو مما وجده في أثناء حفر بئر زمزم مما دفنته جرهم فيها.[٢٥]

فما كان من قريش إلا أن قطعت أيدي السراق، وحكموا بطرد الباقين من مكة عشر سنين وإرجاع قيمة

مال الكعبة المسروق فكان سنة أقرها الإسلام.[٢٦]

دفعت هذه الأمـور المتعاقبة من اسـتحلال مال الكعبـة، والتعدي على خزينتهـا إلى التفكير في إعادة بنائها، وتسقيفها، ورفعها، وفعلاً تمَّ بناؤها ورفعها وتسـقيفها من قبل قريش، قبيـل البعثة النبوية بخمس سنين.[٢٧]

وحينما قامت قريش بهذا الأمر حفظت عنـد ذاك خزينتهـا، والمال الموجـود في بئر الأخسـف، إلى أن جاء الإسـلام، و دخل رسول الله ﷺ مكة، بعد أن فتحت سـنة ٨ هـ أي بعد ستة وعشرين عاماً تقريباً على بنائها، ولم يغيّر من مجرياتها شيئاً، بل لم يأخذ من مالها، الذي قدر بسبعين ألف أوقيـة من ذهب.. أي ما يعادل (ألف ألف وتسعمائة ألف وستون ديناراً ذهباً).[٢٨]

دللـت النصوص آنفـة الذكر علـى الأدوار التاريخيـة التي كانت لبئـر الكعبـة منذ تأسيسـها وإلى ظهور الإسلام، والتي أظهرت حجم الحوادث التي مرت على هذه البئر، ولكن بمجيء الإسلام تغيرت الحالة؛ لتحـدث هنالك مواقف أكثر تنوعاً بين الرعية في توظيف المال الموجود في هـذه البئـر، وبين تركـه ينفق في مصـالح البيت الحـرام، وهذا ما ستوضحه الصفحات اللاحقة.

الأخسـف وأحوالـه في العصـور الإسلامية:

كانت مدينة مكة من أشد المدن، الـتي عارضت النـبيَّ محمداً ﷺ في بداية الدعوة الإسلامية، إذ لم تنشرح قلـوب أهلها إلاّ النـزر القليل إلى هذا الدين الجديـد؛ فلذلك بقيت مكة خارج حدود الإسلام مدة واحد وعشرين عاماً إلى أن فتحها النبي ﷺ سنة ٨ هـ.

طيلة هذين العقدين من الزمن لم تكن مجريات الأمور كسابقتها في العقود السالفة، فأحوال الناس بدأت بالتحسن، ولا سيما في العقود التي سبقت الإسلام بعد نشاط التجارة، وتغير طرق النقل الدولية وقوافل البضائع إلى طريقي اليمن والشام، بعد الحروب المستعرة والمستمرة بين الدولتين الساسانية والبيزنطية.[٢٩]

فالكعبة كان يهدى لها المال في الجاهلية تعظيماً لها؛ لذلك تجمعت في خزينتها على مدى الأيام كميات كبيرة من الأموال والحلي والهدايا، حددتها بعض المصادر بسبعين ألف أوقية من الذهب، وذلك حين فتح الرسول صلى الله عليه وآله مكة سنة ٨ هـ.[٣٠]

لم يقدم الرسول محمد صلى الله عليه وآله على التصرف بهذا المال، رغم ما أبداه من رغبة بذلك؛ خدمة لمصالح المسلمين الذين كانوا في حاجة إليه، ولكن الذي منعه من ذلك ما تردد على لسانه وأخبر به صلى الله عليه وآله زوجته عائشة قائلاً: «لولا أنّ قومك حديثو عهد بكفر؛ لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله..».[٣١]

إنّ هذه الرغبة التي كانت من الرسول صلى الله عليه وآله حفزتها مقولة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إليه يوم فتح مكة بعد ما شاهد الكميات الضخمة من الأموال التي حواها هذه البئر: يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك. فلم يحركه.[٣٢]

يبين لنا هذا النص حراجة الخطوة، التي لو قيض للرسول صلى الله عليه وآله اتباعها في وضع اليد على الأموال والحلي، التي حوتها بئر الكعبة، وذلك لأنّه قد وجد في كنز تلك الأموال تعطيلاً لموارد ضخمة، لو قسمت بين الناس، وأنفقت في مصالحهم؛ لأعادت عليهم بالخير فنجد أنّ الذي حال بين الرسول صلى الله عليه وآله وهذا المسلك هو خشيته من تأويل قليلي

الإيمان؛ أنّه طمع وتعدي على هذا المال المقدس في نظرهم، وهم بعد لما يدخل الإيمان في قلوبهم، وهذا ما أوضحته عبارته الشريفة: «لولا أنّ قومك حديثو عهد بكفر». ورغب الخليفة الثاني عمر (١٣ـ٢٣هـ) بتوزيع كنز الكعبة، إلا أنه لم يقم بذلك، بعد ما وجد سابقه الخليفة أبابكر (١١ـ١٣هـ)، لم يخالف ما أراده الرسول صلى الله عليه وآله ولم يقم بمثل هذه الخطوة الحساسة.[٣٣]

لقد أشارت النصوص إلى رغبة عمر الحقيقية في الاستفادة من الأموال المودعة في بئر الكعبة على اعتبار أنّ الرسول صلى الله عليه وآله قال ذلك وهو بعد في قوم قد تألفت قلوبهم تواً، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكنه اليوم في قوة ومنعة، تدفعة لطرح ذلك التوجس الذي كان في نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وعدم البناء عليه، ولكنه جوبه بمواقف معارضة وعنيفة من قبل كبار الصحابة، إذ نقل الأزرقي تلك المواقف، فقد روى نصيحة الصحابي أبي بن كعب لعمر بعدما أفصح له عن رغبته بعدم ترك أي بيضاء أو صفراء في جبّ الكعبة، إلاّ ويقسمها بين الناس، فما كان من أبي بن كعب إلاّ أن قال له: والله ما ذلك لك، قال: ولم؟ قال: قرر الله موضع كل مال وأقره رسول الله، قال: صدقت.[٣٤]

أما الإمام علي عليه السلام فقد كان من أكثر وأشد المعترضين على هذا المسلك، بعدما رأى أكثر من مرة إلحاح عمر عليه، وهمته في الشروع بتقسيم مال الكعبة، فرد عليه قائلاً: «ليس ذلك إليك، فقال عمر: صدقت. أو قال له: أتجعله فيئاً وأحرى صاحبه، رجل يأتي في آخر الزمان ضرب أدم طويل».[٣٥]

وفي رواية أخرى ينقلها ابن أبي الحديد المعتزلي (٦٥٦هـ) تختلف في

المعنى وتتفق في مضمون سابقتها من أنّ بعض المقربين من عمر قد زين له إنفاق مال الكعبة في تجهيز جيوش المسلمين، وهذا أعظم أجراً من ترك هذا المال دون استفادة الأمة منه، فاستحسن عمر ذلك، وسأل عنه الإمام علياً عليه السلام فرد عليه قائلاً: «إن هذا القرآن أنزل على محمد صلى الله عليه وآله والأموال أربعة أموال المسلمين فقسمها بين الورثة في الفرائض، والفيء فقسمه على مستحقيه، والخمس فوضعه الله حيث وضعه، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها، وكان حلي الكعبة فيها يومئذ، فتركه الله على حاله، ولم يتركه نسياناً، ولم يخف عنه مكاناً، فأقره حيث أقره الله ورسوله، فقال عمر: لولاك لافتضحنا...».[٣٦]

ولأجل تلك المواقف ظلت الكعبة محتفظة بذلك المال في بئرها الأخسف عهوداً طويلة، حيث ذكر الأزرقي أنّ ذلك المال بقي على حاله إلى سنة ثمان وثمانين ومائة، وليس له علم، ماذا حل بهذا المال بعد ذلك التاريخ، وفق ما أخبره بعض حجبة الكعبة من آل شيبة.[٣٧]

يضاف إلى ما تقدم، فقد استعملت خزينة الكعبة، والتي في جوفها كمكان لحفظ الأمانات والودائع من الأموال الخاصة دون خلطها مع أموال الكعبة، بل كانت توضع في صرر وبدر خاصة، إذ ذكر المؤرخون إلى أنّ عمر بن الخطاب حينما أراد توسعة المسجد الحرام، قام بشراء الدور الملاصقة له، ومن الجهة التي يراد التوسعة منها، ومن لم يقبل البيع، هدم داره، وترك ثمنها لأربابها في خزانة الكعبة حتى أخذوها بعد ذلك.[٣٨]

وسع عثمان في أيامه (٢٣ـ٣٥هـ) توسعة أخرى في الحرم، إذ سلك فيها مسلك عمر في هدم دار من يمتنع عن البيع، وترك ثمنها في خزينة

الكعبة، ولكن موقفه هذا جوبه بموقف متعنت وصل حد الصياح والتأليب عليه من قبل أرباب تلك الدور حتى دعاهم وقال لهم: «إنما جرأكم عليَّ حلمي عنكم، فقد فعل بكم عمر هذا، فلم يصح به أحد، فاحتذيت على مثاله فصحتم بي» ثم أمر بهم إلى الحبس حتى كلمه فيهم عبدالله بن خالد بن أسيد فتركهم.[٣٩]

يدلل النصّان آنفا الذكر أنّ كلاً من عمر وعثمان لم يمدا أيديهما على المال المطروح في بئر الكعبة، بل وحتى في الإنفاق عليها وتوسعتها؛ لأنّ عبارة (فوضعت أثمانها في خزانة الكعبة حتى أخذوها بعد) تظهر تخصيصهما أموالاً من بيت مال المسلمين؛ لغرض توسعة المسجد الحرام.

وهنا يطرح التساؤل حول مصير ذلك المال، فهل تعرض للسرقة والسطو عليه، وكما في الأيام الغابرة، أم ذكرت النصوص شيئاً من بقايا ذلك المال في العقود والقرون التالية؟ فهل سرقه الحجبة، وكما أشارت إلى ذلك العديد من النصوص، التي نقلها المؤرخون من حالات اعتداء تكررت على طول القرون، التي انصرمت من قبل حجبة الكعبة على مال الكعبة؟[٤٠]

إذ لم تكن تلك الاعتداءات وليدة العهود المتأخرة، بل تحدثت المصادر عن إمتعاض الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام من مواقف الحجبة في أيام إمامته (٩٤ـ١١٤ هـ) الذين لم يتورعوا في الاستحواذ على الأموال، التي أهديت ونذرت إلى الكعبة، فقد قال عليه السلام: «إنّ من علمي أن لو وليت شيئاً من أمر المسلمين، لقطعت أيديهم ثم علقتها في أستار الكعبة، ثم أقمتهم على المصطبة، ثم أمرت منادياً ينادي ألا إنّ هؤلاء سراق الله فأعرفوهم».[٤١]

أعطى هذا النص إشارة إلى ما كان يكنه الناس من مشاعر ووجهات نظر إزاء أولئك الحجبة حتى إنّ الإمام الباقر عليه السلام لم يحبذ إعطاء الأموال للكعبة على اعتبار أنها ليست في حاجة إلى هذه الأموال، وإن الذين عليها ليس مما يؤتمن لهم وضع ذلك المال عندهم، حتى قال لسائل سأله عن جدوى إعطاء المال للكعبة، فردّ عليه الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الكعبة غنية عن هذا، أنظر إلى من أمّ هذا البيت فقطع به، أو ذهبت نفقته، أو ضلت راحلته، أو عجز أن يرجع إلى أهله، فادفعها إلى هؤلاء الذين سميت لك».[٤٢]

وفي نصّ آخر يعبر عن تلك المشاعر المتشنجة إزاء حجبة البيت وخزنته من آل شيبة ما أورده المحدثون في رواية يسندونها إلى شقيق بن سلمة، يحاور فيها شيبة بن عثمان حاجب البيت وخازنه قائلاً فيها: «بعث رجل معي بدراهم، هدية إلى البيت. قال، فدخلت البيت وشيبة جالس على كرسي. فناولته إياها. فقال له: ألك هذه؟ قلت: لا. ولو كانت لي، لم آتك بها. قال: أما لئن قلت ذلك، لقد جلس عمر بن الخطاب مجلسك الذي جلست فيه. فقال: لا أخرج حتى أقسم مال الكعبة بين فقراء المسلمين. قلت: ما أنت فاعل. قال: لأفعلن. قال: ولم ذاك؟ قلت: لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قد رأى مكانه. وأبوبكر. وهما أحوج منك إلى المال. فلم يحركاه. فقام كما هو، فخرج».[٤٣]

نظر الناس إلى هذا الكنز الذي في بئر الكعبة نظرة فيها ارتباط ملحمي من الحوادث والمجريات، التي ستجيء في آخر الزمان، إذ نقل المحدثون حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله جاء فيه: «أتركوا الحبشة ما تركوكم، فإنه لايستخرج كنز الكعبة إلا ذو

السويقتين».[٤٤]

وفي رواية أخرى أكثر تفصيلاً ينقلها الحاكم النيسابوري (ت٤٥٢هـ) في أخبار المهدي وأشراط الساعة قائلاً: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ليبايع بين الركن والمقام، ولن يستحل البيت إلاّ أهله، فإن استحلوه، فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم تجيء الحبشة فتخربه خراباً لا يعمر بعده أبداً، وهم الذين يستخرجون كنزه».

تراءى هذا الحديث أمام ناظري عبدالله بن الزبير حينما أراد بناء الكعبة، بعد ضرب الحصين بن نمير السكوني لها، أيام محاصرته مكة أيام يزيد وتصدع البنيان، إذ أرقى إلى سطحها عبيداً من الحبشة يهدمونها، رجاء أن يكون فيهم صفة الحبشي، الذي وصفه رسول الله.[٤٥]

شكل هدم الكعبة أيام ابن الزبير نقطة تحول مهمة في تاريخ الكعبة بعامة و(بئرها الأخسف) بخاصة، إذ ذكر الصالحي (ت٩٤٢هـ) رواية مهمة تظهر قيام عبدالله بن الزبير بإخراج ما كان في الكعبة من الحلي وأشياء ثمينة، وأموال مودعة في جوفها، ونقله إلى خزانة الكعبة المستحدثة في دار شيبة بن عثمان.[٤٦]

بعد هذا النقل لم تشر النصوص، التي أرخت لتاريخ الكعبة أنّ تلك الأموال قد رجعت إلى مكانها في البئر التي ربما قد أزيلت معالمها في هدم ابن الزبير والحجاج للكعبة، وقد تحدثت المصادر عن ردم جوف الكعبة وأرضيتها بالحجارة.[٤٧]

فضلاً عن ذلك أنّ الرواة بدأوا يتحدثون عن خزانة جديدة للكعبة في نهاية القرن الأول الهجري في دار شيبة؛ وهذا ما شكل نقطة النهاية في تاريخ بئر الكعبة العتيد، وأصبح أثراً بعد عين.

الهوامش:

١ . العين١ : ٤٠٨ باب الخاء.
٢ . معجم مقاييس اللغة٢ : ١٨٠ ـ ١٨١.
٣ . الزبيدي، تاج العروس١٢ : ١٦٧.
٤ . أخبار مكة١ : ٢٤٤ ـ ٢٤٥.
٥ . أخبار مكة: ٢٤٤.
٦ . ابن حجر، فتح الباري٧ : ١٢٠؛ العيني، عمدة القاري١٦ : ٢٩٩.
٧ . الكليني، الكافي٤ : ٥٢٥ ـ ٥٢٦ ؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه٢ : ٢٠٩؛ فتح الباري٦ :٢٨٦؛ العيني، مواهب الجليل٤ : ٥٢٣.
٨ . أخبار مكة١: ٢٤٤.
٩ . ابن سعد، الطبقات الكبرى٣: ٣٠٠ ؛ البلاذري، فتوح البلدان٣: ٥٥٤.
١٠ . الأزرقي، أخبار مكة١: ١١٧.
١١ . أخبار مكة١: ٧٩ ؛ سيرة ابن إسحاق: ١٠٦ (بتصرف).
١٢ . الأزرقي، أخبار مكة١: ١١٧ ؛ سيرة ابن إسحاق: ٣٢. لكن ابن الكلبي يذكر أن من نصب هبل هو خزيمة بن مدركة بن إلياس بن منصور كان يقال له هبل خزيمة. الأصنام: ٢٨.
١٣ . وقد حددت قيمة هذا المال بألف ألف وألف وتسعون ألف دينار، القاضي الرشيد، الذخائر والتحف: ١٥٥؛ المتقي الهندي، كنز العمال١٤: ١٠٨.
١٤ . أخبار مكة١: ١٦٦ ـ ١٦٧.
١٥ . تاريخ الطبري٢: ٢٨٤.
١٦ . أخبار مكة١: ٨٧ .
١٧ . الروض الأنف١: ٣٤٣.
١٨ . الأزرقي، أخبار مكة١: ٢٤٤ ــ ٢٤٥.
١٩ . الأزرقي، أخبار مكة١: ٢٤٥ ؛ السهيلي، الروض الأنف١: ٢٤٣.
٢٠ . ابن الأثير، الكامل في التاريخ٢: ٤٤.
٢١ . الأزرقي، أخبار مكة١: ٢٤٥.
٢٢ . الروض الأنف١: ٣٤٤.
٢٣ . تاريخ الطبري٢٧: ٢٨٧ ؛ سيرة ابن إسحاق: ١٠٤
٢٤ . الأزرقي، أخبار مكة١: ٢٤٧ ـ ٢٤٨.
٢٥ . تاريخ الطبري٢: ٢٨٣ ، ٢٨٦ ؛ ابن حبيب، المنمق: ٦١، ٤٢١.
٢٦ . سيرة ابن إسحاق:١٠٣ ـ ١٠٤، المنمق: ٤٢١.
٢٧ . سيرة ابن إسحاق: ١٠٣، أخبار مكة: ١٥٨ ـ ١٦٠، تاريخ الطبري ٢ : ٢٨٣.
٢٨ . الأزرقي، أخبار مكة١: ٢٤٦ ؛ القاضي الرشيد، الذخائر والتحف: ١٥٥ ؛ المتقي الهندي، كنز العمال٤: ١٠٨.
٢٩ . باتريشا كرون، تجارة مكة.
٣٠ . الأزرقي، تاريخ مكة١: ٢٤٦؛ القاضي الرشيد، الذخائر والتحف: ١٥٥.
٣١ . التاج الجامع للأصول، الشيخ منصور علي ناصف٢: ١٧٩.
٣٢ . الأزرقي، تاريخ مكة١: ٢٤٦.
٣٣ . تاريخ مكة١: ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

٣٤ . تاريخ مكة١: ٢٤٥ ؛ البلاذري، فتوح البلدان١: ٤٩.
٣٥ . تاريخ مكة١: ٢٤٦.
٣٦ . شرح نهج البلاغة١٩: ١٥٨ –١٥٩ . رقم ٢٧٦.
٣٧ . تاريخ مكة١: ٢٤٧.
٣٨ . تاريخ مكة٢: ٦٩ ؛ تاريخ الطبري٤: ٢٠٦ ؛ الفاسي، شفاء الغرام١: ٢٢٤ ؛ ابن فهد، إتحاف الورى٢: ٨ .
٣٩ . تاريخ مكة٢: ٦٩ ؛ تاريخ الطبري٥: ٤٧ ؛ ابن فهد، إتحاف الورى٢: ١٩.
٤٠ . تاريخ مكة١: ٢٤٧ـــ ٢٤٨ ؛ وكيع، أخبار القضاة١: ٢٦٧.
٤١ . الكليني، الكافي٤: ٢٤٢.
٤٢ . الكليني، الكافي٤: ٢٤١.
٤٣ . ابن ماجة، السنن٢: ١٠٤٠ ؛ الطبراني، المعجم الكبير٧: ٣٠٠.
٤٤ . مسند أحمد٥: ٣١٧ ؛ سنن أبي داود٤: ٢١٤ ؛ الحميري، قرب الإسناد: ٨٢ .
٤٥ . أخبار مكة١: ٢٠٥.
٤٦ . سبل الهدى والرشاد١: ١٦٧.
٤٧ . ابن كثير، البداية والنهاية١: ١٩١.

أخبار من الحرمين الشريفين

رسالة جوابية من ملك السعودية إلى عالم من علماء الشيعة الإمامية حول تخريب القبة الخضراء والبقيع، قبل ٨٨ سنة.

في سنة ١٣٤٤ هجرية، وبعد تأسيس دولة السعودية، قاموا بتهديم

المشاهد المقدسة لأئمة أهل البيت الأطهار عليهم السلام في مقبرة البقيع في المدينة المنورة، بعد تعريضها للإهانة والتحقير بفتوى من وعاظهم، وبعد سنة واحدة من هذا الحادث، الذي هزّ مشاعر المسلمين وأساء لهم أيما إساءة، قام الشيخ عبدالرحيم الحائري صاحب كتاب الفصول، وهو من علماء طهران يومذاك، بزيارة إلى الديار المقدسة؛ لأداء فريضة الحج.

وكان له لقاء مع ممثّل الملك في مكة المكرمة، وأجرى معه حورات حول هلال شهر ذي الحجة، وتخريب القبور في المقبرة المذكورة بما فيها الأضرحة المقدسة للأئمة الأطهار عليهم السلام، وما أحدثه هذا الفعل من آثار مؤلمة للمسلمين، جاءت هذه الرسالة ـ الممهورة بمهر الملك عبدالعزيز ـ والموجودة الآن في طهران، طبقاً لما ذكره العلامة الشيخ رسول جعفريان.

نصّ الرسالة:

من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل إلى حضرة الفاضل المحترم الشيخ عبد الرحيم صاحب الفصول.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فإننا نؤكد لكم أنّ القبة النبوية لم يمسّها أحد بسوء، ولم يخطر ببالنا قط أن نمسّها بسوء وأنّ للرسول صلّى الله عليه و سلم حرمة لدينا لا تدانيها حرمة.

أما مسائل القبور وما يتعلق بها من البناء فنحن كما أخبرناكم متّبعون لامبتدعون، ونحن مستعدون للنزول على حكم علماء المسلمين من جميع المذاهب.

وأما عدا ذلك فننظر فيه، فسنأمر بتنظيف القبور، وتسوية ما لم يسوّ منها التسوية الشرعية مع إقامة سور عليها؛ لحفظها من الدنس. ونحن نؤكد لكم أيضاً أنّا لانمنع أحداً من

زيـــارة القبور مـــادام الزائر يتبع في زيارته الطريقة الشـــرعية والآداب الدينية، وقـــد أمرنـــا بتحرير هذا؛ لتنشروه على الملإ. هذا ما لزم بيانه والله يحفظكم..

محل مهر

از عبدالعزيز پســـر عبدالرحمن آل فيصل بســـوی حضرت فاضل محترم الشـــيخ عبدالرحيم صاحب الفصول. سلام بر شما و رحمت خدا و بـــركات او. و بعد تأكيد می‌كنيم

برای شما كه قبه پيغمبری را احدی به بدی دست نخواهد زند و هرگز چنيـــن چيزی به خاطـــر ما خطور نكرده است كه كسی به بدی به آن دست بزنند (يعنی تخريب نخواهد شـــد). و برای پيغمبر حرمتی قائل هســـتيم كه قابـــل مقايســـه با هيچ حرمتی نيست. اما مسائل قبور بقيع و آنچه از بنا متعلق به آن است، ما چنان چه به شـــما خبر داديم، تابع شريعت اسلاميم، نه اهل بدعت، ما

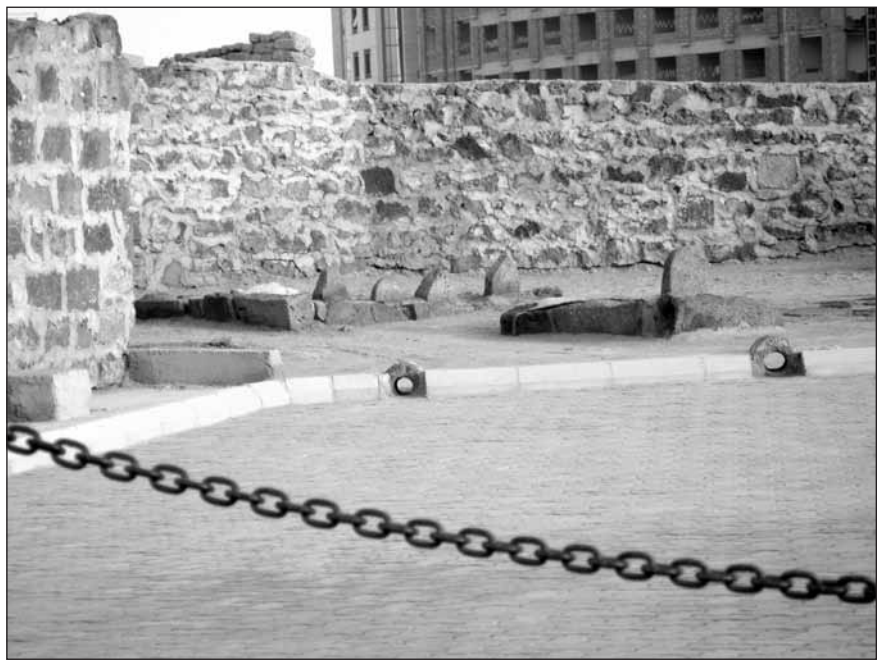

آماده‌ایم که از نظر شخصی مذهبی خود صرف نظر نموده، اوامر علمای مسلمین را از هر مذهب که باشد محترم بشماریم. اما راجع به مذاکرات دیگر به زودی نظریه خود را برای شما بیان می‌کنیم. پس بزودی امر می‌کنیم که قبور بقیع را نظیف نموده و صاف کنند، مطابق آنچه در شرع جایز است، با کشیدن دیواری در اطراف آن که از پلیدی حفظ شود و باز برای شما تأکید می‌کنیم که ما منع نمی کنیم هیچ کس را از زیارت قبور بقیع. تا وقتی که زائرین طریق شرعیه و آداب دینیه را در زیارت پیروی کنند. ما دستور دادیم تا این نوشته شده در میان مردم انتشار یابد. این چیزی است که بیان آن لازم بود. خداوند شما را حفظ کند.

الحرمان الشريفان والتغيير

...أسماء الأبواب للحرمين الشريفين أصبحت تاريخية، ولا ضرورة لتغييرها بمسميات جديدة، فسيظل الناس يذكرون أسماءها القديمة، ولن يستخدموا الأسماء الجديدة، فهذه بعض شوارع مدننا جرى تغيير مسمياتها، وظل الناس يستخدمون الإسم القديم، رغم وجود اللوحات التي لاحصر لها تشير للإسم الجديد، وإن كان من اقتراحات جديدة، فيجب أن يجنب الحرمان الشريفان مثل هذه المقترحات، من تغيير لأسماء الأبواب،

ولكل ما يتعلق بهما، وبما هو من تاريخهما الثابت، فكل مافيهما تراث لهذه الأمة، يجب الحفاظ عليه، من عمارة قديمة أو حديثة.

وألا يحدث فيهما تغيير إلا عبر دراسة جماعية دينية وتاريخية وهندسية، حتى يمكننا أن نحافظ على أغلى تراث لأمتنا في هذين الحرمين الشريفين، وألا يقبل في هذا الباب اقتراحات الأفراد أو تصرفاتهم، خاصة إذا كانوا ممن لم يعلموا شيئاً عن تاريخهما، ولم يطلعوا على ما كان فيهما من حلقات للعلم، اختفت اليوم، وهما الجامعان الجامعتان، واللذان بثا العلوم العربية والدينية في سائر أقطار عالمنا الإسلامي، وحبذا لو أعيدت إليهما حلقات الدرس المتنوعة، والتي تدرس المذاهب الأربعة، وسائر العلوم العربية، بل وحتى بعض العلوم الأخرى، والتي هي فروض كفايات، كما كان يحدث فيهما من

قبل، فهما وجه هذه البلاد، وحتى أن يتاح للعلماء من شتى أقطار العالم الإسلامي أن يجاوروا بمكة والمدينة، فيرتادوا حلقات الدروس وينهلوا منهما العلم، وأيضا يفيدوا أهل العلم في هذه البلاد بمالهم من علم، كما كان العهد بالحرمين، حينما كان المسلمون لا يرون العالم قد اكتسب ما يؤهله لعقد حلقة يعلم فيها الناس إلا إن جاور في أحدهما أو كليهما مدة، ونهل العلم من حلقاتهما، فأهمية الحرمين الشريفين لا تعدلها أهمية، وإن لم نلتفت إليهما، فلا يحدث فيهما تغيير أيّاً كان نوعه إلا بعد دراسة جماعية واعية، وأن يكون هذا التغيير ضرورياً لابد منه، فإنّ الآثار حولهما قد اختفت تماماً، فهل نحن ندرك هذا؟ هو ما أرجوه، والله ولي التوفيق.

عبد الله فراج الشريف، جريدة البلاد، ٢٠١٢/١/٠٧م.

هؤلاء يحتكرون فهم الدين

أغار بعض هؤلاء في اليوم الثاني من الافتتاح على معرض الكتاب، وخلقوا جواً من الفوضى بسوء أخلاقهم وسلوكهم، وأشاعوا الفزع بين زواره كأنهم في غارة حربية على جمهور ارتدوا عن الإسلام، ترعاهم دولة كافرة!

كان هدف هؤلاء البلطجية منع بيع وشراء بعض الكتب التي يرون أنها تسيء إلى الدين، وتعمل على تحويل من يقرأها من دين الإسلام القويم إلى الكفر به، والاشراك بالله سبحانه وتعالى.

وكان من أهدافهم في تلك الغارة منع الاختلاط على اعتبار أنه محرم حسب فهمهم السقيم للدين بينما هو قائم ومشهود في المطاف، والمسعى، والصلاة في الحرم المكي، وموجود في المشافي الصحية في كل أنحاء البلاد.

وكان مــن أهدافهم أيضاً فرض النقــاب على النســاء في المعرض، بينما هو مــن الأعراف القبلية التي عرفها الإنسان منذ فجر التاريخ، ولم يأمر به دين الإسلام.

كان هؤلاء يريدون فرض فهمهم للدين على الآخرين بما تيســر لهم من عنف لفظي مســتهجن، وخلق نوع من الإرهاب الفكري من أجل إرغام الآخرين على اتباع مفاهيمهم الدينية المحنطة.

كانــوا يحتكــرون فهــم الدين، يريدون أن يقولوا للمواطنين: أنتم لا تفهمون الديــن ولاتفقهون فيه شيئاً.. إنهم لا يؤمنون بالرأي الآخر، ويحاربــون التعدديــة، وينكرون أن هناك ثلاثة عشــر مذهبــاً في تاريخ الإسلام.. كل ذلك ظاهرياً.

إنهــم في الحقيقة جنود الصحوة قاموا بهذه الغارة الماكرة لاســتغلال الظروف المحيطة لخلــق فتنة تنطلق شرارتها من معرض الكتاب.

من المهم جداً أن نفهم أهدافهم الخفيــة وأن نحبطهــا في مهدهــا.. والحمــدلله الذي أخمد تلــك الفتنة وأطفأ شرارتها يوم ولدت.

يعقــوب محمد اســحاق، جريدة البلاد، ٢٠١١/٠٢/١٠م

توجيه كريم بالإبقاء على مسميي بابي الفتح والعمرة

علمت «عــكاظ» أنّ لجنة مكلفة بدراســة موضوع إعادة تسمية بابي الفتــح والعمــرة في الحــرم المكي الشــريف إلى ما كانا عليه ســابقاً، إنفاذاً لتوجيهات كريمة بالإبقاء على مســمييهما الأصليين، عقدت أمس اجتماعاً برئاســة الدكتور صالح بن عبدالرحمن الحصــين الرئيس العام لشــؤون المســجد الحرام والمسجد النبــوي، بحضــور أعضــاء اللجنة الدكتــور محمــد بن ناصــر الخزيم

نائب الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام، والمستشار محمد القويفلي، والمهندس عبدالمحسن بن حميد، لتنفيذ التوجيهات الكريمة.

كما بحثت اللجنة عدداً من الموضوعات المتعلقة بالتسمية والترقيم

لأبواب المسجد الحرام الأخرى.

ووقفت «عــكاظ» مســاء أمس على أعمال إعادة لوحتي التســمية لبابي العمــرة والفتح على مدخلي البابين.

صحيفة عكاظ، مكة المكرمة، الأربعاء، ٢٦/١/١٤٣٣هـ/ ٢١ديسمبر٢٠١١م/ العدد:٢٨٣٩.

البــدء في تنفيــذ توســعة صحن الطواف بالبيت الحرام

يبدأ اليوم تنفيذ مشروع توسعة المطاف بالحرم المكي الشــريف، بعد أن غادر حجاج بيت الله الحرام مكة المكرمــة، ويهدف المشــروع الذي وجه خادم الحرمين الشــريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيــز بتنفيذه إلى زيادة الطاقة الإســتيعابية للطائفين عبر توسعة الصحن، وتشييد أروقة جديدة من عدة أدوار لتستوعب ١٣٠ ألف طائف في الســاعة، ويستغرق تنفيذ هذا المشــروع ثلاث سنوات من اليوم ،إلا أنه يمكن الاستفادة منه من السنة الأولى بشكل جزئي.

البدء في ضمن خطط تنمية العاصمة المقدسة .. ربط الجمرات مع شوارع وانفاق مكة المكرمة

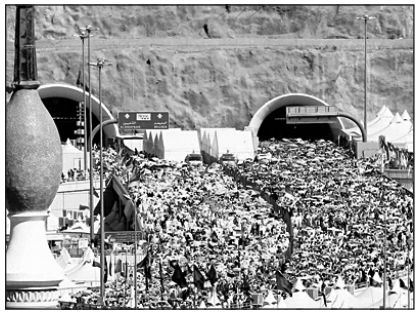

يتفقد وزير الشؤون البلدية والقروية غدا الثلاثاء مشروعات الوزارة في المشاعر المقدسة وهي مشروع ربط الشعبين والمعيصم بالدور الثالث من منشأة الجمرات الحديثة عبر الأنفاق والجسور، وربط منطقة العزيزية بالدورالثاني من منشأة الجمرات الحديثة عن طريق شارع وأنفاق وجسر في كلا الاتجاهين.

كما يتفقد سموه مشروع نقل وتطوير مجزرة الأنعام من المشاعر إلى المعيصم ومشروع إنشاء وتنفيذ ٣٦,٠٠٠ دورة مياه في منطقة المشاعر (المرحلة الأولى)، وفتح طريق من منطقة المعيصم إلى الشرائع بطول ٥ كيلو مترات لخدمة المجازر والمخططات المجاورة، ومشروع تطوير خدمات محطات قطار المشاعر لتسهيل الوصول إلى المحطات.

من جهة ثانية وقّع معالي أمين العاصمة المقدسة الدكتور أسامة بن فضل البار أمس ثلاثة عقود جديدة

مـع عدد مـن الشـركات الوطنية المتخصصة شملت مشروعات صيانة وسـفلتة العديد من شـوارع مكة المكرمة بقيمة بلغت (٢٥,٠٠٠,٠٠٠) ريال.

وأوضـح معالي أمـين العاصمة المقدسـة أن المشـروعات تأتـي في إطار عمل أمانة العاصمة المقدسـة علـى إنجـاز المشـروعات المختلفة والعمل على تطويـر المرافق العامة والشـوارع والميادين، وتقديم أفضل الخدمات لأهالي وسكان مكة المكرمة وزوّارهـا، مؤكداً حرص الأمانة على إنجاز المشـروعات الخدميـة المختلفة التي تغطي جميع الأحياء والمخططات السكنية وتطوير مرافقها بما يتناسب مع التطور الذي تشهده مكة المكرمة.

وبين أنّ العقد الأول شمل عملية صيانة شـوارع جنوب مكة المكرمة وبلغت قيمتـه (١١,٧٤٧,٧٩٥) ريالاً، فيما شمل العقد الثاني مشروع عملية صيانة شـوارع شـرق مكة المكرمة بقيمة بلغـت (١١,٧٤٧,٧٩٥) ريالاً ، في حين اشـتمل العقد الثالث على مشروع عملية اسـتكمال الصيانة الدوريـة للشـوارع الفرعية بمكة المكرمة وبلغت قيمته (١,٣٥٠,٠٠٠) ريال.

جريدة البلاد ، يوم الإثنين ٢١ـ ٧ـ ١٤٢٣هـ

في بيان لجنة المدينة:
شـعار عاصمـة الثقافـة رمـز للمناسبة.. ولا يحتمل التفسير

أصدرت اللجنة العليا لمناسـبة اختيار المدينة المنورة عاصمة للثقافة الإسلامية التي يرأسـها أمير منطقة المدينة المنورة أمـس بياناً توضيحياً حـول ماتداولته بعـض الصحف والمواقـع الإلكترونيـة مـن آراء وتعليقـات علـى موضوع شـعار المناسبة وما تم التطرق له من السؤال عن عدم اشتمال الشعار على القبة

الخضراء بالمسجد النبوي واقتصاره على المئذنة وخارطة العالم الإسلامي فحسب.

وقد قال البيان:

اللجنة العليا لمناسبة اختيار المدينة المنورة عاصمة للثقافة الإسلامية اطلعت على ما تم تناوله في بعض الصحف والمواقع الإلكترونية من آراء وتعليقات على موضوع «شعار المناسبة» وما تم التطرق له من السؤال عن عدم اشتمال الشعار على القبة الخضراء واقتصاره على المئذنة وخارطة العالم الإسلامي فقط.

وأوضحت اللجنة أن موضوع تصميم الشعار تم طرحه في مسابقة عامة مفتوحة تحت إشراف اللجنة العليا، مؤكدة أن الشعار مجرد رمز للدلالة على المناسبة، ولا يجب أن يحمل أكثر مما يحتمل، أو تؤخذ من خلاله توجهات محددة، أو تفسيرات بعيدة عن أهدافه المعلنة.

من جانبه اعتبر معالي الشيخ شافي الحقباني عضو المحكمة العليا احداث أي تغيير في ما عرف بـ«الثوابت» التي مرت عليها سنوات طويلة وعهود متتابعة «مدعاة» لكل من رغب في التغيير.. حديث الشيخ الحقباني جاء رداً على سؤال لـ«البلاد» عن ما يتردد مؤخراً بوجود التوجه والنية لدى «البعض» في إزالة «صورة» من الشعار المتعلق «بالقبة الخضراء» .. وقال الحقباني: إنّ هذا من الأمور التي سبقت وبموافقة من قبل ولاة سابقين.. كما أكد لـ«البلاد» أحد المستشارين القضائيين بأنّ القبة الموجودة في مسجد الرسول في المدينة لا تعد معارضة «شرعية».

جريدة البلاد ، يوم الإثنين ٤- ٦- ١٤٣٢هـ

قطار المشاعر يعمل في رمضان

تدرس الجهات العليا تسيير

قطارات من المشاعر المقدسة إلى المسجد الحرام، وأخرى للنقل داخل المشاعر، وقال وكيل وزارة الشؤون البلدية والقروية والمشرف العام على الإدارة المركزية للمشاريع: إن قطار «الشمال» سوف يبدأ من عرفات ـ مزدلفة ـ منى وإلى التوسعة الجديدة لخادم الحرمين الشريفين للمسجد الحرام، وقطار الوسط سوف يبدأ من عرفات وإلى منى، وتسهيل عملية النقل داخل منى، ونقل الحجاج أيام «منى».

وعن تكلفة القطارات قال: إنها تقترب من تكلفة القطار «الجنوبي» الذي نفذ العام قبل الماضي، مضيفاً أن هناك دراسة لالتقاء القطار من محطة المسجد الحرام لمحطة قطار الحرمين وحتى نقطة «الشميسي». وفي تطور يخدم الزوار والمعتمرين قال د. حبيب: إنّ القطار القائم الآن سيتم استغلاله اعتباراً من

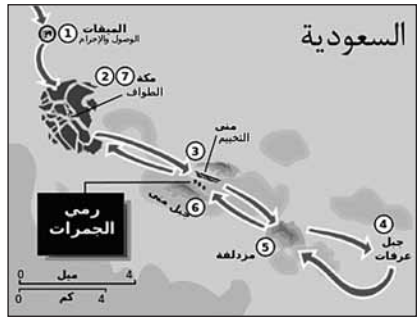

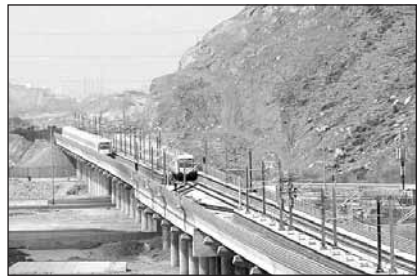

رمضان القادم بتحويل القادمين من جدة إلى «دقم الوبر» والقادمين من الرياض أو الطائف إلى محطة الجمرات، ومن ثم يتم نقلهم عبر «النقل الجماعي» تسهيلاً لحركة النقل في مكة المكرمة ومنطقة الحرم؛ وهي فرصة يوضح د. حبيب تهيئ للزوار والمعتمرين الاطلاع على المشاعر ومشروع جسر الجمرات. وختم د. حبيب أنّ قطار المشاعر ينقل ٣٥٠٠ راكب في الرد الواحد، والعام الماضي نقل أكثر من أربعمائة ألف حاج في مرحلة الحج من عرفات إلى منى، والطاقة الاستيعابية له خمسمائة ألف في الخمس ساعات.

جريدة البلاد ، يوم الإثنين ٢٨ـ ٥ـ ١٤٣٣هـ

إعفاء الحصين وتعيين السديس رئيساً عاماً لشؤون الحرمين

صدر أمس أمر ملكي يقضي بالموافقة على طلب معالي الرئيس

الحصين

السديس

العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي الشيخ صالح بن عبدالرحمن الحصين إعفاءه من منصبه لظروفه الصحية وتعيين فضيلة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس رئيساً عاماً لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي بمرتبة وزير. وفيما يلي نص الأمر الملكي: . . . بعد الاطلاع على ما رفعه لنا معالي الشيخ صالح بن عبدالرحمن الحصين الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي عن طلبه إعفاءه من منصبه لظروفه الصحية. أمرنا بما هو آت:

أولاً: الموافقة على طلب معالي الشيخ صالح بن عبدالرحمن الحصين الرئيس العام لشؤون

المسجد الحرام والمسجد النبوي إعفاءه من منصبه لظروفه الصحية.

ثانياً: يعين فضيلة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس رئيساً عاماً لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي بمرتبة وزير.

ثالثاً: يبلغ أمرنا هذا للجهات المختصة لاعتماده وتنفيذه.

عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود

جريدة البلاد ، يوم الأربعاء ٩ ـ ٥ ـ ١٤٣٢هـ

السديس يزور المسجد النبوي

زار معالي الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي الشيخ الدكتور عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس أمس المسجد النبوي الشريف واطلع على الخدمات المقدمة للزوار والمصلين، وذلك في إطار الجولات التفقدية والميدانية لتحقيق أوفر التسهيلات وأرقى الخدمات لزوار مسجد رسول الله ﷺ ورواده.

كما زار معاليه وكالة الرئاسة العامة لشؤون المسجد النبوي والتقى معالي نائب الرئيس العام لشؤون المسجد النبوي الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله الفالح، وفضيلة وكيل الرئيس العام لشؤون المسجد النبوي وأصحاب الفضيلة مديري الإدارات التوجيهية والخدمية والمكتبية بوكالة الرئاسة العامة لشؤون المسجد النبوي، حيث حثهم على تقديم أفضل الخدمات وأرقاها.

. . .كما أوصاهم بتقوى الله والجد والاجتهاد في العمل والسير على خطط موضوعة والاهتمام برقي الإنسان ليتناسب مع رقي المكان. . .

جريدة البلاد ، يوم الأربعاء ١٣ـ ٦ـ ٢٠١٢م

الشيخ السديس: مقر مكتبة الحرم مجاور لتوسعة الملك عبدالله

أكد الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي الدكتور عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس على العناية والاهتمام بدور المكتبة، وأن يكون مقرَّها بجوار المسجد الحرام مجاوراً لتوسعة الملك عبدالله لتكون منارة ثقافية يستقي منها الحجاج والعمار والزوار زاد العلم والمعرفة.

جاء ذلك خلال جولة قام بها على مكتبة الحرم المكي الشريف بمقرها بالعزيزية اطلع خلالها على أقسام المكتبة واستمع إلى شرح مفصل من مساعد مدير المكتبة الأستاذ عبدالله الحربي عن دور كل قسم في خدمة المطالعين.

وأثنى على جهود العاملين بالمكتبة وحثهم على بذل المزيد من الجهود في سبيل تطوير الخدمات المقدمة لرواد المكتبة. وعلى الصعيد ذاته ترأس الشيخ السديس اجتماعاً بمكتبه ضم عدداً من مديري الإدارات العاملة بمقر الرئاسة.

وفي بداية الاجتماع رحب بهم معاليه وأكد على أهمية الاجتماعات

الدورية لمناقشة القضايا والأمور المتعلقة بتطوير العمل كما أكد على أن مدير الإدارة هو القدوة لموظفيه العاملين بإدارته مشدداً على أن يكون العمل بروح الفريق الواحد وتفويض الصلاحيات مع المتابعة الدقيقة ورفع تقارير الإنجاز الأسبوعية لكل إدارة.

مكة المكرمة ـ حامد القرشي

جريدة البلاد ، يوم الخميس ٧ ـ ٧ ـ ١٤٣٢هـ

مكتبة عارف حكمت

علي محمد الحسون

تواصلاً لما تناوله أمس الصديق الدكتور عاصم حمدان في الزميلة جريدة المدينة عن ضرورة الاعتناء بالمكتبات الثقافية التي كانت تحيط بالمسجد النبوي الشريف.

أقول: تواصلاً لكل الذي تناوله، أود أن أضيف، وطالما الحديث عن مكتبة عارف حكمت والتي كانت في مبناها المتفرد معمارياً في جنوب المسجد النبوي الشريف، وبما تحتويه من مخطوطات في شتى المعارف والعلوم؛ أقول: ذات يوم قال لي الصديق الحبيب الأستاذ أسعد حمزة شيره مدير إدارة الأوقاف السابق، والأوقاف كانت تشرف على مكتبات المدينة المنورة بأن مكتبة عارف حكمت يجب أن تكون بجانب المسجد النبوي الشريف، لأن شرط الواقف يقول بذلك، وشرط الواقف كما هو معروف مقدم على أي إجراء آخر.

وأقول: إنّ هذه المساحات الواسعة

حول «الحرم» كان من الأحق أن تؤخذ مساحة من الأرض، وتقام عليها المكتبة، وبذات التوصيف الذي كانت عليه، وهو توصيف جميل يعطي للمكتبة خصوصيتها وهيبتها كمكان يرتاده الباحثون عن المعرفة بشتى فنونها.

إنّ ايجاد مكتبة بجانب المسجد النبوي الشريف أجدى من ايجاد أي شيء آخر غير المكتبة. فكيف إذا ما كانت تلك المكتبة التراثية المتفردة في الشكل والمضمون.

جريدة البلاد ، ١٥ ـ ٢ ـ ٢٠١٢م

حديث إلى الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي.. الجديد

خالد محمد الحسيني

«عهد» و«فترة» جديدة بدأت مع صدور الأمر الملكي باختيار معالي الشيخ د. عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس إمام وخطيب المسجد الحرام، رئيساً عاماً لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي ـ الأسبوع قبل الماضي انشئت الرئاسة في ١٣٩٧هـ وكان أول رئيس لها معالي الشيخ ناصر الراشد وعلى مرور أكثر من ثلاثة عقود أسندت مسؤوليتها لعدد من أصحاب الفضيلة كان آخرهم معالي الشيخ صالح الحصين، الذي أمضى فيها أطول فترة.. البلاد تعرض على معالي الرئيس العام الجديد الشيخ د. عبدالرحمن السديس أهم الملاحظات في الحرمين الشريفين بعيداً عن معهد الحرم المكي ومكتبة الحرمين التابعين للرئاسة.

أئمة المدينة المنورة: بالنسبة للأئمة في المدينة المنورة فيتردد أن العدد «قليل» وأنّ القائمين الآن بالإمامة «قضاة» في محاكم المدينة المنورة، ولا نجد أي مانع من اختيار أئمة من الذين تنطبق عليهم الشروط المحددة

من الرئاسة من غير هؤلاء وتوظيف عدد منهم، حتى لا يشكل التحديد لعدد قليل ضغطاً وإرهاقاً على الإمام أو غيره من زملائه، وهذا الأمر في المدينة المنورة، لأنّ العدد الموجود في مكة المكرمة يكفي، سواء في الأيام العادية، أو رمضان والحج.

زحام المواجهة: يا معالي الرئيس العام.. هذه فكرة واقتراح يمكن أن تناقش من قبل الجهات صاحبة العلاقة سواء في الرئاسة أو غيرها، وهي لم يتم منع الصلاة في المساحة أمام المواجهة الشريفة، ويتم «تأخير» الإمام إلى مكان «المنبر» الآن، وتخلو هذه «المنطقة» للزيارة فبقاء المسلين سواء في الأيام العادية أو أثناء «صلاة التراويح» في رمضان.

وفي أيام العمرة والحج في هذا المكان لا يتيح للراغبين في السلام على الرسول ﷺ ... كما يساهم في زيادة «الزحام» واستمرار الزيارة لوقت طويل لوجود الناس جلوساً في الطريق منذ بداية بوابة الدخول وحتى بوابة الخروج.

المؤذنون: هناك مشكلة لدى «المؤذنين» سواء في مكة أو المدينة، وآراء من هنا وهناك سواء عن العدد أو المستحق للأذان أو «طريقة» الأذان؛ وأرى أنه إكراماً للمؤذنين القدامى، لماذا لا يمكن أفراد الأسرة من الأذان إذا كانت الشروط الوظيفية والسلوكية وحُسن الصوت متوفرة، وأن يتم وضع تنظيم لذلك، فالعدد اليوم في مكة والمدينة قليل جداً، وأصحاب الأصوات الجميلة المتقدمون في السن يخشون طلب «الإعفاء» ولا يتم تعيين أبنائهم أو إخوانهم بدلاً عنهم، ومن حق الرئاسة أن تضع الشروط التي تضبط الاختيار، لكن مع المحافظة وتقدير السنوات الطويلة لكثير من المؤذنين الذين بدأ الأذان في أسرهم

منذ أكثر من مائة عام ونصف قرن..

دروس الحرمين: أسئل عن «دروس الحرمين» والتي كانت بمثابة «جامعة» سواء في مكة المكرمة أو المدينة المنورة، واستمرت سنوات طويلة جداً حتى تقلصت ثم توقفت وتحديداً في أول «التسعينات» الهجرية ولو قال قائل إنها لازالت موجودة، فنقول بأنها «محدودة» وقليلة وتركز على «أسماء» محددة والواجب أن تعطى الفرصة لكل قادر من العلماء وطلبة العلم بإشراف الرئاسة، وأن نجد حلقات «هنا وهناك» صباحاً بعد الفجر وفي العصر وبعد المغرب وبعد العشاء.. فالناس في حاجة لهذه الدروس في الحرمين، وهي من أول أدوارها منذ عهد النبيﷺ .. والأمل في عودتها في مكة والمدينة بالعدد الكافي.

إرشاد بالحسنى: شكوى الناس مستمرة من «غلاظة» القائمين على الارشاد سواء في المسجد الحرام وجوار الكعبة المشرفة أو أمام المواجهة في المدينة المنورة، ودفعهم للناس عند «التوقف» حتى لو كان لثواني للسلام وتجد الزوّار يسيرون في خط مستقيم حتى خروجهم من الباب من جهة «البقيع» كما أنّ السيدات يشتكين من «المرشدات» خاصة في المسجد النبوي وارتفاع أصواتهن، واستعمال عبارات غير لائقة مثل «يا مره» مما يعكس صورة سيئة عنا في الخارج، وما المانع أن تستبدل العبارة لدى المرشدين والدعاة في الحرمين إلى «يا أخي» و«يا أختي» أو ابنتي... وأن تعطى لهؤلاء دورة في «أسلوب المخاطبة» لأنهم صورة تُنقل من ملايين الزوار والمعتمرين والحجاج.

الزيارة الخاصة: أتحدث إلى معالي الرئيس العام الجديد أن يؤكد «المساواة» في المسجد النبوي بمنع «الزيارات» الخاصة التي نشاهدها

في بعض زياراتنا للمسجد النبوي، خاصة عندما يتم وضع «سياج» بجوار الروضة يقال إنه لزيارة مسؤولين وأسرهم، أو شيء من هذا، لأنّ المسجد النبوي يجب أن يتاح للجميع، وبنظام واحد، دون «استثناء» والواجب أن يكون كذلك.

كراسي المسنين: معالي الرئيس .. من الأمور الغريبة أن المسنين والعجزة في المسجد الحرام لا يُسمح لهم باصطحاب كراسي للجلوس عليها أثناء الصلاة، ولا توجد هذه الكراسي داخل الحرم في مكان خاص يؤخذ من المحتاجين لها وتعاد عند الخروج، ويقال إنّ هذه الكراسي متوفرة في المسجد النبوي.

الرئاسة والإعلام: لعلي من أكثر الإعلاميين علاقة بالرئاسة منذ رئاسة الشيخ ناصر الراشد وحتى اليوم، وخلال هذه المدة الطويلة تأكد لي عدم رغبة رجال «الرئاسة» في التواصل الإعلامي، كما يجب أن يكون ولي العديد من التجارب في هذا الأمر آخرها في رمضان العام الماضي ١٤٣٢هـ عندما لم أجد رداً من «النائب» للإذن بالتصوير أواخر شهر رمضان رغم تحدثي معه، وأشرت لذلك في مقال، وفوجئت بأنّ العلاقات العامة في الرئاسة «تخرج» عن الموضوع، وترد على الصحيفة بأننا لم نخاطب العلاقات برغبتنا بالتصوير، رغم أن الموضوع واضح؛ وهو اتصالي مع النائب، وليس العلاقات كما أن أي مسؤول في الرئاسة لمجرد أي سؤال مهما كان يحيلك للعلاقات التي تطلب مخاطبة أو إجراءات يفقد العمل الصحفي أهميته، ولا أعرف شيئاً من أمور «الحرمين» يمكن أن يكون «سراً» لا يمكن البوح به، هذا الأمر جعل أخبار الحرمين بعيدة عن «الإعلام» لوجود حواجز أمام الصحفي أو

الإعلامي.

والواجب أن تسعى إدارة العلاقات بالرئاسة بتزويد الصحفي بتقارير دائمة عن الجديد، ومن ذلك «مشروع توسعة الطواف» وغيره ولا يتحدث رجال الرئاسة إلا عن التجهيزات في رمضان أو الحج فقط.

جريدة البلاد ، ٢١ ـ ٥ ـ ٢٠١٢م

ألف عامل شاهدون على مشاريع مكة العملاقة

ما بين أفخم وأغلى المشاريع الاستثمارية المتاخمة للمسجد الحرام يلتقي قرابة ١٥ ألف عامل على مدار الساعة حيث يجمعهم أداء الصلوات المفروضة في الساحة المهيبة لأطهر بيت وفي أقدس بقعة.

هذا الكمّ الهائل من العمالة يعملون لدى شركتين سعوديتين، الأولى تشرف على أعمال بناء الحرم المكي الجديد ومجمع دورات المياه الجديد؛ والأخرى تنفذ مشروعاً عملاقاً يضم فنادق ومجمعات تجارية وتبلغ كلفة تلك المشاريع أكثر من ٨٠ مليار ريال تمثل في مجملها بناء أول واجهة حضارية للحرم المكي في عهد خادم الحرمين الشريفين.

ملتقى العمالة اليومي يتحول إلى ساعات للراحة والوضوء وأداء الصلوات وتبادل الأخبار والمنجز من المشاريع الكبرى.

العدد الهائل للعمالة يمثل شرائح متعددة من الفنيين والمهنيين والمهندسين لبناء مجمع جبل عمر التجاري السكني الذي يحتوي على فنادق ومراكز تجارية وأسواق وخدمات عامة وتبلغ الطاقة الاستيعابية للمشروع حوالي مائتين وخمسين ألف نسمة بالإضافة إلى طاقة استيعاب للمصلين تبلغ حوالي أربعمائة ألف مصلّ.

ويواصل العمال الليل بالنهار لإنجاز المشروع الضخم الذي تبلغ مساحته ٢٣٠ ألف متر مربع لتأمين السكن المناسب لعدد ٣٤,٥ ألف شخص، واستحداث مناطق سكنية وتجارية نموذجية وفق معايير التخطيط الحديث مراعية لترابط النسيج العمراني وطبوغرافية الموقع وتسهيل حركة المرور للحجاج والمعتمرين وتوفير ١٢ موقفاً للسيارات، وإنشاء مصليات مغطاة تتسع لحوالي ٨٠ ألف مصل مع دورات المياه بالإضافة للمصليات المكشوفة، ومواقع للخدمات العامة.

ويقول إيهاب إبراهيم فني تبريد إنه فخور بالعمل لتنفيذ مشروع توسعة الحرم المكي يسجل له سيرته الشخصية.

تنفيذ المشاريع العملاقة جمعت عمالة خمس جنسيات آسيوية وأفريقية في حين أصبحت المشاركة من قبل العمال والفنيين في تلك المشاريع أشبه بشهادة يفتخر بها الكثيرون أمام أهاليهم وذويهم، ارتداء العمالة للزي الموحد وأحذية العمل جعلهم يفضلون أداء الصلاة في الساحات المحيطة بدلاً من الدخول لأروقة الحرم المكي...

مكة المكرمة ـ هاني اللحيان

جريدة الرياض، العدد: ١٦٥٠٠

الأحد/ ١٣ رجب/ ١٤٢٣هـ

السديس يزور الهيئة وإدارة التوجيه بالمسجد النبوي

زار معالي الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي الشيخ الدكتور عبدالرحمن السديس أمس إدارة هيئة الأمر بالمعروف النهي عن المنكر بالمسجد النبوي الشريف حيث كان في استقبال معاليه مدير الهيئة الشيخ إبراهيم الغامدي وبعض منسوبيها.

وتحدث معالي الرئيس العام عن الدور الكبير لأعضاء الهيئة بالمسجد النبوي وما يجب أن يتحلوا به، معرباً عن سعادته بهذه الزيارة للذين يقومون بإحياء هذه الشعيرة والتواصل معهم والسماع منهم وملامسة همومهم وآمالهم، مشيراً إلى أهمية الدور الذي يقوم به رجال الهيئة من الذين يعملون في الحرمين الشريفين، لأنهم يخالطون أناسًا كثيرين تختلف عقائدهم وألسنتهم وثقافاتهم وبيئاتهم ويحتاجون أن يروا في رجل الهيئة الأنموذج المشرق في كون هذه الشريعة والشعيرة رحمة وبصيرة وحكمة ورفق بالناس مستدلاً بقوله تعالى: ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾ ...

وفي نهاية اللقاء شكر مدير الهيئة معالي الرئيس العام على توجيهاته السديدة التي تعد دليلاً واضحاً يسيرون عليه في حسن استقبال زائري المسجد النبوي الشريف ولين التوجيه معهم.

كما زار معاليه إدارة التوجيه والإرشاد بالمسجد النبوي التابعة لوكالة الرئاسة العامة، وكان في استقباله مدير عام الإدارة الشيخ سليمان العبيد ووكيلها نايف القرافي حيث تجول بمكتبة المسجد النبوي الشريف، واستمع إلى شرح وافٍ من مديرها عبيد العبيد على محتوياتها المكتبة وما فيها من علوم عدة مقروءة ورقمية.

ورافق معاليه في الزيارة معالي نائب الرئيس العام لشؤون المسجد النبوي الشيخ عبدالعزيز الفالح ومعالي نائب الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام الدكتور محمد الخزيم وفضيلة وكيل الرئيس العام لشؤون المسجد النبوي الدكتور علي العبيد والمستشار المشرف العام على

مكتب معالي الرئيس العام الشيخ محمد القويفلي ومدير عام العلاقات العامة والإعلام عبدالواحد الحطاب ومدير عام التنسيق والمتابعة صالح المزيني.

جريدة البلاد، يوم السبت ٢٦ ـ ٧ ـ ١٤٢٣هـ

المسجد النبوي يتسع لأكثر من مليون مصلّ

المدينة المنورة: أكد عبدالواحد حطاب، مدير العلاقات العامة بوكالة الرئاسة العامة لشئون المسجد النبوي، أن الطاقة الاستيعابية للحرم النبوي الشريف بعد التوسعة الجديدة للجهة الشرقية من المسجد، ارتفعت إلى أكثر من مليون مصل، منهم ١٥٠ ألفًا تتسع لهم جنبات المسجد، و٢٥٠ ألف مصل تتسع لهم المظلات الخارجية، فيما تتسع الساحات الأخرى لنحو ٧٠٠ ألف مصل.

وقال إن عدد أبواب المسجد تضاعفت لتصل إلى ١٠٠ باب، لتعطي المجال لانسيابية الدخول لأداء الصلاة أمام أكثر من مليون مصل .. مشيرًا إلى اكتمال الاستعدادات لاستقبال الزوار الذين يتوافدون في هذا التوقيت من كل عام، حيث تم تركيب ٤٣٦ مروحة رذاذ للتبريد على المصلين، وتركيب ٢٥٠ مروحة، فضلاً عن تكييف مساحة تصل إلى ١٠٠ ألف متر مربع داخل المسجد.

وأضاف حطاب أن هناك أكثر من ١٣٠٠ موظف وموظفة من الرسميين والمؤقتين، يوفرون الخدمات لزوار المسجد النبوي الشريف على مدى ٢٤ ساعة، تشمل الاستقبال على مدار الساعة، بداية من الساحات الخاصة بالمسجد، وملاحظة نظافتها باستمرار وتظليلها بفتح ٢٥٠ مظلة وقاية للمشاة وكذلك المصلين أثناء الصلاة، وكذلك ببقاء الممرات

الداخلية مفتوحة لدخول المصلين للأماكن الخالية داخل المسجد النبوي.

وأوضح أنّ الموظفين يعملون أيضاً على توفير مياه زمزم المبردة وغير المبردة في جميع نواحي المسجد النبوي والسطح بواقع ١٣ ألف حافظة مع توفير الأكواب البلاستيكية النظيفة ذات الاستخدام الواحد من المياه الباردة في جميع أنحاء الساحات المحيطة بالمسجد النبوي، وفتح مكتبة المسجد النبوي والمكتبة الصوتية الرقمية وقاعة المخطوطات على مدار الفترة الصباحية حتى التاسعة مساء.

وأشار المسئول السعودي إلى توفر الخدمة النسائية ممثلة في المراقبات والمرشدات اللاتي يتابعن أعمال هذه الخدمات باستمرار وتهيئة ثلاث زيارات للنساء للروضة الشريفة.

جريدة الوطن ١٠ـ ٦ ـ ٢٠١٢م